الشاعر

سليمان العيسى

ومسيرته الشعرية الإبداعية

عبد اللطيف الأرناؤوط

الشاعر

سليمان العيسى

ومسيرته الشعرية الإبداعية

دراسات

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢١م

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

في البدء كلمة

بقلم الدكتورة: ملكة أبيض

دراسات تمثل جهداً دؤوباً أجرى الصديق الأديب عبد اللطيف الأرناؤوط عبره تحليلاً دقيقاً لأهم جوانب إنتاج صديقه الشاعر سليمان العيسى، وللكتابين اللذين صدرا مؤخراً عن الشاعر احتفاءً ببلوغه الثمانين.

وقبل أن أتوقف قليلاً عند هذه الدراسات أو بعضها لابد لي أن أعرض للصداقة الحميمة التي ربطت المؤلف بالشاعر فترة طويلة من الزمن، فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً التقى عبد اللطيف صديقه سليمان في دمشق، وتوطدت بينهما منذ تلك الأعوام صلة لم تتوقف ولم تنقطع في يوم من الأيام. كان الأستاذ عبد اللطيف يتابع نتاج صديقه الشاعر أولاً بأول، يقرؤه بإمعان، ويكتب عنه في الصحف والمجلات، ويسأله عن أحدث نتاجه دائماً، ويحرص على أن يقتني نسخته من كل ديوان شعري أو كتاب نثري يصدر لسليمان. وربما كانت مكتبة أبي ماهر ـ مؤلف هذا الكتاب ـ من أهم المراجع لنتاج صديقه الشاعر. ولا أغالي إذا قلت: إنه كان أحرص من سليمان نفسه على الاحتفاظ بهذا النتاج وعدم التفريط بأية نسخة منه.

ولأعد الآن إلى حديث مقتضب عن الكتاب:

قلت إن الكتاب يتألف من أربع وعشرين دراسة تتناول مسيرة سليمان العيسى الطويلة مع الشعر، وكتابته للأطفال شعراً ونثراً وتعريفاً بالأعلام الكبار في شعرنا العربي، وكتاباته عن فلسطين والمرأة، وفن الإضحاك لديه. أما الدراستان الباقيتان فهما تعرضان كتاباً جمع فيه الدكتور إبراهيم الجرادي، بإشراف الدكتور عبد العزيز المقالح، سبعة وثلاثين بحثاً ومقالاً عن الشاعر تحت عنوان: سليمان العيسى... ثمانون عاماً من الحلم والأمل، وآخر من تأليفي (الدكتورة ملكة أبيض) بعنوان: وقفات مع سليمان العيسى، صدر عام ٢٠٠١م.

هذه الدراسات جميعاً، تتميز بالاطلاع الواسع والتحليل الدقيق. إلاّ أن فاتحة هذه الدراسات وهي: «سليمان العيسى ورحلة الشعر الطويلة»، تضيف إلى ذلك محاولة جديدة في بابها، لتكوين رؤية شاملة عن طريق المتابعة الزمنية لنتاج الشاعر، وتوزيعه على مراحل مع بيان السمات التي تتصف بها كل مرحلة، وإيراد الشواهد الشعرية التي تمثلها، منتقلاً بذلك من التحليل إلى النقد والتقويم..

هذا البعد الذي يتجلى في الدراسة قد لا نجده في أية دراسة أخرى تناولت نتاج الشاعر. ولذا يسرني أن تكون وقفتي في هذه المقدمة عند أهم ما ورد فيها من عرض وتحليل ونقد وتقويم.

تبدأ الدراسة بإلقاء نظرة بانورامية على طفولة الشاعر، وهجرته من قريته في لواء الإسكندرونة، وكفاحه الوطني والقومي، وقوله الشعر بصورة موازية لتلك الأحداث. وهي ترجع استمراره في عطائه الشعري لكونه يعدّ

الشعر رسالته الموجهة إلى الأمة، وتعبيراً عن التزامه تجاهها، وتوزع هذا العطاء على مراحل أربع:

المرحلة الأولى: شعر البواكير، من الطفولة حتى عام ١٩٥٢م، إذ أصدر ديوانه الأول **(**مع الفجر**)**.

هذا الشعر كما يقول: تغلب عليه النزعة الذاتية، ومعظم قصائده غزل رقيق يتسم بالرومانسية، إلى جانب بعض القصائد القومية التي يلوم فيها أمته على تقاعسها بعد نكبة ١٩٤٨م، ذلك أن الشاعر لا ينظر إلى مأساة فلسطين نظرة معزولة، بل يربطها بالمآسي التي ابتليت بها الأمة العربية، ويدرك أن الخيط الذي يحرك اللعبة واحد. ومنها مأساته هو وجيله في لواء إسكندرون.

ويرى الكاتب أن قصائد الديوان الأول تمثل ثنائية تمتزج فيها مشاعر الحب والثورة، في أسلوب يجمع بين اللين والعنف والرقة والاندفاع.

المرحلة الثانية: شعر النضال، **(**١٩٥٢ - ١٩٦٠م**)**، وهي فترة المد القومي والتفجر الشعري وقد تمخضت عن ستة دواوين، تبلورت فيها رؤية الشاعر القومية، وغدا بفضلها لسان حركة التحرر العربي يطير من بقعة إلى أخرى من بقاع الوطن الكبير، مشجعاً ومواسياً، متغنياً بانتصارات الجماهير، مبشراً بالخلاص دون أن يتسرب اليأس إلى نفسه أو تثنيه عن أمله نكسة أو قهر.

غلب على شعر هذه المرحلة طابع العفوية والاندفاع والصدق فجاءت قصائده كقطع من النار تلهب النفوس، وقد تأثر بها جيل كامل من الشباب على امتداد أقطار العروبة.

المرحلة الثالثة: مرحلة الضياع، **(**١٩٦٢ -١٩٦٧م**)**، وهي الفترة التي تحدّها كارثتان كبريان، انفصام الوحدة من جهة، ونكسة حزيران من جهة

أخرى، وقد أصدر الشاعر خلالها ديوانين: «أمواج بلا شاطئ»، و«أزهار الضياع»، اتسم شعره فيهما بالمرارة والحزن الهادئ، وخمدت ثورة اندفاعه، وتحوّل إلى رومانسية فيها الكثير من الشكوى والأحزان، كانت تلك مرحلة مخاض أشبه بمراجعة للماضي ووقفة على أسباب النكبات، ما لبث الشاعر بعدها أن أدرك أن الجماهير يجب أن تُبنى من الداخل، يجب أن تنشأ على قيم الأجداد، وأن تتفهم مشكلات الحاضر وتشارك في صنع إنسانيتها، من هنا يأتي تحوله إلى أدب الأطفال شعراً ونثراً، ونذْر جهوده له حتى أصبح من أوائل رواده.

المرحلة الرابعة: مرحلة النضج والكمال، بعد أن تزود الشاعر بتجربة لم تتوافر لشاعر من قبل، مجبولة بالكفاح العنيد، تجربة صقلت فنه، ومنحها الأسى عمقاً إنسانياً عظيماً فبدت قصائده أشبه بسمفونيات تتوافر على إيقاع متنوع جديد، وطاقات تعبير مبتكرة، لقد أصبح يكتب أغانيه بريشة البرق؛ كما سمى ديوانه الذي أصدره عام ١٩٧٣م.

هذه خلاصة سريعة للعرض التحليلي الجميل الجديد، الذي انطوت عليه الدراسة.

فإذا عبرنا منها إلى النقد والتقويم، نرى أن الكاتب يعارض تصنيف صديقه الشاعر في إطار الاتباعية (الكلاسيكية) الجديدة، لأن النزعة الذاتية لديه، حتى في طرحه للقضايا القومية، تبعده عنها، ويرى أن سليمان العيسى شاعر رومانسي، متمرد على واقعه، يفر من عالمه إلى حلم كبير يرى فيه سعادته وهو حلم توحيد الوطن العربي وبنائه.

صحيح أن الشعراء القوميين قبله، لم يقصروا في توعية الجماهير، لكنهم لم يجعلوا شعرهم وقفاً على القضية القومية، بل كان الأدب القومي جزءاً من

نتاجهم، أما هو فالمسألة القومية ظلت أبداً همه الكبير لا يغفل عنه حتى في شعر الحب والغزل والرثاء، بل هو في شعر الأطفال والشعر الضاحك أيضاً.

ويضيف الكاتب إلى ذلك أن موقف سليمان العيسى الشعري يساير موقفه القومي. إنه موقف وسط يشكل جسراً بين تراثنا الشعري من جهة، وما تستلزمه دواعي التجديد الشعري من جهة أخرى، تسعفه في ذلك شخصية شعرية متوازنة وثقافة لغوية عربية متينة، واطلاع واسع على شعرنا القديم، وثقافة عصرية فتحت عينيه على الآداب الأجنبية بصورة واسعة.

ويخلص الصديق الكاتب إلى أن سليمان العيسى شاعر رومانسي مجدد، يعتمد في تجديده على قدرته اللغوية الخلاقة، وزاده الثقافي الثّر. وألفاظ الشاعر وصوره أقرب إلى ألفاظ الشعراء الإبداعيين بزخمها وبالشحنات العاطفية فيها والمبالغات التي تنأى أحياناً عن الواقع.. وهي التي تنقل الحدث الواقعي إلى مس توى الفن المبدع. كما يتجلى إبداعه الفني في الصور المبتكرة والموسيقا المتميزة التي نلمسها حتى في كتاباته النثرية.

* * *

في نهاية هذه الكلمة أود الوقوف عند نقطة مهمّة أثارها المؤلف في طيات إحدى دراسات الكتاب وما أظن أحداً أثارها قبله بهذا الوضوح، وهي تتمثل فيما إذا كانت شهرة الشاعر العيسى أفادت من موقفه القومي، أم إن القضية القومية هي التي أفادت من عطاء الشاعر؟...

يجيب الكاتب الصديق عن هذا السؤال بقوله: إن شعر سليمان العيسى أدى دوراً كبيراً في نشر الاتجاه القومي والوعي القومي في أرجاء

الوطن العربي؛ بل ربما كان انغماس الشاعر في خضم الأحداث الوطنية والقومية قد ألقى ظلالاً على الجوانب الفنية في شعره، ولكن سليمان آثر هذا الموقف، أو ربما لم يستطع الإفلات منه.

لقد شاء قدره أن يعيش ـ منذ الطفولة ـ اغتصاب وطنه الصغير والهجرة منه إلى وطن أكبر يرزح تحت الظلم الداخلي والاستعمار الخارجي، فكان من الطبيعي أن يشهر السلاح الذي يملكه لمقارعة هذه الأوضاع، ويجعل من الخلاص القومي هدفه وهمه الأول، ومن الشعر وسيلة لبلوغ ذلك، بالرغم من الخيبات الكبيرة التي عانى منها، ولكن ذلك لا يمنع من كون الوسيلة التي استخدمها شعراً جميلاً، أصيلاً ومتجدداً، يقف في طليعة تيارات التجديد الشعري التي ظهرت في القرن الماضي.

ولا بد، قبل الختام، أن ألفت النظر أيضاً إلى إحدى الدراسات التي كانت جديدة في بابها، وجديرة بأن تتلوها دراسات في هذا الباب، ألا وهي فن الإضحاك عند سليمان العيسى. لقد كان هذا الجانب المهم جداً في نتاج الشاعر غائباً عن الأنظار، وما يزال غائباً فيما أعلم.

ولعل هذا الشعر الضاحك هو المرآة التي تتجلى فيها صورته الشفافة، البسيطة العميقة في آن، على حقيقتها أكثر من أي شيء آخر.

الكتاب ممتع ومفيد فيه كثير من الجهد والنظرات الشخصية، إضافة إلى العرض الشائق المقترن بالشواهد الشعرية في مختلف الموضوعات.

ولقد سعدتُ بقراءته، كما أسعد دوماً بقراءة الإنتاج الثر للصديق الأديب عبد اللطيف الأرناؤوط.

أتمنى له طول العمر، والمزيد من العطاء.

سليمان العيسى

ورحلة الشعر الطويلة

سليمان حلقة وصل بين جيلين من شعراء عصرنا، جيل التفت إلى القديم واتخذه مثلاً يُحتذى، وجيل خرج على القصيدة العربية من حيث وزنها وديباجتُها، والتفت إلى الأدب الغربي، أما الشاعر سليمان العيسى فقد أقام جسراً بين تراثنا الشعري وما تستلزمه دواعيه تسعفه في ذلك شخصيته الشعرية المتوازنة مع ثقافة لغوية متينة، واطلاع راسخ على شعرنا القديم، وثقافة عصرية فتحت عينيه على الآداب الأجنبية بصورة واسعة. في لواء الإسكندرونة الجميل، ولد سليمان العيسى في عام ١٩٢١م، في قرية النُّعيرية، على ضفاف نهر العاصي الذي يخترقها، فيهبها الماء والرُّواء.

وعلى يد أبيه الشيخ أحمد العيسى تلقى مبادئ القراءة والكتابة في كُتَّاب القرية، وقد حرص والده أن يكوّنه تكويناً ثقافياً متميزاً، وفق الثقافة التقليدية السائدة، فحفّظه القرآن الكريم، وديوان المتنبي، وعشرات من عيون الشعر العربي، ثم أشركه معه في التعليم بالكتَّاب، وبسبب هذه الرعاية التي رفدت نبوغ الفتى تفتحت مواهبه في زمن مبكر، فنظم الشعر في العاشرة من عمره.

عـلى ضـفاف التّينـة الـشهباءِ كنـتُ أجلِـسُ
هنـاك راحـت بـالهوى أولى القـوافي تهمـسُ
ديـــواني الأولُ أحـــلى نغـــم وأســـلسُ
لم تتبـــدل خفقـــةٌ كانـــت هنـــاك تهجـــس
إلاَّ كـــما يـــضيعُ في وهـــجِ الـــصّباحِ الغَلَـــسُ

ومنذ الطفولة تحدد مستقبل الشاعر، فقد أَهَّلته رعاية أبيه أن يكون شاعراً.

وكانت أسرة سليمان العيسى تعيش في حال أقرب إلى الفقر، إذ ليس لها من الموارد إلاَّ ما يناله الأب من أجرٍ في الكتَّاب وبعض ما تغله على الأسرة بضعة «دونمات» من أرض تملكها وتزرعها بنفسها.

طفـــولتي مـــن لَهَـــبِ الفقـــر ومـــن ترابـــهِ
ســـخّرت للثـــورة حِرْمـــاني وكـــلَّ مـــا بـــه
في قريـــة إن قلـــتُ: جـــرداءُ، فلـــستُ أكـــذبُ
طفـــولتي فُـــسحة بيـــت مهمـــلٍ وملعـــبُ

* * *

في الطـــين بـــين صـــبية مـــن عُمُـــري لم يـــذهبوا
مـــا زلـــتُ إن كنـــتُ اغتربـــتُ عـــنهمُ واغتربـــوا
أحملهـــم ثـــورة جيـــلٍ في دمـــي تلتهـــب

* * *

وانتقل بعد أن أنهى تعليمه في كتَّاب والده إلى مدينة أنطاكية فأتم دراسته الابتدائية، وكانت ثورة أبناء اللواء العربي قد تأججت بعد أن شعر سكانه بمؤامرة سلخه عن وطنه الأم سورية، فانخرط الشاعر وهو طفل في مظاهرات الاحتجاج، وألقى قصائد في هذه المناسبة لفتت إليه الانتباه، ولم يجد بداً من مغادرة بلده بعد سلخ اللواء، فترك الصغير مدارج طفولته بعين دامعة، في محاذاة نهر العاصي الذي أحبه، سيراً على الأقدام، وهو يتمنى لو يردّه النهر إلى وطنه، حتى بلغ الأراضي السورية.

التقى سليمان في سورية رفاقَهُ من اللوائيين المهجّرين وتابع دراسته الثانوية في حماة واللاذقية ودمشق، وشارك في النضال الوطني زمن الانتداب، فسُجن أكثر من مرة، ونظم أكثر من قصيدة قبل أن يستكمل دراسته الثانوية، ولم يثبت الشاعر العيسى شيئاً من قصائده في مرحلة الطفولة في ديوانه. ولعله لمحَ فيه بعض ما لا يرضاه كما أشار في مقدمة الديوان.

وفي عام ١٩٤٧م استقر في مدينة حلب، يدرّس فيها الأدب واللغة العربية حتى عام ١٩٦٧م ويُشارك في الكفاح الوطني والقومي، وقد نشر في هذه الفترة عدة دواوين ومسرحيات، ثم عين موجهاً أول للغة العربية في وزارة التربية بدمشق إلى أن أُحيل على التقاعد دون أن يفتر نشاطه الأدبي المتواصل.

شارك الشاعر في المؤتمرات الأدبية في الوطن العربي والعالم. ونال جوائز تقديرية لإسهامه الخلاق في شعر الكبار والصغار.

آثاره:

للشاعر سليمان العيسى نتاج أدبي حافل، شديد التنوع، فيه الشعر والنثر، والترجمة وكتابات الأطفال المعروفة التي تربو على أربعين أثراً للصغار.

أما نتاجه الشعري فثلاثة أنواع: شعر للكبار، ومسرح شعري للكبار والصغار، وشعر للأطفال اتجه إليه في المرحلة الأخيرة وقد جمع نتاجه الشعري الذي وجهه إلى الكبار في أربعة مجلدات ضخمة يربو كل منها على ٦٠٠ صفحة. يضاف إلى هذا ديوان «الثُّمالات» الذي صدر أخيراً عن الهيئة العامة للكتاب في صنعاء عام ٢٠٠١ في مجلد يربو على (٨٩٠ صفحة)، وكان مزيجاً من الشعر والنثر.

وللشاعر مجموعة دراسات ومقالات نثرية كان ينشرها في المجلات، ثم جمعها في كتاب سماه «دفتر النثر».

نتاج غزير لم يسبق مثله لشاعر من شعراء العروبة. وواقع الحال أن شاعراً مثل سليمان العيسى نذر نفسه للشعر منذ العاشرة من عمره ومارسه ستين عاماً.. وأقبل عليه بعد أن ملك أساليبه بالحفظ والمثابرة والإبداع، لا يعد مكثراً خلال العِشْرِة الطويلة للشعر، وثمّة أمر آخر وهو التنظيم، فقد وطن نفسه أن يصدر كل عامين أو ثلاثة أعوام أثراً من آثاره الأدبية. ولم يُلْحَظ أنه انقطع عن نظم الشعر بدافع ما فترة طويلة من الزمن، كما نلاحظ ذلك لدى كثير من الشعراء. وهو شديد الإتقان، أمين في تبليغ رسالته، تخرج القصيدة من بين يديه مضبوطة بالشكل مشروحة، واضحة الهدف محددة بمناسبتها، جاهزة للنشر. ولعل من دواعي غزارة الإنتاج لديه أن الشعر عنده لم يكن تعبيراً ذاتياً عن نفسه بقدر ما كان رسالة موجهة إلى الأمة.

فمن البديهي أن يعبر عن أحاسيسه الوطنية في كل مناسبة قومية أو وطنية، وفي غير مناسبة، ما دام الشعر رسالة والتزاماً.

* * *

إن شعر سليمان العيسى يمثل مرحلة متوسطة بين القديم والجديد، فالمجددون من شعرائنا المعاصرين حرصوا أن يقطعوا الصلة بين ماضي الشعر العربي وحاضره، وأقاموا تجديدهم على نقض البناء القديم والخروج عليه، أما الشاعر سليمان العيسى فقد حرص على أصالة الشعر العربي، فظلَّ وفياً لأوزانه وأساليبه، لإيمانه بأن الثورة ليست نقضاً وهدماً، إنها تطوير للتراث، وصقل لجوهره، وموقفه الغني هذا ينبع من موقفه الثوري، لأن نظرته الثورية لتغيير الواقع العربي لم تكن مستوردة. وكانت نظرة قومية يرتبط فيها ماضي الأمة بحاضرها وتسعى إلى إنهاضها من جديد واسترداد وحدتها وحقها في الحياة الحرة الكريمة، ولا يعني لك أن الشاعر يريد أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء، فالماضي لن يعود كما كان. ولكن رسالة الشاعر أن يتعرف نقاط الضعف في الماضي التي تسدّ أبواب المستقبل، حتى فيما يتعلق باللغة العربية وأدبها، والعروبة عنده نسيج حضاري كبير، ضارب بجذوره في أغوار التاريخ، تشابكت فيه ملايين الأصول والفروع:

وأبعـــدُ نحـــن مـــن عـــبس	**ومـــن مُـــضَر، نعـــم أبعـــدْ**
حمـــورابي وهـــاني بعـــل	**بعـــض عطائنـــا الأَخلـــدْ**
ومـــن زيتوننـــا عيـــسى	**ومـــن صـــحرائنا أحمـــد**
ومنـــا النـــاس، يعرفهـــا	**الجميـــعُ، تعلّمـــوا أبجـــد**

والربط بين الماضي والحاضر يقوم على تصفية التراث ونقده، وتفسيره تفسيراً جديداً، وتجديد التعبير الشعري القديم ليكون أكثر مواءمة للعصر، يقول:

«أَنْ تعتصر المتنبي ولوركا... والمعري وغوته، ثم تقف على قدميك وترى الدنيا بعينيك، تلك هي الحداثة والمعاصرة، بكلمة أدق: تلك هي الأصالة».

والثقافة القومية تغتذي من الثقافة العالمية على أن تظل محتفظة بشخصيتها المتميزة يقول سليمان العيسى:

«أنا جزءٌ من أمتي، ونحن جزء من الإنسانية، ولا سيما المقهورة المعذبة منها. وحين أتنفس برئتي، وأحس بأعصابي وأدافع عن وجودي المهدد، عن إنسانيتي، عندئذٍ سألتقي الإنسانية كلها، وأحيا فيها وتحيا فيَّ».

إن إنهاض الأمة يتوقف على إنهاض إنسانها المجدد المبدع المناضل الذي يعرف كيف يبني الجديد على قلاع التراث الراسخ المكين. يقول الشاعر:

رست في تربة الماضي جذوري ... وكلُّ ظليلةٍ في التربِ تُرسي
ولكني لكي أنمو وأحيا ... أنا ابْنُ غدٍ، ولستُ ابْنًا لأمسِ

من هذه النظرة الثورية أصبح الشعر عند سليمان العيسى التزامَ أهدافٍ يعيها الشاعر جيداً، والشعراء القوميون قبله لم يقصروا في توعية الجماهير، لكنهم لم يجعلوا شعرهم وقفاً على القضية القومية، فكان الأدب القومي جزءاً من نتاجهم، أما هو فالمسألة القومية همّه الكبير، لا يغفل عنها

حتى في شعر الحب والغزل والرثاء. ويمكن تقسيم شعر سليمان العيسى للكبار إلى مراحل هي:

١ ـ المرحلة الأولى ـ شعر البواكير:

وتمتد من طفولته حتى عام ١٩٥٢م وهي السنة التي أصدر فيها ديوانه الأول (مع الفجر). في هذه المرحلة استكمل الشاعر تخصصه في الأدب واللغة، مثلما استكمل نضجه الفني، فنلمس في ديوانه الأول طغيان النزعة الذاتية. أما الموضوعات القومية فلا تحتل إلاَّ حيزاً محدوداً. ولعل الشاعر أسقط قصائد عديدة نظمها في طفولته وشبابه لأنه لم يكن راضياً عنها. وما ورد في قصائد معدودة لا يتجاوز ما قدّمه الشعراء القوميون قبله من شعر، وفي الديوان غزل رقيق يتسم بالرومانسية.

فمن قصيدته «على الصخرة» يقول:

ألم نكن نرسو على شطّها ... طفلين مثل النغمِ الشاردِ
في قبلة حالمة إن أضعْ ... وإن تضيعي فعلى ساعدي
تباركَ الحبُّ فكم أرعشت ... يمناه قلبَ الحجرِ الهامدِ

في هذه الفترة، مرّت بالأمة العربية أحداث جسام منها نكبة عام ١٩٤٨م التي أحزنت الشاعر كثيراً، فكان يلوم أمته على تقاعسها أكثر مما يتبين أسباب الضعف والتشتت:

الشعلةُ الظمأى نشيدي ... والزفرة الحرّى قصيدي
لا تسأليني أن أغني ... بين جلجلة القيود
أنا من بلاد لا تجيد ... سوى المذلّة والسجود

ولا ينسى أن يحمّل أصحاب الشأن في أمته مسؤولية النكبة:

أوليـــتِ أمـــركِ خـــادعين يمزقونـــك كيـــف شـــاؤوا
بـــدماركِ ا فترشـــوا النعيـــــم ومـــاج حـــولهم الثـــراءُ
بـــدم الجيـــاعِ ودمعهـــم شـــيدت قـــصورهم الوِضـــاءُ
مهـــلاً ســـينهتكُ الـــستارُ إذا تكلمـــــتِ الـــــدماء

ولا ينظر إلى مأساة فلسطين نظرة معزولة، بل يربطها بالمآسي التي ابتليت بها الأمة العربية، ويدرك أن الخيط الذي يحرك اللعبة واحد.

أرضُ العروبـــــة كلهـــــا جـــرح يـــصيح بـــلا جـــوابِ
في كـــل زاويـــة فلـــسطينٌ مدنَّـــــسة الـــــتراب
وطـــن الجـــدود ولا أرى إلاَّ مراتـــــعَ للـــــذئابِ
نـــامي عـــلى غـــدر اللئـــام وقـــادمٌ يـــومُ الحـــسابِ

وعلى ندرة القصائد المستقلة في هدفها القومي، لا يخلو ديوان مع الفجر من استغلال ذكي تنعطف فيه القصيدة نحو هدف قومي حتى لو كان موضوعها أبعد مايكون عن هذا الهدف، يخاطب المغنية أسمهان في إحدى قصائده قائلاً:

إِســـــــقنيها مـــــــع النـــــــدامى اســـــــقنيها
واصـــــــهري الـــــــشعر واصـــــــهرينيَ فيهـــــــا
تلـــــك كـــــأسي عطـــــشى فـــــلا تتركيهـــــا
تتحـــــــدى عينيـــــــك أن تُـــــــسكريها

آهــــــــةً بعـــــــــد آهـــــــــةٍ، وانظريهـــــــا
كيــــف تهـــوي عــــلى فمـــــي كالـــــشهيد
غمغـــــاتٍ يَـــــصِحْنَ هـــــل مــــــن مزيـــــد؟

* * *

حرقــــــــةٌ أنـــــت في فــــــؤاد الغنــــــــاءِ
أن تنـــــامي عـــــلى الكـــــؤوس الظـــــاءِ
قبـــــل أن تــــــشهدي مـــــع الــــــصحراءِ
يـــــوم عـــــرس الحريـــــــة الزهـــــــراءِ
قبـــــل أن تــــــصدحي بلحـــــــن الجـــــلاء
وتهـــــــزّي بـــــــه رفـــــــاتَ الجـــــــدودِ
يـــــوم نمـــــشي عـــــلى حطـــــام القيـــــود

* * *

إن قصائد ديوانه الأول تمثل ثنائية تمتزج فيها مشاعر الحب والثورة، في أسلوب يجمع بين اللين والعنف، والرقة والاندفاع.

٢ ـ المرحلة الثانية ـ شعر النضال:

تمتد هذه المرحلة من سنة ١٩٥٢م حتى سنة ١٩٦٠م، وفيها تبلْورت رؤية الشاعر القومية، وأصبح لسان حركة التحرر العربي، وحادي قوافلها في طريق الكفاح، وتمخضت هذه الفترة عن ستة دواوين له هي:

١ ـ أعاصير في السلاسل.

٢ ـ شاعر بين الجدران.

٣ ـ رمال عطشى.

٤ ـ قصائد عربية.

٥ ـ صلاة لأرض الثورة.

٦ ـ ثائر من غِفَار.

أصبح الشعر عند سليمان في هذه المرحلة رسالة قومية، موجهة إلى الجماهير صاحبة المصلحة في التغيير، وهو عنده كالفنون جميعها، أداة توعية وشرارة ثورة. إنه كما يسميه كهرباء تسري في النفوس فتحرك الهمم الساكنة، وتنير العقول. وشعره النضالي لم يكن موجهاً إلى قطر دون قطر، كان شعراً شاملاً هموم الأمة العربية من المحيط إلى الخليج. والشاعر أشبه بسندباد يطير بأجنحة الخيال من بقعة إلى بقعة، مشجعاً ومواسياً، متغنياً بانتصارات الجماهير مبشراً بالخلاص، دون أن يتسرب اليأس إلى نفسه أو يثنيه عن أمله نكسة أو قهر. سُجن أكثر من مرة. فزاده السجن مضاءً واتخذ منه مادة يفضح فيها أعداء الشعب.

ولعل الكلمة التي قدّم بها الدكتور وهيب الغانم لديوانه «أعاصير في السلاسل»، هي خير تعبير عن شعره في هذه المرحلة. يقول:

[أما الشاعرية فهي طابع حياته بأسرها، وهي أيامه وآلامه ومسراته، وإنه يقف فيها إلى جانب أفراد قلائل في بلاد العروبة، لكنه يمتاز عنهم جميعاً بأنه الشاعر القومي، فليس اليوم شعر نجد فيه التحسس النضالي واضحاً بارزاً كما في شعر سليمان العيسى، الفقر والجوع والمرض والثورة..

ارتباط الفكر بالعمل، الارتقاء من مناظر البؤس والتشرد إلى توضيح سبل الخلاص. ليس في العربية ألحان تغني آلام الأمة وشقاءها الأسود، وتبشر بثورتها وخلاصها كما يفعل صاحب أعاصير في السلاسل..].

غلب على شعر العيسى في هذه المرحلة طابع العفوية والاندفاع والصدق، فجاءت قصائده كقطع من النار تُلهب النفوس، تأثر بها جيل كامل من الشباب العربي على امتداد أقطار العروبة.

إنها أشبه بوقود يغذي الثورة، كانت قصائد تصدر عن مدينة حلب وسرعان ما تسري بين الناس، فتُنسَخ وتُتلى في كل مكان.

ادفـنِ الـشكوى أخـا الجـرح وجنّبنـي النـشيدا
أنـا لـن أحمـلَ ألحـانيِ أنينـاً وقيـودا
لعنـةُ الأجيـال قيثـاري إذا ظـلَّ قـصيدا
لعنـة التـاريخ شـعر لم نجـسّده وقـودا
قـم معـي نحـشدْ ضراعـاتِ الجيـاع الظامئينـا
ودمـوعَ البـؤس والآلام تخـشى أن تبينـا
ويـد الحرمـان تستـصرخ لا تلقـى معينـا
قـم نلقـن غـضبةَ الأجيـالِ شـعباً مـستكينا

ويبدو الشاعر سليمان في هذه المرحلة مقاتلاً، لكن سلاحه الكلمات، جماهيره في المعركة التي يقودها هم العمال والفلاحون وبؤساء هذه الأمة يقودها في موكب النور إلى الخلاص:

يلقاكِ بالدمعِ، دمعِ الثورة النغمُ ... يـا أمـةً في الزنـود الـسمر تبتـسمُ
ورحتُ ألمحها في الدرب قافلـةً ... عطشى، تَصارعَ فيها الفجر والظُّلَـمُ
تشد بالكبـد الجوعـان خطوتهـا ... وبالعقيـــدة لا شـــكوى ولا ســـأَمُ
هتفتُ بالـشعرِ أستـسقيه قافيـةً ... حمراء، فانفجرت في أضـلعي الحمـمُ
ولاح مـوكبيَ المـاضي بجبهتـه ... عضُّ القيود ولـسع الـسوط يرتـسم
ووالـغٌ في دمِ الأحـرارِ طاغيـة ... مـا زال مـن شـبح الأحـرار ينهـزم
وعاملٌ أسمر الزنـدين منـتفض ... في كوخه مـا يـشاء البـؤسُ والعـدمُ
وقبـضة فـوق محـراث مُـشَقَّقَةٌ ... حصادُها الجوع بعد الكـدِّ، والـسَّقَم
يا موكبَ النـور مـن آلام أمتنـا ... ودمعهـــا ودماهـــا وهـــي تقـــتحمُ
رافقتُ دربكَ طفلاً والهوى لهب ... والدربُ في كل خطـوٍ شـوكة.. ودمُ
رافقتُ دربك لم نخطئ رسـالتنا ... يوماً ولم نجـترح في العهـد مـا يَـصِمُ
للمعـــولِ الـــصَّلْدِ عهـــد في ... ألاَّ يُـــــرَدَّ وفي ســـــاحاتنا صـــــنم

ولكن الدرب طويل، والعوائق كثيرة، والقافلة تضرب في صحراء قاسية، يمزقها الجوع والعطش والتيه، وتنوشها الوحوش الكاسرة، فهل تبلغ شاطئ الأمان؟

ويضرب الشاعر بسيف كلماته، يذود عن القافلة في مسيرتها والليل بهيم، يلتفت تارة إلى سجّانه الذي يحاول أن يلجم صوته، فينذره:

هـــذا هـــو الـــسجنُ الرهيـــب ... فهـــل تـــراه أَحـــسَّ مـــا بي
أَتُـــــراه أبـــــصر سَـــــوْرة ... حمـــراءَ تـــومئُ بالحـــساب؟

إني لأُنـــــذره وســــــوط   المــوت فــوقي، بـــالخرابِ

إِني لأُنـــــذره وأجهـــــــل   كـــم يطـــول بـــه غيـــابي

للمـــوت مـــا رفـــع الطغـــاة   مـــن الـــسدود وللتبـــابِ

ويلتفت الشاعر تارة إلى ما وراء السجن والسجّان، إلى القوى الخفية التي تحرك الأحداث:

وسُدًى أيها الطاغي يُشَدُّ حجابُ   على كـل صـوت أو يـسمَّر نـاب

سدًى أيها الـسفّاح تُخنـق صـيحة   ويُطفأ من غـير الخـلاص غـلاب

رويدك جزار الشعوب، سـكونُها   لـه في نـزال العاصـفات حـسابُ

أريقوا دم الأحـرار فـالفجر بيننـا   وظمأى ميادين النـضال رحـابُ

إذا اسـتعرت نـار الحيـاة بأمـة   فكـــلٌّ تحـــدّ للـــسعيرِ لِهـــابُ

ويتعاظم المدّ الثوري في الوطن العربي، وتصل بعض فصائله إلى الحكم، فيكون ردّ الاستعمار عنيفاً، يتمثل بالعدوان الثلاثي على مصر، وثورتها، فيستفز الشاعر هذا الحدث ويمجد نضال مصر بقيادة بطلها جمال عبد الناصر، في أكثر من قصيدة:

مـــاردَ النيـــل يـــا أبـــا الرايـــة الخـــضراء

عطـــــــرٌ رفيفهـــــــا وضـــــــياءُ

أيهـــــا العاصـــــف المفجّـــــر أرضي

بـــــالبطولات ذكـــــرهن انتـــــشاءُ

يـــا رؤى النـــصر في جفـــون الـــضحايا

قبـــــل أن يطفــــئ البريـــــقَ ضـــــياءُ

يـــا هـــوى الجيـــل يـــا حـــديث صـــغاري

وهـــــم يلثغـــــون: نحـــــن الفـــداء

أي دنيــــــا فتحتهــــــا في بـــــــلادي

حيـــــث مـــــرّ الأبطـــــالُ والأنبيـــــاء

ومنذ عام ١٩٥٩ م حتى عام ١٩٦٢ يكاد الشاعر يتفرغ كلياً لثورة الجزائر المجيدة، فينظم فيها ديوانه: «صلاة لأرض الثورة» بعد اتصاله بأدبائها، ولا سيما مالك حداد الذي خصّه بأكثر من قصيدة أو إشارة في شعره:

ســــأكتب عنــــك يـــــا مالــــكْ

سأعجن بالحروف الخضر كـلَّ عطـاء آمالـكْ

ســــــأكتب عنــــــك أنـــــــشودة

تـــرنّ بـــأحرف القـــرآن، بـــالأوراس مـــشدودة

تغـــط جناحهـــا في صـــدر (مَجْـــرَدَةٍ) فتلتهـــبُ

ويـــــــشرب وهجهـــــــا العـــــــرب

وتتعدى اهتماماته الوطن العربي، فيلتفت إلى حركات التحرر لدى شعوب العالم الثالث، إلى العمال الأفارقة في جنوب أفريقية الذين مزقوا علم بريطانيا في إحدى انتفاضاتهم، ورموا به في اليم فيخاطبهم قائلاً:

دعـــــوه فـــــوق المـــــوج، فـــــوق الزَّبَـــدِ

يجـــــر عـــــــار الأبـــــــــد

يحمـــل تـــاريخ الـــدماء والحقـــود في يـــدِ

وعِظــةَ المــصير بــالأخرى، مــصيرِ المعتــدي

دعـــــــوه فـــــــوق الزبـــــــدِ

يعـــــود مـــــن حيـــــث أتـــــى

ممزقــــــــاً مــــــــــشتتاً

لم يرتفــــــــــــع في بلـــــــــــدِ

إلاَّ عـــلى دمـــوع شـــعب ضـــائع مـــشرّد

* * *

الغابـــــة الـــــسوداء بنـــــتُ الأزل

تجللـــــــــــــت بالــــــــــــشعلِ

ويشجّع الثوار في كل بقعة من بقاع الوطن العربي، ليكسروا القيد بعد قيام الوحدة بين سورية ومصر في عام ١٩٥٨م.

أيـن أهـلي في القـدس فـوق الـضفاف الـ

خـضر ضـجت في صـدرهم أشـواقي

يـــا صـــقور الجزائـــر الـــسمر عيـــدي

وقـــصيدي لكـــم ووهـــج احتراقـــي

يـــا دويَّ الرصـــاص زغـــرِدْ عـــلى الأو

راس بـــاقٍ عـــرسُ العروبـــةِ بـــاق

لــــن نـــــرد الــــسيوف في الغمـــدِ حتـــى

نلتقــــي تحـــت بنــــدنا الخفـــاقِ

ثم تتعاون قوى الشر الممثلة بالاستعمار والصهيونية على خلق نكسة حزيران من عام ١٩٦٧م، وتتصدع حركة التحرر العربي فتتفرق في انقسامات قاتلة، ويشهد الشاعر انهيار الحلم الكبير الذي كاد يقبض عليه بعد مطاردة طويلة، ويدرك أن درب الآلام طويلة، وحادي القافلة مجهد، جرّحتْ صوته العذابات وأدمته الأشواك، لا يدري الآن أيغني أم يوقّع أحزانه الكبيرة!!..

٣ ـ المرحلة الثالثة ـ مرحلة الضياع:

وتمتد هذه المرحلة من عام ١٩٦٢م حتى نكسة حزيران ١٩٦٧م ويمثلها في هذه الفترة ديوانان صدرا للشاعر هما:

١ ـ أمواج بلا شاطئ. ٢ ـ أزهار الضياع.

ويمثلها أيضاً بعض قصائد من ديوانيه:

١ ـ أغنيات صغيرة. ٢ ـ وكلمات للألم. عبّر الشاعر سليمان عن أساه وضياعه في هذه المرحلة قائلاً.

ضـــائعٌ شــاعرُ النهـــارِ ممـــزَّقْ كـــانَ وهمـــاً نهـــارُهُ لا يـــصدّق

ضـــائعٌ مـــثلما يمـــوج بعينيـــك شِراع ضــــلَّ الــــشواطئَ أزرقْ

لم يكن ضياع سليمان العيسى بعد النكسات التي منيت بها حركة المدّ العربي، كفراً بأمته أو بإيمانه العظيم بالمبادئ التي دافع عنها، بل كان ردّة

فعل نفسية، مسحت شعره في هذه المرحلة بالمرارة والحزن الهادئ، وأخمدت سورة اندفاعته، كانت أشبه بمراجعة للماضي ووقفة على أسباب النكسات، كانت تحولاً إلى رومانسية ذاتية فيها الشكوى وترديد الأحزان بعد أن رأى كل ما حاول أن يبنيه يكاد يبتلعه السراب.

وركـــــضنا مـــــلءَ الـــــدربْ
نــــسقيه دمـــــاء القلـــــبْ

ورجعنـــــا نبـــــصق أمجـــــاداً
نتثـــــاءب جوعـــــاً وســـــهاداً

كِـــذَّاباً كـــان.. ومـــيضَ سراب
وَهُـــــــاثَ يبـــــــاب
كِـذَّابًا كـان نهـاري الفـذّ.. ركـامَ ضبـاب

وتمـــــزَّقَ جيـــــل في الظمـــــأِ
في قـــاع اليـــأسِ تمـــزق جيـــلْ

كـــــالوهجِ، كفجـــــر منطفـــــئِ
كهمـــــــود قتيـــــــلْ

ورميـــــــت بطـــــــرفي في اللُّـــــجِّ

وشراعــــــــي ألهيــــــةُ المـــــوجِ

الــــــشط؟ غبـــــاءٌ أن أَســـــكرْ

بــــــالوهم، بفــــــردوسي الأخـــــضر

كِـــــذّاباً كـــــان.. ومــــــيض سراب

ولهــــــــــــاث يبـــــــــــابْ

كِــــذّاباً كـــــان نهـــــاري الفـــــذ

ركــــــــامَ ضـــــــــباب..

وفي مقدمة ديوانه «أزهار الضياع» يتجلّى أساه، فيعبر عن آلامه برومانسية حزينة، ويبدو متفرداً، محطماً، يلتمس العزاء بالوحدة والضياع.. يقول:

«الأحزان الكبيرة لا يحملها إلاَّ جناحا شاعر. القمم لا يبلغها إلاَّ شاعر صادق، وهناك يتحطم وحيداً نائياً لا يُرى، لأن العيون كل العيون تكون قد غرقت في الوادي، جرفها طوفان هائل من خناجر وغبار، وعلى القمة يلمّ الشاعر بقايا ريشه، ويبحث عن ملجأ... وما خلت الأرض من ملجأ.. البراءة، الطفولة، الحب، صوت فيروز، نسمة باردة على نبع ماء..

فاحمل شبابتك أيها الشاعر وازرع على طريق الدم والدمع هذه الأزهار: أزهار الضياع»..

وبعد نكسة حزيران في عام ١٩٦٧م يكتب:

«شيء ما ملحّ، جارح، غامض، كان يلسع خيال الشاعر لحظة ثم يغيب، ينطفئ لكنه ما يلبث أن يعود: إنه حزيران ١٩٦٧م، الكارثة تغلّ روحه، تسد عليه المنافذ، تذبح في عينيه النور، طوال عام كامل لم يستطع أن يكتب بيتاً، كلمة، طوال عام كامل كان يتنفس الذل ويغرق بالعار..».

وتخمد سورة اندفاعه، ويفيء نتاجه إلى همس رقيق بعد جلجلة، ويحلم بالهرب شأن الرومانسيين إلى عوالم بعيدة مسحورة يكون فيها الرجاء:

احلـــــــــــم بالـــــــــــسفرْ..
خلـــــــــــف الغيـــــــــــوم..
خلـــــــــــف رذاذ المـــــــــــوج
وراء هـــذا الـــصخر والهجـــير والجفـــافْ
إلى بـــلاد يغـــزل النـــاس بهـــا المطـــر
معاطفـــاً لمـــن يحبـــون، يغنـــون إلى الـــسحَرْ

وتمنحه آلامه عمقاً إنسانياً، يذكرنا بصديقه بدر شاكر السياب الذي استنطق الألم، وأجاد استغلاله، وتكثر قصائد الرثاء في دواوينه.

إن الشاعر يمر بمرحلة مخاض، ولا بدّ أن يكون التحول، ومنذ عام ١٩٦٧م تحول سليمان العيسى نفسياً وفنياً، أدرك أن الجماهير يجب أن تبنى

من الداخل، وأن الشعر القومي الصاخب الذي كان يوجه إليها، أشبه بتيار الكهرباء يُنفر السرب إلى حين ثم لا يلبث أن يحط في الأرض، ويلتصق بها.

حين نبني الإنسان من داخله، نغرس فيه قيم الأجداد، نستلهم تاريخهم العظيم، ونربي الأجيال الجديدة على الشيم الأصيلة، ولا يكون ذلك بالمباشرة والخطابية، بل بإشراكهم في التفكير والتدبير في صنع إنسانيتهم. آنذاك نأمن على الإنسان العربي من التردّي والتخاذل والاستكانة والخيانة والمتاجرة والتزوير، ولا سبيل إلى بناء جيل الغد إلاَّ بالتربية، منذ تلك اللحظة قلَّ نتاج سليمان العيسى الشعري للكبار، واستعاض عنه بكتابة أناشيده ومسرحياته الشعرية للصغار ثم راح يبحث عن غده في عيون الأطفال.

أفتش عن غدي في أعين الأطفال.. عن قدري
عن اللوح الجديد يضم قافلتي إلى البشر
رحلت بأعين الأطفالْ
إلى حلمي العظيم، بأعين الأطفالْ
وموجُ الأطلسي عباءتي السمراءُ واليمنُ..

٤ ـ المرحلة الرابعة ـ النضج والكمال:

يدلف الشاعر سليمان العيسى نحو الخمسين، يجرر وراءه تجربة شعرية ما توافرت لشاعر من قبل، مجبولة بدم الكفاح والإصرار، مرشوشة بعطر الجراح، تجربة صقلت فنه، ومنحها الأسى عمقاً إنسانياً عظيماً. فبدت

قصائده أشبه بسمفونيات رائعة، توافر لها إيقاع متنوع جديد، وطاقات تعبيرية مبتكرة أصبح يكتب أغانيه بريشة البرق كما سمى ديوانه الذي أصدره في عام ١٩٧٣م، وعلى قلة ما أنتج من شعر للكبار بعد عام ١٩٧٠م فإن معظمه يعدّ من الروائع إذا قيس بمقياس فني، منها «بطاقة حب إلى مهرجان برلين العاشر»، وقصائده: «يقاتل النسر» و«الخالدون» و«دمك الطريق» و«أضمُّ ثراك يا خضراء» وقصيدته في اليمن التي جعل فيها وضاح اليمن مرآة لليمن بعد الثورة.

كما يخاطب شبح الوحدة العربية الموعودة في «قصيدة العمر»:

أطــلّي عـــلى ليــل اختنــاقي تيبَّــسَتْ

لهـــاتي وملتنـــي أناشـــيدُ مـــأتمي

أطــلي علينـــا وحـــدةً، طيــفَ وحـــدة

بريقًــا، سرابًــا، كـيفما شئت فاقـدمي

وهبتُكِ عمـري، مـا وهبـتُ سـوى الظـما

إليك، أنا الحـادي القتيـل، أنـا الظمـي

أطـــلّي عـــلى الأطفـــال لا يتـــشردوا

ومـن أجلهـم يـا ليلنـا الخالـد ابْـسمِ

وفي قصيدته «الخالدون» تبلغ طاقات التعبير لديه ذروتها:

نـــاداهمُ الـــبرقُ فاجتـــازوه وانهمـــروا

عنـــد الـــشهيد تلاقـــى الله والبـــشرُ

نـــاداهمُ المـــوت فاختـــاروه أغنيـــةً

خــضراءَ مــا مــسّها عــودٌ ولا وتَــر

تــشرين يــا موعــد الفرســان يــا قَــدَراً

يجثــو عــلى قــدمَيْ مــيلادِه القــدرُ

صــار الــصغير يمــدُّ اليــوم قامتــه

أبــوه بالغيمــة الحمــراء يعتمــرُ

تــشرين أمطــارُك الخــضر التــي كتبــت

أعمارنــا.. لم يكــن بــالأمسِ لي عُمــرُ

غير أن ذاتية الشاعر وحرصه على أن يعبر إلى الموضوع القومي من خلال ذاته وغنائيته المفرطة، حالت دون تجديد طرائقه في العرض، فظلّ شعره القومي استعادةً لذاته، وتكراراً لانفعالاته.

ويذهب بعض النقاد إلى أن سليمان العيسى شاعر اتباعي جديد، في موقفه العام الفكري والفني، ونموذجه الأمثل هو الشعر العربي المبين الذي يتربع المتنبي على عرشه، يلحظ بعضهم كلاسيكيته في قوة مطالعه وجلجلة ألفاظه وجلالة الإيحاء وشدة وقع قوافيه، وخياله الذي يظلّ في حدود التشبيه والاستعارة والتشخيص والكناية مما عرفه الأقدمون، كما يقوم شعره على تلقائية، وطبع منطلق واندفاع عفوي، يضاف إلى ذلك حسن اختياره لألفاظه وتوظيفها، فهي موحية ملهمة فسيحة المرمى، مشحونة بالتأثير لها وقع ورنين.

على أن ما يبعد الشاعر سليمان العيسى عن الاتباعية الجديدة ـ في رأيي ـ نزعته الذاتية في شعره، فهو شاعر ذاتي تظهر فرديته في كل ما يكتب، فشعره القومي حلم فردي على حد تعبيره، والهم القومي هو همه الشخصي والنضال ليس معركة قومية بمقدار ماهو كفاح شخصي يقوم به الشاعر بالكلمات:

أقاتــــــل كـــــــي أردَّ إلى　　　خـــدود رمالنـــا الـــسُّمرة
أردُّ لجبهـــــــة التـــاريخ　　　كـــلَّ تـــألقِ الغـــرّة
أردُّ كرامـــــة الإنـــسان　　　معنــــى أرضــــنا الحــرّة

ومن هنا شاع ضمير المتكلم في قصائده مؤكداً نزعته الرومانسية التي يغذوها القلق والحرمان والمرارة.

أنــا النــداءُ أنــا الــبرقُ الــذي حَبلـت
بـه العـصور عـصور الـصمت والقلـقِ

* * *

أفـــتش عـــن طفلــــة في الظـــلام
وأكتـــب عـــن جوعهـــا الكـــافرِ

* * *

أنـــا آتٍ مـــن المـــرارة يـــا نخـــلُ
مـــن الغـــصة التـــي في صـــميمي
حـــاملاً جـــرح أمتـــي في ضـــلوعي
زارعـــاً كـــل خطـــوة بهمـــومي

سليمان العيسى في الواقع شاعر رومانسي متمرد على واقعه يفرّ من عالمه إلى حلم كبير يرى فيه سعادته، حلم توحيد الوطن العربي وبنائه، وهو عنده أشبه بمدينة فاضلة، يسعى إلى تحقيقها. وألفاظ الشاعر سليمان وصوره أقرب إلى ألفاظ الشعراء الإبداعيين بزخمها بالشحنات العاطفية، والمبالغات التي تنأى أحياناً عن الواقع. إنه يصور نزوحه أو نزوح الفلسطيني المشرد بأسلوب إبداعي يعكس أثر الواقعة في نفسه:

مـا زلـتُ أذكـرُ كيـف روَّعَنـا	**يومًـا دويُّ النـارِ في الغـسقِ**
وكـألف صـخر دُحرجـت بيـد	**مجنونـةٍ مـن جانـب الأُفُـقِ**
عَـزَفَ الرصـاص نـشيد مجـزرة	**مـن حولنـا وحـشية النَّـسقِ**
ورأيتنـي مـن صـدر والـدتي	**نَفَـساً تـردّد نـصفَ مختنـق**
وأبي كمـلّاح سـفينتُهُ	**في لمحـة أوفـت عـلى الغـرقِ**
الـدار تلفـظ أهلهـا سـحراً	**مُهجـاً مروّعـة عـلى الطـرقِ**

فالألفاظ روّع، دويّ، ألف صخر، عزف الرصاص، بيد مجنونة، وحشية النسق.. تحمل شحنات عاطفية، وهي بحدّ ذاتها التي تنقل الحدث الواقعي إلى مستوى الفن المبدع، والصور مبتكرة جديدة، واللغة متينة تنصاع للشاعر بطواعية، وهي تهوّل الحدث، وترسم وقعه في نفس الشاعر، أي تنقل ذاتية الشاعر الداخلية لا الواقعة الخارجية.

إن سليمان العيسى شاعر رومانسي مجدد يعتمد في تجديده على قدراته اللغوية الخلاقة، وترفد هذا التجديد طاقات تعبيرية تُصفي أساليب الأقدمين، وتحييها دون أن تتنكر للقديم.

الشاعر سليمان العيسى في لمحات

تعدّ الدكتورة **ملكة أبيض** قرينة الشاعر سليمان العيسى من أبرز رموز الثقافة والتربية في سورية، والعالم العربي.. فقد أصدرت عدداً من الكتب المتميزة آخرها كتاب بعنوان **(سليمان العيسى في لمحات)** ويمكن أن نستعير عنوان كتابها **«رحلة كفاح»** للتعبير عن نبل العلاقة المشتركة التي ربطت بين الشاعر وزوجته، فهي مثال للزواج المتكافئ والمتناغم عبر ما ينوف على نصف قرن من الزمن، ولم يكن هدف هذا الزواج إنجاب الأولاد وتربيتهم فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الإبداع الثقافي والأدبي والفني، حتى ليصح القول المشهور: وراء كل مبدع عظيم امرأة عظيمة.. وإن من يتابع مؤلفات الشاعر وخواطره المتفرقة في مشروعه الجديد، يدرك دور زوجته ومؤازرتها الثمينة لزوجها، فقد أعادا معاً تبويب نتاجه الأدبي بعد أن تمَّ جمعه.

وقد يتكوّن لدى القارئ وهو يتابع جهد هذين القرينين الثقافي والإبداعي أن علاقتهما الزوجية الحميمة والراقية هي نموذج مثالي يغني عن مطالعة الأطروحات النظرية، وقد ساعدت ميولهما المشتركة ورابطة الحب التي لفّت حياتهما بالوفاء والحنان والتآزر في تقديم صورة للقراء عن شروط الزواج الناجح حتى لو لم تتوافر له شروط مادية داعمة كالمال، فالسعادة التي تجمع بين قلبيهما تتحقق بالعمل المشترك، ونبل السلوك المتبادل، مثلما تنبع من الكدح المشترك لتحقيق الهدف.

بين الشاعر وزوجته ذاكرة مشتركة، تؤلف سماتها حدود الزمان والمكان، فليس غريباً أن تنوب عنه في الكتابة عن حياته وأدبه، فتصدر هذه اللمحات وهو المعترف بفضلها:

يدان منذ التقيا

بالحب ترصدان

منذ بدأناها معاً

رحلتنا العطشى بأرض الشمس والهجير

منذ تخيّرنا كوى الضوء

وآثرنا احتراق الخطو

في المسير

*

بهذه القصيدة يقدم الشاعر سليمان العيسى الكتاب، فرحلتهما معاً على دروب الحياة قصيدة تعب تندّيها الزوجة بالحنان وتقتلع الشوك في طريق الشاعر الحافلة بمنغصات حلمه الكبير وطموحه إلى تحرير وطنه العربي، وبعثه من مرقده الطويل..

تحت عنوان (سليمان العيسى بين الأدب والحياة) تشير الباحثة «ملكة» إلى ارتباط حياة الشاعر الخاصة بحياة أمته، بل ربما طغت اهتماماته العامة على حياته الخاصة، ففرحه وحزنه وأمله ويأسه مقترنان بآمال الشعب وطموحاته، دون أن تعصف هذه الأحداث الكبرى في حياته العامة بتوازنه

النفسي، والواقع أن حياة الشاعر سلمت من التغرب النفسي وداء العصر الذي دفع كثيراً من معاصريه إلى التفرد والانطواء ورفض المجتمع، فقد بدا في كل ما سجله من لمحات إنسانية متكيفاً مع واقعه، لا ينفرد عن القطيع ولا تدفعه ثورته على الواقع إلى الغموض والرفض، كان مؤمناً برهانه على أن طريق النهوض بالأمة وتحريرها لا بدّ أن يتحقق، ولم ترهبه صورة الواقع المتردّي، لذلك ظلّ إنساناً أقرب إلى التفاؤل رغم ما يصيبه من إحباط أحياناً، أمام النكسات، وقد وجد في الاهتمام بحياة أطفال الأمة وتربيتهم أمله المرتقب:

أغني لهم، ولهم أكتب

لذا قلمي مورق

لذا دفتري معشب

*

وتعرض الباحثة مراحل حياة الشاعر طفلاً وشاباً مشرداً، ومعاناته، ودوره الكبير في التوعية القومية بشعره ونشاطه القومي، وتعرض صلة أهلها بالشاعر حين كان مدرساً في مدينة «حلب» وهي صلة أسفرت عن لقائهما، فكان الحب الذي خلده الشاعر بعدد من القصائد، فالزواج الذي اختار فيه شريكة حياته عن اقتناع، لم يكن قيداً له.. يقول:

كيـــف لا يستـــسلم النهـــر لأشـــواق الـــسفر

قيــــــده الحلـــــو تــــسابيح الــــــوتر

باقـــــة ســـــمراء مـــــن ضـــــوء القمـــــر

ضـــــحكة تـــــزرع في الليـــــل الـــــسحر

*

في هذه المرحلة صدرت دواوينه القومية.. ومسرحيتان من التراث.. ودخل الشاعر السجن أكثر من مرة، لكن معاناته لم تهز توازنه النفسي، فظلّ إنساناً وصديقاً للكبار والصغار.

وفي عام النكسة ١٩٦٧م انتقل الشاعر إلى دمشق موجهاً أول للغة العربية، وبدأ تجربته الفريدة في الكتابة للأطفال، يكتبها بروح طفل ينهل من ذكريات طفولته:

يـــا كـــل ربـــات شـــعري   طفـــلاً يغنـــي دعينـــي

كـــانوا شـــعاع رجـــاء   في ليـــل لـــيلي الحـــزين

وقد ظلَّ الحلم العربي الذي فتح الشاعر عينيه عليه منذ سلخ اللواء الينبوع الأول لكل ما يكتب، لكنه لم يتغرب نفسياً حين تغرب جسديًا، ولم يحمّل أمته مسؤولية النكسات أو يتنكر لها، بل ظلَّ رفيقاً بأدوائها، داعياً دواعي واقعها المؤلم، يأخذ بيدها كلما لاحت بارقة ثورة، أو أمل وحدة...

تقول الباحثة: [إني لسعيدة كما هو سعيد أن أكون قد شاطرته أحلامه منذ لقائنا الأول.. كانت طريقاً واحدة، وحياة واحدة، وأحلاماً واحدة عشناها معاً].

ويقول الشاعر في كفاحهما المشترك: [قررا معاً أن يكون الخيط العميق المتين الذي يربط أعماق حياتهما، ويهب وجودهما معناه هو إرادة التطلع، وإضاءة حياتهما قدر ما يستطيعان].

لم يكن ما قدمته الباحثة عن زوجها الشاعر سيرة حياة، وهو ليس سبراً لخفايا شخصيته التي تبدو خالية من أي تعقيد، لكنه كلام على بساطته وإجماله يختزل سبعة عقود من الجهد المشترك، ولا يحتاج إثباته لأي دليل، لأن أعمالهما المشتركة في الثقافة والأدب تغني عن أي دليل..

وتحت عنوان: (مع ديوان صلاة لأرض الثورة)، تتذكر الباحثة أول لقاء جمع بين الشاعر والكاتب «مالك حداد» الذي ذاق محنة الغربة والتشرد مثل الشاعر، ومحنة سلخته عن لغته العربية، فكان يجهلها، ولم يمنعه ذلك من توجيه قلمه بالفرنسية لخدمة استقلال وطنه من المستعمر الفرنسي، فكان ديوان الشاعر «سليمان» (صلاة لأرض الثورة) تعبيراً عن تواصله مع أدباء الجزائر في المنفى، وقراءة أعمالهم.

وفي فصل ثالث بعنوان (مع ديوان فلسطين) تعرض الباحثة شعر «سليمان» عن فلسطين، فما كتبه للكبار يتجاوز خمسين نصاً، وما كتبه للأطفال بعد النكسة يضم سبع أناشيد وسبع مسرحيات، وشعره للكبار بدأ منذ عام ١٩٤٨م تاريخ النكبة، واستمر بعد الانتفاضة، وفيه يصور معاناة الشعب الفلسطيني، وقد يربط بين سلخ اللواء واحتلال فلسطين.

أنا مثلك استلبوا ملاعب — فجري الأولى استلابا
أنا مثلك اغتصبوا تراب — طفولتي الحلو اغتصابا

ويرافق الشاعر أبناء فلسطين المهجرين في مخيماتهم، وماعانوه من عذاب، ويذكر صوراً من مأساة الهجرة، وما لحق بأبناء فلسطين من ذل وهوان:

حياة تجسد فيها الهوان

ضياع بأعماقنا ينعق

غصون.. مقطعة في الدروب

فكيف بلا جذرها تورق

*

ويسجل الشاعر مأساة نكسة عام ١٩٦٧م، في قصيدة طويلة، ثم يتحوّل مفعماً بالأمل بعد نشأة المقاومة، فيكتب عن الفداء والشهداء، وتروعه مذابح «صبرا وشاتيلا»، فيندد بمدبريها ويدعو إلى متابعة النضال:

إنني أمضغ أكفاني صباحاً ومساء

لن أهادن

إنني أجتث من جلدة رأسي

من وريدي، من عيوني

لن أهادن..

*

إنها فورة الدم، نشيد الدم مطلولاً..

ويرافق ثورة أطفال الحجارة، فيكتب لهم قصائد تنضح بالتشجيع والعرفان، وهو الذي آمن بهم وراهن عليهم:

أطفالنــــــا المتــــــشبثون بأرضـــــــهم

ســــــيجازفون ببؤســـــهم وخيــــامهم

وبكـــسرة الخبـــز التـــي يبـــست عـــلى فمهـــم

ويفجـــــــــرون الأرض تحتـــــــــك

أيهـــــا «الغــــــبش» الــــــدخيل

ولـــــيس في أيـــــديهم غـــــير الحجـــارة

*

ويتضاعف إيمانه بهؤلاء الصغار القادمين من رحم الغيب، فيُصدر عدداً من أعماله الشعرية والمسرحية للأطفال، تؤرخ لفلسطين ذلك الجرح الدامي والناغل في الجسد العربي..

وفي الفصل الرابع، تقدم الباحثة دراسة تربوية لنتاج الشاعر «سليمان» الشعري، فتشير إلى أنه لم ينتظر حتى تتكامل لديه نظرية عامة في التربية، بل آثر أن يخوض تجربة شعر الأطفال معتمداً على تجربته وقد تعمقت تدريجياً عبر أعماله للصغار، وهو ينهل من ذكريات طفولته، ومن ممارساته التربوية الطويلة، ونضاله القومي، وكأن شعر الأطفال صدى لحلمه وإيمانه بالأجيال القادمة، ويرتكز الفكر الوطني لدى الشاعر على الدعوة لتوحيد الأمة، وهو حلم عاش من أجله، واستلهمه من أفكار القوميين، مثل: زكي الأرسوزي وساطع الحصري، وتستهدف دعوته القومية إلى لمّ شتات الأمة

والربط بين ماضيها وحاضرها، واعتماد العلم والتقنية سبيلاً لتطوير الإنسان العربي، واستعادة ما غبر من تاريخ أمته الضاربة في الجذور إلى أعماق التاريخ:

وأبعـد نحـن مـن عـبس	ومـن مـضر نعـم أبعـد
حمـورابي وهـاني بعـل	بعـض عطائنـا الأخلـد
ومـن زيتوننـا عيـسى	ومـن صـحرائنا أحمـد

*

ويؤمن الشاعر بتجديد التراث واختيار الملائم لمواكبة العصر شأن كل النهضات القومية في العالم، ولا يرى حدوداً عنصرية بين القومية العربية والإنسانية، فقد تجلت إنسانية الحضارة العربية في احتضان الشعوب الأخرى، وكانت ثمرة تفاعل إنساني كبير، ويتوقف الوعي الإنساني على بناء الإنسان العربي المنفتح على العالم، والمبدع المناضل الثائر على كل جور إنساني أو تعصب مقيت ليس إلاَّ تعبيراً عن أزمة نفسية بسبب القهر والممارسات اللاواعية، فليكن العربي سندباد هذا العصر كما يقول: [يقاتل التخلف والظلم، ويدافع عن وجوده المهدد، ويلتقي الإنسانية فتحيا فيه ويحيا فيها. ويخرج من دائرة التقوقع، ويستغل موهبته ليعمل ويبدع بروح المسؤولية والعطاء ليكون لحياته معنى يتحرر فيها من جموده واستغلاله واستعباده، فينال حريته ليس بمعناها الفردي فحسب، بل في إطار مجتمعه والعالم، فالعمل والكفاح شرطان من شروط الحرية، ولا تتحقق الحرية إلاَّ بالسير في خطا واعية يقودها الحوار ويوجهها، وتنمية عقل العربي وتفجير طاقاته وتوجيه مشاعره ليتبصّر بوعي خطاه..].

على هذا الأساس اختار الشاعر مواقف مضيئة من التراث وأعلامه، وجسّدها في أعماله المسرحية وأناشيده الشعرية.. ولا تتحقق النهضة إلاَّ باحتضان العلم ومسايرة تقدمه، والارتقاء بوسيلة التعبير المشتركة وهي اللغة العربية الفصيحة والحفاظ على بنيتها ورسمها الكتابي، وتطويعها للتعبير عن أدق خلجات الفكر والشعور.

وحاول الشاعر تطبيق هذه المبادئ في عمله مشرفاً على تأليف الكتب المدرسية، فاختار من النصوص ما يلائم تطلعات العصر، واستبعد من التراث ما يتعارض وهذه التطلعات، وحاول أن يمنح تعليم اللغة والأدب الحيوية والتشويق فلا يشعر المتعلم بعبء قواعد اللغة وتفصيلاتها، وتمكين المتعلم من محبة درس اللغة الذي يتهم بالجفاف باستخدام وسائل معززة كالصور والأغاني وتلحين الشعر والابتعاد عن المحاسبة الصارمة لدارسي اللغة...

ولم تتناول الباحثة خصائص الشعر لدى الشاعر، بل سلطت الضوء على تجربته الشعرية للأطفال والكتابة لهم أشد عسراً، غير أنه تجاوزها باستخدام تقنيات وأساليب فنية رصدها دارسوه، منها التعلم من خلال اللعب، واختيار الأوزان الشعرية الخفيفة، وتحقيق المعادلة الصعبة بين متطلبات الفن والشروط التربوية للصغار، واختيار القيم التربوية التي تعزز السلوك القويم للناشئة والمثل العليا...

*

في الفصول الخمسة عشر اللاحقة من الكتاب، تعرض الباحثة محاولة الشاعر إعادة النظر في تبويب نتاجه الشعري بحسب صلته بالأقطار

العربية، في المشرق والمغرب: فهناك مقدمات لدواوين: لبنان، والعراق، والجزيرة العربية، ومصر العربية، بالإضافة إلى دواوين: اللواء، وفلسطين، والجزائر.. أو بالموضوعات الأخرى مثل ديوان «المرأة في شعري».. وهي التي جهدت أيضاً في ترجمة بعضها إلى اللغات الأخرى، وتتابع في الوقت نفسه ما أضافه الشاعر بعد صدور أعماله الشعرية، وبخاصة ما أصدره من آثار بعد إقامته في اليمن أبرزها الثمالات، والشاعر سليمان العيسى من أبرز روّاد الدعوة القومية ا لعربية، وأكثرهم تأثيراً في مرحلة المخاض، وسبقه رواد آخرون وطنيون وشعراء لكنهم لم ينذروا أنفسهم للحلم القومي في شعرهم، فظلَّ سعيهم هامشياً، وعاصره مبدعون كان همهم تحميل الأمة مسؤولية الهزائم، وهم يسعون إلى حفر قبرها لئلا تنتفض من أكفانها.. وإنني أقدر للشاعر «سليمان العيسى» ثباته على مبادئه، ولرفيقة دربه المكافحة معه بإيمان الزوجة الوفية، والمشاركة في بعث هذا الحلم القومي على قدر ما منحتهما الحياة من طاقة وسعي..

* * *

سليمان العيسى في لمحات.. تأليف: د.ملكة أبيض.. منشورات وزارة الثقافة السورية، يقع الكتاب في ٣١٢ صفحة من القطع الكبير.. صدر عام٢٠٠٩م.

كي يبقى الشاعر سليمان العيسى مع الكلمة

في سير أدبائنا وشعرائنا المسنين نوبات من الإحباط واليأس دفعتهم إلى أن يكفروا بالكلمة، أو يتحولوا عن قيم تبنّوها في ريعان شبابهم، فقد مزّق أبو حيان التوحيدي كتبه، وألقاها في النار خلال نوبة غضب من جحود مجتمعه، ولبس أبو العتاهية المسوح، وتزهّد أبو نواس بعد أن عَبَّ من متع الحياة حتى الثمالة، وتاب عمر بن أبي ربيعة بعد مطاردة العذارى توبة نصوحًا، فما الذي يدفع شاعراً مثل **«سليمان العيسى»** أن يظلّ ثابتاً على حلمه الشعري، ترافقه الكلمة، وهو على مشارف التسعين وحتى الرمق الأخير، ولماذا لم يتزعزع إيمانه بحلمه القومي الذي رافقه طفلاً وبالغاً وكهلاً على الرغم من العواصف والمنغصات، ورغم المفارقة بين الحلم والواقع**..**؟

سؤال عميق يطرح نفسه على الدارس المنصف الذي لا ينساق وراء لعبة الثبات والتحوّل، فيقوده الوهم إلى أن يرى في الثبات على الحلم الشعري لونًا من المكابرة والتصلب، أو يرى فيه جموداً وسكوناً واسترجاعاً لصورة الشاعر الطفل وهو يترجح بين رغبته في أن يُخضع الواقع لأحلامه ورغبة من حوله في أن يردّوه إلى الواقع في عملية يطلق عليها علماء النفس **(**المطابقة والتمثيل**)**، والدارس المنصف لا ينساق وراء التعميمات، فيرى في تمرّد الأديب على قيم مجتمعه وثوابتها لونًا من الثورة والحداثة والمعاصرة، أو يرى في تراجعه عنها نكسة وارتداداً**...**

فالمسألة ترتد في آخر المطاف إلى جوهر حلم الأديب ومدى مطابقته لتطلعات من يتوجّه إليهم، وقدرته على أن يعبّر بكفاية عن آمالهم وآلامهم وبقدر من التواصل لا تحجب فيه مقتضيات الفن والإبداع رسالته الشعرية التبليغية.

في شعر «سليمان العيسى» قدر كبير من الثبات على القيم التي حملها حلمه الشعري، لا تفترق فيه صورة الشاعر في بيت أبيه عن صورته في شيخوخته، حيث يطيب له أن يلقّب نفسه بالحالم أو بالطفل الحالم.. يقول في حوار له:

[لستُ شاعراً، أرض الآباء والأجداد أم الشعر، وخالقة الشعراء تريدني شيئاً آخر، تريدني حلمًا أصلب من الحقيقة وأكبر من الواقع وأبعد من حدود الجثة التي تتحرك بين المحيط والخليج، تريدني عربيًا يبحث عن هوية، عن جوهر وجوده، عن جذوره العميقة في أرضه].

وهكذا يستمد حلم الشاعر القومي مشروعية ثباته من تطابق حلمه مع وجدان الأمة، فليس حلم الشاعر «سليمان العيسى» القومي رؤية فردية عابرة، إنه حلم أبناء الأمة العربية كلها. الذين يحترقون منذ سبعة عقود مع الشاعر بلهب هذا الحلم. لكنهم يبعثون من ناره كطائر العنقاء من الرماد، وهم أكثر تشبثاً على طريق الكفاح.. يقول:

أحمل جراحي كلها وأنهض

شبحًا من شاعر كان يغني

ذات يوم لهبًا كان يغني

ثم مات

ألف مرة

في طريق الجلجلة

ألف مرة

وأبت إلاَّ رواء الاخضرار، السنبلة

وأبى هذا الجنون... الشعر

حتى هذه اللحظة إلاَّ أن يغنّي

* * *

من الثوابت الراسخة لدى «**سليمان العيسى**» إيمانه العميق ببقاء الشعر واستمراره في حياة البشر على الرغم من طغيان هدير الآلات في عصرنا على صوته، يقول:

[سأزحف على عكازي.. لأقول شيئاً، سيظل الشعر هو الذي يتكلم، ويرفع صوته ويغني، ويكون لسان هذه الأمة على مدار الزمن وعبر التاريخ:

مــا هــدرت أعــماق صــحرائنا   إلاَّ انجلت عــن شــاعر أو نبــي

ستظل القصيدة على شفاهنا بين قصص الطائرات وتدمير المنازل على رؤوس أهلها وأطفالها الآمنين. أجل، سنظل نقول الشعر، ندافع به عن وجودنا المهدّد وإنسانيتنا التي تذبح كل يوم.. سأحاول أن أغني، والشعر غناء، ولو لم يبق في حنجرتي إلاَّ الصدى والحطام].

ويحث الأطفال على كتابة الشعر، إذ يرى فيها يكتبون امتدادًا له ولهم بعد الرحيل، وعودًا إلى طفولته يوم بدأ ينظم الشعر، ويخاطب الطفل الشاعر قائلاً:

عُـد بي إلى فجـر الـصبا ... إن اتقـادك كاتقـادي
قـد كنـت مثلـك والنجـوم ... الخُـضر أحلامـي وزادي
مـيلادك الحلـو النـضير ... هـو امتـدادك وامتـدادي
أنـتم ربيعـي حـين تنسَى ... قـصة الزهـر البـوادي
احمـل وجيلـك حلمنـا ... الظـامي، وكـن مطـر البـوادي

*

ورهان الشاعر على الأطفال ـ أطفال المستقبل ـ يستمد قوته وثباته من مطابقته لحلم كل أب عربي يرى في أولاده امتداداً له، فهو حلم مشروع لاصق بحياة كل طفل نراه بلعب الأطفال، وهم يمثلون دور الأب والأم والأولاد، وكأنهم يهيئون أنفسهم لمستقبل حياتهم الاجتماعية، متخذين من حياة أسرهم إعادة تمثيل هذا الحلم، ويقرنون تمثيلهم بالغناء والشعر حين يهدهدون اللعبة كي تنام.

حلم الشاعر لا ينبع من فراغ، بل ينطلق من الواقع ويرتد إليه، وقبل «سليمان العيسى» لم يكن الشعر العربي يفطن لعالم الطفل إلاَّ ما ندر، ولا يفصح عنه إلاَّ حين يتلوع الأب الشاعر بفقد ولده، أو يفرح حين يستقبله مولودًا، وهكذا يوسّع «سليمان» دائرة رؤيته الشعرية، ويعمق تقنيات خطابه للطفل وصفًا وحوارًا وقصة وتمثيلاً، ويضيف إلى ما قدمه في دواوينه

السابقة موضوعات لم يعرها اهتمامًا من قبل، ومنها حثّ الأطفال على التعلّم والتحصيل، ليسعدوا بتحقيق حلمهم... يقول:

فرح النجاح هو الفرح

من جدّ في عمل نجح

مفتوحة كل الدروب

فازرع خطاك على الطريق

أنا في الشروق وفي الغروب

متحفز أبدًا طليق

الفجر يضحك للطيور

وعلى غناها يطلع

أنا مثلها عند البكور

مرح وعزم يسطع

ارسم طريقك في الصغر

إن كان حلمك نائيًا

يامن يعلمني الظفر

ستظل نجمي الهاديا

*

ويفتح أجفان الصغار على مخترعات العصر، ويحثّهم على الإفادة منها في توسيع آفاقهم، وقد يردّهم إلى الطبيعة وما فيها من حرية وطلاقة وعطاء من خلال أغنية عنوانها «الراعي يغنّي»، وثانية بعنوان «نسمة الصباح» يؤنس فيهما الجماد. فيتكلم ويفصح... تقول نسمة الصباح للطفل:

يــا رفيقــي.. منــذ كانــت خـــضرة المرعـــى وكـــان
كلـــما غنيـــت لانـــت قـــسوة العـــيش وهـــان
يـــا رفيقـــي أنـــا والراعـــي حكايـــــات الزمـــــان
كلـــــما لاح صـــــباح لاح فيـــــه شـــــاعران

ويقدم الشاعر للأطفال سبع قصص طفولية من عالم الحيوان تغرس فيهم مزيدًا من القيم التربوية الهادفة كالطاعة والانضباط والتعاون والصداقة والاستقامة.. وقد بدا الشاعر في تقديم هذه المقطوعات أقرب إلى عالم الطفل بحكم تطور تجربته، فلغتها واضحة وأوزانها قصيرة، وإيقاعها غني متنوع، يقرّب فيها الفكرة المجردة باستخدام التمثيل، وحثّهم على تبني قيمه بأمثلة من الواقع والحياة...

في القسم الثاني من كتابه **(كي أبقى مع الكلمة)** مجموعة من المقالات والخواطر أملتها على الشاعر مشاركته الأدبية والثقافية والاجتماعية في مناسبات مختلفة، فإن «سليمان العيسى» يردّها لحلمه القومي الثابت وكأنها فرصة ثمينة ليوجه المشاركين، ويدعوهم إلى تبنّي هذا. ففي أربعينية الشاعر الراحل «محمود درويش» لا يقف راثياً الشاعر والإنسان، بل يردّ سامعيه إلى

قصيدة نظمها بعنوان «الفلسطيني الطائر» الذي ينطبق على كل فلسطيني مثلما ينطبق على حياة «درويش» الحافلة بالتشرد والآلام:

في الغرب يزرعونك

في الشرق يزرعونك

في العتمات السود... في الضباب

في رجفة الحراب

تودّ لو تمحوك من ذاكرة التراب

ومن رؤاهم

حينما تنطبق الأهداب

عليك كابوساً، وحلماً أدمن العذاب

لكنك، الباقي على الزمن

حكاية الوطن

يا رائع الشقاء والمحن

*

والقصيدة في جوهرها، تمثل موقف الشاعر من التراث، وميله إلى تخليصه من أغراض شعرية استهلكت كالرثاء والمديح، دون أن يسعى إلى حذفها من دائرة الإرث الشعري، فالغرضان باقيان ما دام قلب الشاعر العربي ينبض بالوفاء، ويستثيره الحزن أو الإعجاب، فتمسّك الشاعر «سليمان العيسى» بالتراث قيمة ثابتة لديه، على أن نجهد في تطوير أغراض

الشعر الموروث، ويعفي قيمه التي لم تعد تصلح لحياتنا كالفخر القبلي والصراعات العشائرية، فيقترب من الحداثة وروح العصر.

وفي تقديري أنه حين رثى زميله الراحل بهذه الطريقة لم يكن يرثيه فردًا، بل ظاهرة إنسانية واجتماعية تجعل منه رمزًا، وهو ما فعله في رثاء الشاعر «نزار قباني» ولم يكن أدنى إلى جمهوره فيما لو عمد إلى رثائه إنساناً بالطريقة التقليدية. وهو حين يقارن بين تشرده وتشرد «درويش»، إنما يمنح حياة الشاعر بعدًا اجتماعيًا ينطبق على حياة كل فلسطيني مشرد وكل عربي مهجّر.

وفي القسم الثاني من الكتاب نماذج من رؤية الشاعر للتراث وسعيه إلى تطويره وفق مقتضيات العصر ومستجدات الحياة وتغيّر رسالة الشاعر.

يؤمن «سليمان العيسى» أن تاريخ الشعر العربي يوحي بحركة التغيير مع تنامي وعي الشعراء وجماهيرهم، ففي قلب المثل العليا الثابتة تتجدد المفاهيم والرؤى، ويذهب «سليمان» إلى رؤية الشاعر نفسها تغتني على مرّ الزمن، وتتطوّر أساليب تعبيره، يردّ على سؤال عن مراحل شعره... فيقول:

الثلاثون، الثمانون، بدايات بواكر

كلها إن شئت أن تحيا بدايات بواكر

إنه نهر الحياة

إلق في التيار هذا الظمأ الحلو

أو المرّ وسافر

*

فالتحوّل لا تحده مرحلة، إنه يستمر مع مجرى النهر الذي يعمق مع كل اندفاعة مجراه، ويحافظ على تدفّقه. المهم ألاَّ يجنح الشاعر بتحوله عن حدود حلمه الذي يجب أن يظلّ مطابقًا لحلم الجماعة، والحلم يملك من القدرة ما يمكنه أن يوجّه الشاعر وينذره إذا انحرف أو خانه:

إنه يمنحني لمّا يزل أصفى شرابي

إنه مازال

إن تنبس بحرف شفتي يملي عليّا

إنه ينذرني إن خنته

لم أك شيّا

*

بهذه البوصلة يأمن الشاعر العثار والانحراف، مادام حلمه رقيبه، ومادام مطابقًا للحياة وتطلعاتها والطبيعة وثباتها:

ما الذي أبقت من الحلم، من الصوت السنون

أيها الأخوة ماذا من رمادي تجمعون؟

اذكروا أني عشقت الأرض، أحببت الحياة

وترشفت ثمالات الغروب

وأنا أبحث عن أولى زغاريد الصباح

اذكروا أني كالأطفال غنيتُ

وطاردتُ الفراشات طويلا

وتسلّقتُ الشجر

وقطفتُ التين والرمان

من بستان جدي والقمر

اذكروا أني وإياها نسجنا

مثلما شاء الهوى أيامنا

وزرعنا خلف أسوار الدجى أحلامنا

وجعلنا الحب قنديل خُطانا وسُرانا

*

ويبلغ التحول الشعري مداه لدى الشاعر حين نقارن بين شعره في الثلاثين والثمانين، فثمالاته في نظره هي قمة اكتمال الشعر لكنها ثمرة تحوّل متدرج على دروب الشعر لا يمكن أن يتحدد أو يحصر في مرحلة من المراحل، ويؤكد الشاعر هذه الحقيقة فيما كتبه في مهرجان الشاعرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، إذ يعلق على قول شوقي:

كان شعري الغناء في فرح الشرق	وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح	وأن نلتقي على أشجانه

وقوله:

وللحرية الحمراء باب	بكل يد مضرّجة يدق

فيقول «سليمان العيسى»: [إن صوت أحمد شوقي الذي أحسّه يرن في هذه القاعة قبل أكثر من سبعين عاماً ليقول لي: أنتم في بيتكم، بيت الكلمة العربية التي وضعها العرب].

ويعلّق على بيته في الحرية، فيكتب: [هل قيل بيت في الحرية، في آداب العالم، أروع من هذا البيت؟]، ولا يعنيه كثيراً كما يبدو أن يكون «شوقي» عبّر عن الوحدة التي تجمع أبناء الأمة (بالشرق) فالمصطلح لايهمّ، وليس لنا أن نتوقف عند الأمور الصغيرة، يكفي الشاعر أن يملك الوعي بوحدة تربط بين العرب، فالشرق هنا لا يدل إلاَّ على الشرق العربي المجزأ الذي يحاول أن ينهض من قيوده التي يتنزّى بحديدها المناضلون، وبحسب «شوقي» إنه امتلك درجة من الوعي القومي وتجاوز النظر إلى وطنه «مصر» نظرة إقليمية في مواجهة الاستعمار، إذ أدرك بُعْدَ الصراع الذي قاده الأحرار، وتماثل أشكاله في تلك المرحلة، ثم تأتي مرحلة لاحقة يتنامى فيها الوعي القومي لدى المصريين، فيتحرر بعضهم من فرعونيته.

فالتحول لا يأتي طفرة في المجتمعات ولدى الأفراد، إنه نسيج ممتد من التغيرات تمليها شروط الحياة وتنامي الوعي.

ومن منطلق وعي الشاعر «سليمان العيسى» لحلمه، وإيمانه بأن حركة التغيير الاجتماعي لا تفرض فرضاً، ولا يقسر المجتمع على وضع مبدئه في قالب، ولا ينتقص من قناعات جمهوره وأعرافه ما ضمن لحلمه الشعري الامتداد، ولرسالته الشعرية السيرورة، ولم يحمّل «سليمان» مجتمعه تبعات التخلف لإيمانه بقدرة الإنسان على تجاوز واقعه، وقد بدا شعره تطبيقاً للمثل القائل: (اطرق حديداً لو برد)...

وبهذا التحفيز خدم قضية شعبه على نقيض كثير من الشعراء الذين تقوقعوا على ذواتهم، واجترّوا بالشعر ندبهم وشكواهم فكانوا أبعد عن القراء، وعن مسايرة الواقع.

*

وفي القسم الثالث من الكتاب، يبدو الشاعر في كهولته توّاقاً إلى محاورة التراث والشعر الموروث من خلال تعليقات شعرية على أبيات سائرة، وهو نهج اختطه في قراءاته، فقد كان كثيراً ما يعلّق على فكرة مرّت أو بيت أثار إعجابه أو معارضته، فهو يدرك أن الشاعر وتطلعاته ثمرة مرحلة من الوعي التاريخي والشروط الإنسانية ليس لنا أن نحكم عليها بعقلية ابن القرن الحادي والعشرين، لكن أكثر ما كان تعليقه أن يتخذ أبناء أمته في القرن العشرين، من هذه الأبيات التراثية السائرة في الحكمة على أنها حقائق مطلقة لا تقبل التبدّل، وفي ذلك تمجيد للفكر ومصادرة لتطوره...

يحاور الشاعر المتنبي في قوله:

ماكل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فيقول للقارئ معارضاً للاستسلام لهذه القدرية:

اضرب خطاك بقلب الريح عاصفة

ودع على قدميك الدربَ يمتهنُ

من الذي جعل الآفاق موصدةً؟

تجري الرياح بما تختاره السفنُ

فالمتنبي في قوله صادق، لأنه يعتمد في حكمه على ما يلحظه في واقع الحياة، فكم من طموح أحبطه القدر، والشاعر «سليمان العيسى» يخشى أن يضعف الاستسلام لهذه الحقيقة إرادة الإنسان وسعيه لهدفه، وقدرته على تجاوز القدر والأحوال. ويعلّق أيضاً على قول المتنبي:

لـــك يـــا منـــازلُ فِيْ القلـــوبِ مَنـــازِلُ
أَقْفَــرْتِ أَنْــتِ وهُــنَّ مِنْــكِ أَوَاهِــلُ

فيكتب العيسى:

هي منا، ونحن منها

فما حالت ولا أقفر الهوى في ذراها

يَصل الحب بين حبة رمل

وسواها.. فما نحسّ سواها

*

فهو يخشى أن يتحوّل الإنسان عن حلمه أو يتخلّى عنه باجترار الأسى واسترجاع الذكريات بدل أن يوجّه سعيه مجددًا لتحقيق حلمه الذي لا تنفع الحسرات في تحقيقه. ويعلّق معجباً ببيت للشاعر ابن زيدون في «ولاّدة» يقول فيه:

سرّان في خـــاطر الظلـــماء يكتمنـــا
حتـــى يكـــاد لـــسان الـــصبح يخفينـــا

فيكتب:

وبقيـــــتما سرّيـــــن يخترقـــــان جــــدران الزمـــــان

يـــا شـــاعري لـــولاكما يبـــست عـــلى الـــوتر الأغـــاني

*

ولا يرضيه خوف الشاعر النابغة الذبياني من لوم «النعمان» وهو الذي خلّده عبر العصور، فلولاه ما عرف الناس «النعمان» بل أمسى نكرة، يقول النابغة:

أتـــاني أبيـــت اللعـــن أنـــك لمتنـــي

وتلـــك التـــي أهـــتم منهـــا وأنـــصب

فيخاطبه سليمان قائلاً:

شاعر أنت نفحة منك تطوي

في السنا أيَّ مالكٍ أو أميرِ

لا تخف لومَه

فلولاك أغفى

كسواه، وغاص في ديجورِ

*

ويعلق على قول الشاعر جرير:

أيـــام يـــدعونني الـــشيطان مـــن غـــزلي

وكـــن يهـــوينني إذ كنـــت شـــيطانا

فيرى «سليمان» أن من حقّ الشاعر في عهد شبابه أن يعبث، ويستجيب كما يتطلبه شبابه وصباه من الحب والغزل، لأنه يمارس حقّاً طبيعياً لا صلة له بالشيطنة، وليس له أن يُدان، فيخاطبه قائلاً:

وهجُ الشباب ولا ألومك دفقة تسع الوجودَ وسمّها الشيطانا
وبلوتُ مثلك جمرَها وحملتُه يوماً على قيثارتي نيرانا

*

هذه الإطلالة على التراث من الشاعر سليمان العيسى لا توحي بدعوته إلى نزعة اصطفائية واعية للتراث فحسب، بل تعلّم جمهوره كيف يقرؤون التراث بعين الفاحص الواعي، ولا يستسلمون لكل مافيه دون محاكمة، فليس التراث كتاباً منزّلاً، والشاعر إنسان ليس منزّهًا عن التعميم والخطأ...

وياليت الشاعر «سليمان العيسى» بدأ مبكراً في محاورته التراث لأفادنا من عمق رؤيته، ولَوَضَعَنا أمام الثابت والمتحوّل فيه، وليت النقاد اليوم يقوّمون ما تفرزه المطابع من نتاج تحت شعار الحداثة وما بعدها. فتحت هذا الشعار من الغثاثة والضياع ما تهون أمامه تجاوزات القدامى وتعميماتهم وتَكَسُّبَهُم بالشعر...

ويبدو أن الشاعر سليمان العيسى بعد أن سيطر الهم القومي على كتاباته للكبار في البداية، دفعته أحوال الحياة إلى أن يتحوّل إلى توسيع آفاقه الشعرية.. فنأى عن المباشرة دون أن يتخلّى عن ثوابت حلمه الشعري، وتحوّل إلى الإصغاء لعالمه الداخلي والخارجي الذي انصهر في ثوابته

الشعرية، فكانت «ثمالاته» تحوّلاً في الشكل والمضمون، وانفتاحاً على مشاعره الذاتية والالتفات إلى الأصداء العميقة التي قد تثيرها المواقف العابرة، والانفتاح على الهموم الإنسانية، وقيم الإنسان بلون من التحرر العقلي والمرونة، وحتى في مجال تطلعه إلى الحداثة.

لم يكن الشاعر سليمان العيسى في عالمه الشعري متصلبًا أو رافضًا مختلف اتجاهات الفكر الاجتماعي والسياسي في مسرحياته منذ الخمسينيات. ويمجّد ديمقراطية الإسلام في مسرحية (الإزار الجريح) ويُعلي من نبل الفقراء والكادحين في مسرحيته (إنسان)، ويدافع عن حق الجماهير في العدالة الاجتماعية في مسرحيته عن (أبي ذر الغفاري). فكان أقرب الشعراء لروح عصره ومجتمعه وتطلعات الإنسان فيه... ومن هذا المنطلق لم يرفض مجتمعه حلمه الشعري، لأنه يعكس نبض جماهير أمته وأحلام الإنسان العربي، ومن هذا المنطلق يستمد حلمه الشعري ثباته وقوته..

* * *

(كي أبقى مع الكلمة) ـ للشاعر سليمان العيسى... منشورات وزارة الثقافة السورية... يقع الكتاب في (٢٣٧) صفحة من القطع المتوسط.

سليمان العيسى وريشته المتعبة بعد الثمالات

حين صدرت للشاعر سليمان العيسى مجموعاته الشعرية تحت عنوان **(الثمالات)** في خمسة أجزاء، خيّل لي وقد تجاوز الثمانين من العمر، أن رحلته الشعرية ختمها بهذه الأعمال، كما يوحي عنوانها، إذ ليس بعد «الثمالة» من شعره ما يمكن أن يضاف، لكن ريشته «غير المتعبة» تطلع علينا بديوان جديد يحمل عنواناً يشفّ عن جهد الشيخوخة ومعاناتها **(همسات ريشة متعبة)**، فأدركت أن هذا الشاعر المبدع مسكون بالشعر، فالشعر ليس شيئاً مضافاً إليه، إنه وجوده ومعنى حياته، فلن تكف ريشته عن العطاء ما دامت أصابعه تتشبث بها.

الغريب أن هذا الشاعر المؤمن برسالة الشعر، يتحامل على نفسه متحدياً الفناء، فلم يبق من جسده المتعب سوى صوته الجهوري، فإذا اعتلى المنبر لا ترى من جسده المرهق ما تراه وهو صامت، فإذا بدأ يتلو شعره، رجعت صورته حين كان شاباً يحرّك الجماهير، فما زال يحتفظ بصوته المجلجل، ونبرته القوية المعبّرة، وكأن قوّة الجسد كلها استحالت إلى لسانه الذي يرفض أن يستكين لأعباء الوهن ومتاعب الكبر، فهو الأداة المعبرة عن حلمه القومي الكبير، لم تزده الأيام إلاَّ تحدّياً وعزيمة. من سمات شعر الشيوخ الهدوء الذي يسبق العاصفة، وهو هدوء يوحي بشيء من الترقب والتوجّس، ويتحلل من تبعات الحياة، ولا يخلو من إحساس بالرهبة أمام هذا القادم المتوقّع. لكن قصائد ديوان الشاعر الأخير التي زاوجت بين

الشعر والنثر توحي أنه متشبث بالحياة، يحبّها ويتعلق بها، ويستمتع بأصغر صور جمالها العابرة، ويحرص أن يجعل من لحظات العمر الهاربة مادة لشعره قبل أن يبتلعها الزمن، ويرميها في مطاوي النسيان.

وهكذا يقتنص كل ما يحيط به من دقائق الحياة وجمالها مادة للشعر: لفتة الزوجة العطوف التي ترعاه، وغيابها عنه، وتناول قهوة الصباح قربها، زقزقة العصافير على سنديانة الدار، وهديل الحمام، زيارة صديق قادم من بعيد، تحية قارئ معجب، سيران كادحين وعيالهم فوق قاسيون، زيارة حلاّق يستمتع بالفن...

تغدو هذه الموضوعات الصغيرة موضوعات شعرية قابلة للتسجيل والتخليد. وكأن الشاعر قد تحوّل إلى مراقب لعالمه المحيط به. يرسم أشياءه بريشة فنان مبدع، ويستخلص من الواقعة العابرة قيمة إنسانية خالدة، لكن سليمان العيسى وهو يراقب عالمه لا يبدو مراقباً محايداً، ولا مصوراً تسجيلياً، فالصورة التي يقدمها تضجّ بالحياة والفرح، وتنأى عن الكآبة ورثاء الذات، يبدو من خلالها متفائلاً راضياً عن حياته الراهنة على مافيها من ألم وتبريح، وعن ماضيه الذي ينفذ إليه أحياناً عن طريق الحضور والذكريات، فلا يتخلى عن حلمه القومي الذي نذر نفسه له.

ولا ينسى كل لحظة من لحظات حياته العابرة، وقد ربطته بالناس الذين أحبهم وآمن بأنهم أمله في التغيير والثورة على الواقع.

كما ربطته بالطبيعة وجمالها، وبالأسرة ودفئها طفلاً في «النعيرية»، وزوجاً سعيداً بقرينته، وبالأمة التي ينتمي إليها ويسعى لتحريرها، وبالعالم

بأسره، وقد آمن أن ما فيه من قيم الخير، لا بدَّ أن تنتصر يوماً على الشر والأذى والظلم والاضطهاد.

قد نلاحظ في الديوان هدوء نبرة الشاعر التي أشارت إليها زوجته الدكتورة **«ملكة أبيض»** في المقدمة، ونلمس فيه صوراً من استراحة المحارب المجهد، لكنها استراحة المتحفّز أبداً لمتابعة الكفاح.

وعلى الرغم من أَنَّ قصائد الديوان فيها كثير من النفس الرومانسي لرهافة الحسّ التي تعززت لدى الشاعر مع متاعب الشيخوخة. لم تدفع به إلى الشكوى أو الترهّل العاطفي أو الانهيار الذي نلمسه لدى الكبار، فقد حصّن نفسه من أن تهزمه الكهولة. وقليلة هي الخواطر التي نلمح فيها لديه إشارة إلى انقطاع خيط الأمل والتشبث بالحياة...

الشمس تسطع

لا أريد لهاثها

حولي ولا الرمضاء في قدميّا

سأمدّ فوقي ظل غصن أخضر

وأنام

نُعمى الأرض في جفنيّا

ملّت يداي الجمر

فلتهدأ يدي

يوماً

على ريحانة بيديّا

*

و لا يأسى الشاعر لذهاب الشباب، ولا يبكيه كما بكاه الشاعر المتنبي حين قال:

ولقــد بكيــت عــلى الــشباب ولـــمّتي

مـــسودّة ولمـــاء وجهـــي رونـــق

إذ يردّ عليه «العيسى» قائلاً:

لم أبـــكِ ومـــضاً مـــرَّ بي يـــا شـــاعري

في كـــل خالجـــة جديـــد يخفـــق

وهو حين يتذكّر ماضيه، لا يشرق في ذاكرته سوى الصور المفرحة:

لقد كنت وما زلت أوثر أن أبحث أبدًا

عن البقع المضيئة في هذا الذي نسميه الماضي

أما بقع الظلام فقد تركتها لغيري

يغرق نفسه فيها كما يشاء

إني لأشفق على هؤلاء الإخوة

الذين يبحثون عن النكد

لهم ولسواهم

وهم يظنون أنهم يبحثون عن الحقيقة

*

وينتقد الجيل الجديد من الشعراء الذين جعلوا من تغرّبهم وثورتهم على الواقع مأساةً تحبط كل أمل في المستقبل أو إيمان بالحياة، فأزمتهم النفسية ثمرة رومانسية مفرطة في التشاؤم.

فماذا يزرعون بها من بذور الأمل..؟

التفاؤل لدى الشاعر والثقة بالحياة هما جوهر رؤيته الشعرية، وهما ينبوع حكمته كما يريد أن يعلمنا بعد تجربته الحياتية شيخاً ففي الحياة ألف مسوّغ لنؤمن بها، ونتكيّف معها ولو كنتَ رومانسياً حالماً أو ثائراً تسعى إلى تغيير الواقع، فبإمكانك أن تؤلف بين الحلم والواقع في إطار من الثقة والنفس وبالآخرين من حولك وبالمستقبل الكفيل بالتغيير:

إزرع ولو عشبة..!

أدري بأن الريح تسفي هذه الكثبان

ريح قاتلة

أدري بأن الأرض تشكو محنةً أو غائلة

لكنني سأظل أبحث

عن بقايا خضرة

في هذه الصحراء

عن عشبة

*

فلسفة التفاؤل لدى الشاعر «سليمان» تقترب كثيراً من دعوة الشاعر «إيليا أبو ماضي» التفاؤلية، مع فارق ما بينهما من دواعٍ ومؤثرات «أبو ماضي» يقدّمها على صورة نصائح وحكم ومواعظ، أما «سليمان فيعلّمنا من خلال خياراته الشخصية الإنسانية، ما يجعل منها رسالة غير مباشرة، خفيّة التوجيه لكنها قوية التأثير، تدفع إلى الاقتداء، وتتجلّى فيها رفعة الفن التمثيلي ومشهدية الحدث.

لنتأمل كيف صور جريمة اغتيال صديقه المخرج المسرحي «مصطفى العقاد» اختار الشاعر «لقطة» لقاء الشهيد الراحل ابنته في فندق، وفي اللحظة التي تقارب فيها الجسدان للعناق، انفجرت القنبلة، وترك الشاعر للقارئ وحده أن يتخيّل قسوة الجريمة ووحشيتها:

فجأة... يُدوّي انفجار

انفجار مروع، يتلوه انفجار

يسقط أبوها مضرّجاً بدمه على الأريكة

يُرخي الزمن ستاره على ضحيتين

يتحوّل الزمن كلّه إلى شهقة

*

ويضفي الشاعر على المشهد قوة حين يربط استشهاد العقاد باستشهاد عمر المختار في بيتين يجعلان من تاريخنا وتاريخ العظماء حلقات موصولة:

عمـــر المختـــار، هـــل راعـــك مـــا

راعنـــي والليـــل يـــروي النبـــأ؟

أنـــت مـثـلـــــي، لـهفـــة جــازعـــة

عبقـــــري مــــن بـــــلادي انطفـــأ

*

أسلوب جديد في الرثاء، تبرز فيه الحداثة، لكنها لا تستعين بأدوات العصر من غموض وتكثيف وضبابية، بل بلغة شعرنا ونثرنا المألوفة والواضحة والقريبة من أفق القراء، وقد اعتمد الشاعر المزاوجة بين الشعر والنثر في دواوينه الأخيرة، وربما قبل ذلك منذ أن صدر كتابه (الكتابة أرق)، وهي مزاوجة ناجحة تزيل الحدود التقليدية بين الشعر والنثر، فيستعير الأخير من الأول سحر اللغة الشعرية وجمالها ونصاعة بيانها، كما يستعير الأول من الأخير بعض ما يساعد على كسر حدّة التكثيف الشعري، أو تقريبه إلى ذهن القارئ، وقد بدا النثر ومقدماته للقصائد أدنى إلى الشعر من حيث تقطيعه إلى جمل قصيرة، وتحريره من الروابط اللغوية والاسترسال المرهق.

*

يعترف الشارع سليمان العيسى أن الحياة جميلة، ويتجلّى جمالها في بساطتها التي تسمح لكل كائن أن يغترف من هذا الجمال على قدر ما أوتي من ذائقة، فالواقعية عنده هي الواقعية الطبيعية التي تنأى عن العالم الاصطناعي الذي ابتدعه الإنسان، وانصرف إليه مع أنه واقع زائف. وهذه الواقعية الطبيعية هبة إلهية للناس يقتسمون جمالها، ويتماثلون أمامها تمتعاً وانجذاباً، وتتحد مشاعرهم في عالمها.

يتمتع العصفور بجمال الطبيعة فيغرّد أو يسقسق أمام جمالها كالشاعر، ويجد المتعبون على الأرض راحتهم في نزهة متواضعة يفترشون المروج وزوّادتهم لا تتجاوز الخبز والزيتون، لكنهم يجدون متعة تعدل ما يجده الموسرون حين يلجون أرقى المطاعم وقد تفوقها:

فوق ذرا قاسيون

أكداسًا ينتشرون

فرّوا من حرّ منازلهم

ومنازلهم حمأ مسنون

زوّادتهم إبريق الشاي

وبعض الخِرق

وتحنو البقع السُّمر عليهم

أنّى ينغرزون

وتمرّ بهم.. لا تَشغلهم عمّا هم فيه

ولا هم يكترثون

هذي «الأكداس» التَّعْبى

هم عصب الوطن الأول

هم منجمُه الأول

هم ساعده الأول

هم نبض بلادي

حين يجفّ النبض

وينطفئ الباقون

*

ومن متع الحياة، ومسوّغات الاستمرار فيها، أن يكون لك أسرة تسعد بها، وزوجة تسند إليها رأسك، وتفضي إليها بهمومك، فليس غريباً أن يجعل الشاعر من زوجته أيقونة للمرأة الوفية المثالية، وأن يخصّها بأكثر قصائد الديوان، فهي سنده وراعيته ورفيقته في مشروعه الشعري، بل زادته شيخوخته الحاجة إليها، فكانت محور حياته التي تفرغ من معناها إن غابت عنه، ويتعزّى لسماع صوتها، ويسترد أنفاسه إن حضرت:

هي الآن بعيدة

بيني وبينها نصف مساحة العالم

شكراً للهاتف

الذي أوجز لنا العالم

وجعلني أسمع صوتها

وتسمع صوتي

*

ولعل مكانة المرأة في حياة الشاعر، تتجاوز في أثرها حبه الشعر الذي نذر حياته لها:

أفتش عنك في الأشعار

أحكي وحدتي فيها

أقصّ فراغ أيامي

إلى الورق

متى تأتي؟

سؤال مرة أ خرى

يعود غمامةً تجتاحني

أنهدُّ فوق عصاي

أبحث في الضباب المرّ

عن خيط من الشفق

*

ويؤمن الشاعر «سليمان» أن حياته عابرة، لكنها تتجدد بأطفال وطنه الذين خصّهم بشعره، وهو في رؤيته مازال طفلاً صغيراً لم يتجاوز مرحلة الطفولة في انبهارها أمام الأشياء وبراءتها. فكان أطفال أمته امتداداً لحياته، وهو أقرب إليهم من الكبار صفاء نفس وتعلّقاً بالجمال:

حملت إلى الأطفال

ريش طفولتي

وطرنا معاً

شعراً وأجنحة زُغْبا

ودِدت لو أن الأرض

كانت طفولة

وكان صغيراً كل مَنْ فوقها دَبّا

*

نلحظ أن أكثر القصائد في الديوان، تدور حول تمجيد المرأة وتمجيد الطفولة، وتمجيد الطبيعة البريئة والاتحاد بها، والاستغراق في براءتها، أي العيش فيها بعيداً عن تعقيدات المدنية والاستسلام للحلم، لأي حلم يبدّد منغصات الحياة.. وتشكل جميعها رؤية الشاعر الكهل وتلخص حكمته، وكلها تنبع من جذور رومانسية بعيدة عن التشاؤم والشكوى. أما الألم فللشاعر فلسفته الخاصة التي تعارض موقف الشعراء منه، هذا الرضى عن الذات وعما حوله ليس هرباً من الألم الذي يحمله الواقع، ولا يعني أن الشاعر يتجاهل الألم أو يفرّ منه، حين يصطدم الحلم بالواقع كما اصطدم حلمه القومي الذي نذر له حياته. ولا بدّ أن يكون ألمه كبيراً، لكنه يظلّ ذلك خفياً في الأعماق.

وإذا كانـــــت النفـــــوس كبـــــاراً

تعبـــــت في مرادهـــــا الأجـــــسام

وآلام الشاعر سليمان العيسى كبيرة على قدر طموحه القومي، لكنه يؤثر إبعادها في شعره، فتخاذله أمام المحن يعني هزيمته، وإن الهزيمة المعلنة

ستكون ضعفًا أمام الأجيال التي آمن بها، وتثبيطاً للأمل الذي زرعه في النفوس..... ولذا آثر أن يتحدى في شعره المحال.

لقد غرق في هذا الحلم العربي الذي وهبه حياته وشعره ولم يتحقق منه شيء حتى الآن.. لكنه كان مصرّاً على اقتناعه به ومواصلة الغرق فيه:

يا قصة العمر.. لو لم تذهبي بددًا

ما اختار غير الحريق المشتهى بددي..!

*

ويخشى الشاعر عامل الزمن، وأن تطوي الأيام ما كتبه، فتنساه الأجيال، فيتساءل:

هل كانت الدنيا التي قطرتها في كل حرف؟

في اشتعالي وانطفائي

في البروق والرعود

وفي صراخ القهر والحرمان

في حلمي بضوء الشمس

هل كانت سدًى؟

كل الوجود إذاً

وكل ضجيجنا فيه سدى...!!

*

ويتابع الشاعر أصداء حلمه القومي وتحققه في انتصار المقاومة العربية في «لبنان» إثر اجتياح العدو الإسرائيلي الأخير، فيرى في مقاتليها الظافرين، وفي مزق أطفالها تحت القصف صورًا لأطفاله الصغار الذين كتب لهم الشعر.. ويؤكد أن نصرها بداية النصر للأمة العربية:

سوف يصحو بدم الأطفال كل النائمين

سوف يصحون: دم الأطفال أقوى

سوف تصحو أمة في العالمين

منبت الأشعار والأزهار تبقى

أيها الروض الطعين...!

*

والشاعر حريص على توجيه الجيل القادم من الشعراء حفاظاً على استمرار رسالة الشعر والارتقاء به لدى أبناء الجيل الجديد، فينصحهم بالتروي، ويوجّه إليهم إرشادات فنية في عدد من قصائد الديوان، التي تدور حول فن تكثيف الفكرة في الشعر، وحسن اختيار المفردة، وتفاوت الشاعرية في نسيج النص الشعري، وحرارة الشعور ودفقه وضرورة إظهاره في الشعر حتى يبدو كأنه جمر يحترق:

أعود إلى القصيدة.. أي جمر كتبت به وغنّته ربابي. ويحث الشعراء الشباب على التقيّد باستقامة الوزن والإلمام بموسيقا الشعر، وهي السمة التي تميز الشعر كما [تتميز رقصة البالية من المشية الجميلة].

ويشترط امتلاك الشاعر الحسّ المرهف والخيال الذي يؤهل جناحيه للطيران، وقبل كل شيء الموهبة التي لا تخفي ذاتها، ولا تكف عن دفع مالكها كي تحيل عالمه ودقائقه الصغيرة وتفاصيله إلى عالم شعري، كما فعل الشاعر سليمان أمام لحظات عمره الهاربة. فجمال عالمه من جمال نفسه.

وأخيراً... بوركت الريشة المجهدة لشاعرنا التي لا تكفّ عن الخربشة كما يقول، لا تدوّن حسابًا في بنك، أو أرقامًا لربح وخسارة. لكنها تلاحق الجمال بغبطة، فتراه في كل مظاهر الكون البديع لترصده فتسعد به. وبوركت الحياة التي أحبها، بل آثرها على حياة خالدة يتجدد فيها ذكره... فارتشاف قهوة الصباح قرب الزوجة الوفية في الدنيا أحلى وأغنى من عمرٍ ثانٍ نَعِدُ به الخالدين:

هيئي قهوتنا ولنرتشف

صبحنا فيها معاً

فهي أحلى بل وأغلى

من «حكايا» عمرنا الثاني غدًا

*

تُرى، هل ستقوى ريشة الشاعر على تحدّي الشيخوخة، فيطالعنا بديوان آخر، وقد استصفى الثمالات وما بعدها..؟

وقفات متأنية للشاعر سليمان العيسى(*)

الشاعر الكبير سليمان العيسى آخر سنديانة صامدة في غابة الشعر العربي المعاصر، بعد أن فقدنا في السنوات القليلة الماضية أبرز أعلامه، كالجواهري، ونزار قباني، وعمر أبو ريشة، وعبد الوهاب البياتي. فقد خلت الساحة الأدبية مع إطلالة عصر العولمة الذي أعد عدته لوأد الشعر لا بالرفش والمعول، بل بتقنيات هذا العصر العجيب الذي يريد أن يمحو من الشعوب ماضيَها وذاكرتها، ويعني ذلك بكل بساطة أن يتخلّى الإنسان العربي عن هويته وجذوره، ليغدو ريشة في مهب الريح، وطعمة لأشراك منصوبة له في دروبه المفخخة.

والشاعر سليمان العيسى ظاهرة شعرية متميزة، وما أحسب أنه يحتاج إلى دراسات وبحوث نقدية ليتعرف القرَّاء إليه، فهو في عصرنا كالمتنبي في عصره «مالئ الدنيا وشاغل الناس»، لا يحتاج أي عربي لأي بحث أو تقديم عن سليمان العيسى لأن شعره كان وما زال صدى لطموحنا وآلامنا وآمالنا وما يمس أعماقنا.

شعر سليمان هو ضمير الأمة وصوتها المعبر عن خمسين عاماً ونيّفٍ من حياتها المضطربة، ذاب فيها وذابت فيه حتى التوحُّد، فكان ذلك كتاباً روحيّاً

(*) د.ملكة أبيض، وقفات مع سليمان العيسى، صدر عن الهيئة العامة للكتاب في صنعاء، عام ٢٠٠١م، في ٤٢٣ صفحة من القطع الوسط.

لا تنفصم عراه، وكان قلبه موزعاً على أرجاء الوطن العربي الكبير حتى لينطبق عليه قول الشاعر شفيق معلوف:

أســـاي عـــلى قلـــبٍ كثـــير حنينـــه

عـــلى كـــلِّ أطـــراف الـــبلاد مـــوزّع

ولم يكن لهذا القلب أن يصمد أمام النوازع والنكبات التي تحبط آمال «سليمان» كلما لاح له بريق أمل، لولا ذلك الحنان والحب والمشاركة النبيلة من رفيقة دربه واليد الحانية على إبداعه زوجته الدكتورة ملكة أبيض، ونحن نعرف كثيراً من الوقائع المؤسية في حياة زيجات بعض الأدباء من الأعلام، فهؤلاء المبدعون كان لهم عالمهم الخاص، ومن العسير أن تستطيع زوجة أديب أن تتخطى التفرد والغرابة التي تتسم بها حياة الأديب، إلاَّ إذا كانت سيدة واسعة الأفق، مثقفة، مدركة عالم الشاعر الذي يتجاوز أعباء الزواج المادية ومسؤولياته وغاياته الإنسانية المألوفة، مؤمنة برسالته الأدبية.

ومن نعم الله أن وهبه الله رفيقة درب عالية الثقافة زوجة تقدر إبداعه، وتشاركه إلهامه، وتشجعه، وتقف إلى جانبه في أزماته النفسية كإنسان لا يحتفي كثيرًا بأغراض الدنيا، وإنما يضع على عاتقه هموم الأمة والإنسانية المعذبة، فبقلبها الحاني استطاع الشاعر أن يتجنب ما امتُحِنَ به كثير من العباقرة في زيجاتهم.. ومن هؤلاء مثلاً: سقراط، وتولستوي، وهيمنغواي، وسواهم..

* * *

في كتاب الدكتورة ملكة أبيض.. وعنوانه (وقفات مع سليمان العيسى) تبدو المؤلفة أكثر الناس اعتزازاً بنجاح زوجها، فهي إذ تحتفل بعيد زواجهما الخمسين، بعد نصف قرن من الحياة الحميمة المشتركة، الحافلة بالأفراح والأتراح مع الشاعر.. ترى أن من حقها استعراض ذلك المشوار الطويل، متوقفة عند موهبته الشعرية ونتاجه الأدبي، وأن لا تلتفت كثيراً إلى ذكرياتها الزوجية المشتركة، ذلك أن الذكريات كما تقول: إرث مشترك للزوجين لدى كل الناس...

وهذا يعني أن «ملكة» أدركت دورها الزوجي في حياة المبدع، وهو دور عسير، واختارت «سليمان» لترعى إبداعه، فنجاحه هو نجاح لزواجهما المتميز، ومشروعه الفني أمسى شراكة لهما، يعملان معًا ليبلغاه هدفه فوق ما تمليه العلاقة الزوجية من واجبات إنسانية، لم تكن «ملكة» تجاهها أقل نجاحًا كإعداد الأولاد للحياة، وبناء العش الزوجي على أسس راسخة من السعادة والطمأنينة.

كانت «ملكة» في حياة الأسرة إنسانة مكافحة، لا تحمل زوجها رهقًا، ولا تفرض عليه ما تمليه الحياة الأسرية من التزامات، وبذلك وفَّرت له ذلك الصفاء النفسي، وتلك الحرية التي هي شرط من شروط الإبداع إضافة إلى أنها وقفت إلى جانبه في مسيرته الشعرية، تشاطره الإنتاج الأدبي، وتتابع بلا ملل نشاطاته الخاصة، وتستوعب بعمق ما يتطلبه المبدع من خصوصية ذاتية متفردة، فهيأت بقلبها الكبير للشاعر ميدانًا رحيبًا، لإنتاج غزير، اتسمت به مسيرته الشعرية.

في كتابها: (وقفات مع سليمان العيسى) نلمح وراء الكلمات سعادة «ملكة» بتحقق حلمها في أن ينجح زوجها الشاعر، وإن لم تصرح ولو بكلمة

واحدة عن دورها في رعاية إبداعه، أو تدل بأن وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة. إلاَّ أن معجبي ومحبي الشاعر وأصدقاءه يسجلون لها هذه المآثر، ومن خالط هذا النموذج المتفرد عن كثب يدرك جيدًا أن السيدة «ملكة» لا تقل عن زوجها الشاعر انفتاحًا على الناس، ومحبة لهم، ونزوعاً إلى القيم التي حملها زوجها ونذر لها حياته، فالشاعر «سليمان» مدين لها بذلك الاطمئنان الذي كان سمة من سمات طبعه، والسّكينة التي تتبدَّى في جلساته بروح من المرح والدعابة والانفتاح على الحياة بلا منغصات بيئية، اللهم إلاَّ تلك المنغصات التي كانت تفرضها النكسات العامة، ولعلها كانت ستهز كيان الشاعر لولا تلك الرعاية الأسرية التي أحيط بها.

إن قارئ «وقفات» الدكتورة ملكة، يطمح إلى أن يرضي فضوله في تعرف أسرار حياة الشاعر «سليمان» وقد يطمع الناقد الأدبي في أن يجد فيه معلومات عن سلوكه وعالمه الخاص، شأن أولئك الذين يترجمون للأعلام، ويرون في كشف عوالمهم الذاتية وثائق يستفاد منها لتحليل الشخصية، على أن «ملكة» أدركت أن سليمان كما يعرفه الناس كتاب مفتوح ليس في شخصيته ذلك التعقيد، أو تلك الازدواجية، ولم يسخِّر شعره لأغراض دنيوية عابرة تشغله.

لقد كان إبداعه نهباً لدور النشر في مراحل طويلة من عطائه، وقد استحوذ عليه الشعر حتى أنساه كل أغراض الحياة، فما تعرفه زوجته عنه يعرفه عنه كل الناس، براءة وصفاء يقتربان من عالم الطفولة، وقلب مشرع للناس جميعاً، واحتياجات بسيطة تغذي نزوعه إلى الجمال.

إن جلسة ممتعة مع صديق أو قراءة كتاب، كانا يمتعانه أكثر من كل ما يستمتع به أصحاب اليسار في حياتهم الصاخبة، يستثيره من الحياة جمال خاص لا نقدر قيمته، ويلفت انتباهه شخصيات بسيطة في المجتمع نمر بها ولا نوليها اهتماماً، كمحادثة طفل عابر أو مداعبة صانع قهوته في أحد المقاهي، أو معد نارجيلته في صباح ريفي، فالحياة في نظره مترعة بجوانب خصيبة وغنية عشيت عيوننا عن رؤيتها، وهي تزري بكل جمال مصطنع، وفي هذا وفاء للحياة وصانعيها مهما صغر شأنهم.

ليس غريباً أن تتجاوز الدكتورة «ملكة» تلك الشؤون الخاصة، فتتحدث في كتابها عن عطاء الشاعر، فهي رفيقة دربه التي يدين لها بالجميل، يقول فيها:

كانت تمدّ العشبَ في طريقه،

تقتلعُ الشوكَ

بصبرٍ يعرف العذاب

وما شكا يومًا

ولو غُدرانُه سرابْ

* * *

منذ تلاقينا

كتبناها معًا

قصيدةَ التعبْ

ولم نزل نكتبها.. تكتبُنا

قصيدةُ التعبْ

دعها إذن

تختزلُ الرحلةَ والعناءْ

تقول ما تشاءْ

تصوغ هذا السندبادَ المتعب الجريحْ

ترسمه.. على جناح الريح

لأنها أدرى به

من لونه الصريح

* * *

في كتاب «ملكة أبيض» تسع وقفات متأنية، تلخص فيها الكاتبة جوانب من حياة زوجها «سليمان» وأدبه واهتماماته العامة.

أولها: وقفتها عند الوشائج التي تربط أدب «سليمان» بحياته بدءًا من مرحلة الطفولة في كنف والده الشيخ «أحمد العيسى» التي تحدث عنها كثيرًا في شعره ومذكراته.

كان لاهتمام والده في تنشئته على حب الأدب واللغة أكبر الأثر في إبداعه، وكانت التركة الأدبية التي ورثها عن أبيه أثمن من كنوز الدنيا كلها، وقد صادفت في نفسه طموحًا إلى المُثُلِ العليا وموهبة شعرية متفردة، فسخّرها «سليمان» بل استثمرها لخدمة هدف في نفسه لم يختره بمحض

إرادته بل اختارته له الحياة والظروف، فهو يعيش «اللواء»(١) قطعة منتزعة من وطنه العربي الكبير، وهو كوالده وأهله مهدد بضياع هويته القومية، من هنا كان سر تشبث والده بترسيخ هوية ابنه القومية بتعليمه اللغة العربية كمقوِّم هام من مقومات وجوده القومي، وسرعان ما عصفت به محنة «اللواء السليب» ودفعته إلى مغادرة بيت الأسرة وهو فتًى لَمَّا يستعد بعد لمواجهة قسوة الاغتراب، فيتم دراسته بين دمشق وبغداد، ويستقر أخيرًا في مدينة حلب السورية حيث يواصل حركة النضال القومي التي أسسها أستاذه الروحي «زكي الأرسوزي» تحت شعار بعث الأمة العربية، وتفجير طاقاتها لتسترد عافيتها بعد انحلال وتجزئة وتبعية، والتي كان سليمان من خلاياها الأولى منذ ولادتها.

كانت حياته في تلك الفترة مزيجاً من الأتراح والأفراح، ومن الجد الذي فرضه هدفه القومي وتعترف المؤلفة «ملكة» بواحات صغيرة كان يفيء فيها الشاعر الفتي إلى نفسه، ليعبر عن تفتُّح رجولته بقصائد من الغزل يكتبها في زميلاته قبل أن يعرفها، فلم تكن اهتماماته الوطنية لتلهيه عن الجمال والتغني به، ثم يلتقي رفيقة العمر فيكتب فيها قصائد لا أرق ولا أحلى، يجد القارئ باقةً منها في ختام كتاب «وقفات مع سليمان العيسى» تحت عنوان قصائد خاصة:

هذي حديقتك الطروب فأين زنبقـة الحديقـة؟

أقبلتُ وحدي، لا أضم إلى يدي يـدكِ الرشـيقة

---

(١) لواء اسكندرونة، مسقط رأس الشاعر.

قولي لطفلكِ كيـف أدركَ دون طفلتـه طريقـهْ؟

أقبلت وحدي، لا أحس رفيف بسمتكِ الطليقة

وتلفُّتَ ا لجيد الـصغير، وهمـسة القُبَـلِ الرقيقـةْ

وشعر سليمان العيسى في المرأة أقرب إلى الشفافية، فهي في نظره روح قبل أن تكون جسداً، وهي تفرض احترامها وتقديرها عاشقة وزوجاً وأمّاً ومناضلة، وتتحدث «ملكة» عن فترة خطبتها، وهي من أسعد مراحل العمر، فتقول: كتب لي سليمان عددًا من القصائد التي أحبها وأعتز بها، وتتعزز علاقتهما برباط الزواج، وهو زواج تحكمه المواهب المشتركة والمفاهيم المتقاربة عبَّر «سليمان» عن سعادته بقيوده الحلوة التي اختارها طواعية:

بيديَّ اخترتُه قيدي الصغير

من ربيع دائم في القلب،

من بَرْدِ غديرْ

أتقي الصحراءَ فيهِ

كلما أَسلَمني الإعصارُ من تيهٍ لتيهِ

ويهنأان معًا في عشهما الزوجي بمدينة حلب، حيث كان يدرس العربية في ثانوياتها، في فترة بلغ فيها المد الجماهيري ذروته، فكان الشاعر سليمان العيسى حادي الركب، يجسّد نبض الأمة الغاضبة، في مواجهة المؤامرات الاستعمارية، وأسفر غناؤه عن خمسة دواوين، كانت تتسرب

تهريباً إلى البيوت العربية في كل صقع عربي فقد وجدت الأنظمة المتواطئة مع المستعمر في هذا الشعر خطراً عليها، ومع أن بعض البلدان العربية نالت استقلالها، إلاَّ أن المستعمر لم يغادر الباب إلاَّ ليطل بوجه جديد مطلي بطلاء مزوّق من صنع الإمبريالية.

كانت تلك الفترة من حياة الشاعر «سليمان» أخصب مرحلة في عطائه ما بين الخمسينيات والستينيات، جمع قصائدها في دواوينه:

١ ـ مع الفجر.

٢ ـ أعاصير في السلال.

٣ ـ رمال عطشى.

٤ ـ شاعر بين الجدران.

٥ ـ ثائر من غفار...

وشكلت العمود الفقري لنتاجه ونهجه الشعري مع أربع مسرحيات تصب في بحر شعره القومي وهي:

١ ـ إنسان. ٢ ـ ميسون.

٣ ـ الفارس الضائع. ٤ ـ ابن الأيهم، الإزار الجريح.

لم تتوقف الدكتورة **«ملكة»** كثيراً عند خصائص الشعر القومي لدى الشاعر في هذه الفترة، وعوامل بروزه، فقد انطلق شاعراً قومياً في فترة الخمسينيات بعد الاستقلال الوطني، ولم يكن أول شاعر على صعيد النضال الوطني والقومي، فقد سبقه جيل من العمالقة مثل: حافظ إبراهيم وأحمد

شوقي وخليل مطران وبدوي الجبل ومحمد مهدي الجواهري وعمر أبو ريشة. غير أن فترة ما بعد الاستقلال شهدت نشأة الأحزاب الوطنية، ورأى كثير من الشعراء أن الهدف من مقارعتهم الاستعمار قد تحقق بالاستقلال الوطني، وانصرف أكثرهم إلى دعم الحكومات الوطنية التي لم تكن تلبي في نظر جيل الشباب طموحات الأمة في الوحدة والتحرر وتحقيق العدالة الاجتماعية، فكان «سليمان العيسى» أبرز هؤلاء الشعراء الذين مثلوا المد الجماهيري الصاعد. دخل السجن أكثر من مرة بسبب مواقفه الوطنية، في حين انضوى كثير من شعراء الجيل السابق تحت لواء الحكومات الوطنية البورجوازية، وكان شعره في تلك الفترة شعراً تطبعه الخطابية والمباشرة ومقتضيات مخاطبة الناس بوضوح، ودعوة صريحة للنضال القومي كطريق وحيد للتحرر.

كان همُّه تنمية الإحساس بالانتماء القومي والدفاع عن مصالح الأمة في مواجهة أعدائها في الداخل والخارج، ومحاربة التجزئة والدعوة إلى وحدة وطنية مهما كانت أبعادها:

أطلّي علينا وحدةً، طيف وحدةٍ
بريقاً، سراباً، كيفما شئت فاقدمي
وهبتُكِ عمري ما وهبتُ سوى الظما
إليكِ أنا الحادي القتيلُ، أنا الظمي

وتنصبُّ المواجهة على قضية فلسطين بحكم أنها قضية العرب الكبرى، وقد خصَّها الشاعر «سليمان العيسى» بفيض من شعره جمعه فيما

بعد بديوان سماه: (فلسطينيات) وأدرج فيه ما كتبه للصغار والكبار، وربط فيه الشاعر بين مأساتي فلسطين واللواء السليب. وتكون نكسة حزيران ١٩٦٧م سمة للإخفاق العربي المتشرذم الممزق بين إيديولوجيات متناحرة ومنقسمة وأنظمة حكم رجعية أو عسكرية تصادر حق التعبير. ويجد الشاعر نفسه محبطًا، فكل مابناه خلال مسيرته الشعرية، كان عبثًا. وذلك المدّ الجماهيري الذي غنى له في الخمسينات تحول إلى أشلاء ممزقة وفئات متناحرة ألهاها انقسامها بين يمين ويسار، ومستغِل ومستغَل عن قضايا الأمة، فيقع في براثن اليأس:

لا تقاومْ

لا ترتجل مرفاً في الوهم

أحرق الكوة الأخيرة، مات الضوء

كَفِّنْ بذكره أحزانَكْ

كل ما تبنون أضغاث رؤى

كلمات كلمات

حلوة أو مرّة كانت

ستبقى كلمات

وينفض الشاعر يده من عالم الكبار المتخاذل المتناحر، ويتطلع إلى أطفال الأمة العربية، أمل المستقبل، جيل المقاومة، فيجد فيهم وفي مقاومتهم الأمل الواعد.

أطفالنا المتشبثون بأرضهم وبشمسهم

سيجازفون ببؤسهم وخيامهم

وبكسرة الخبز التي يبست على فمهم

نعم.. ويفجرون الأرض تحتكَ

أيها الغَبَشُ الدخيل

وليس في أيديهم غير الحجارة

* * *

بعد انتقاله إلى «دمشق» موجهاً أول للغة العربية ١٩٦٧م. وضع نصب عينيه أن ينذر شعره لبناء جيل جديد يتشبع بحلم الأمة في التحرير والعيش الكريم والمستقبل المشرق، من أجل ذلك عكف على كتابة أدب هادف للأطفال: أناشيد ومسرحيات وحواريات وألعاب هادفة تعزز انتماء الطفل لأمته وتراثه، وتزكي روح النضال لدى الصغار منذ الطفولة، وتزرع فيهم الأمل قبل أن يتحطم على صخرة الواقع حين يكبرون.

جاء نتاجه لأدب الأطفال تلبية لحاجة أساسية أهملها الذين سبقوه، وتعالَوا على أن يلتفتوا إلى هؤلاء الصغار على خطورة تنشئتهم وأهميتها، فكانت الحصيلة ديوان شعر ضخم للأطفال، ضمَّنه ما كتب من أناشيد للصغار بأسلوبه المشرق المتميز القريب من عالم الصغار، وقد احتفظ فيه بالمعادلة الصعبة بين مستلزمات الشعر الفنية والمستوى اللغوي والفكري للصغار، ولم يشأ أن يضحِّي بالفن لغرض تعليمي، لأن ذلك يعني سقوط الفن على حساب النزعة التعليمية والتوجيهية. وكان نجاح هذا الشعر

وسيرورته أكبر شاهد على توفيق الشاعر، لكن بعض العقول التربوية الجامدة تذرعت بغموض بعض الصور في هذا الشعر وقاومته، فكان قبوله من الأطفال خلال المناهج المقررة خير دليل على خطل تصورهم، فالشروط الفنية التي تبنَّاها الشاعر، تلتقي مع كثير من شعر الأطفال العالمي من حيث سماته وخصائصه الفنية، مثلما تلتقي مع القرآن الكريم الذي خاطب عقول الناس الأميين بأروع صور البيان المعجز، ولم يكن ذلك عائقاً دون تمثُّله وتذوقُّه وحفظه.

* * *

في مسرحيات «سليمان العيسى» الشعرية السبع:

١ ـ النهر.

٢ ـ قنبلة وجسد.

٣ ـ الأطفال يحملون الراية

٤ ـ الشجرة.

٥ ـ البطاقة.

٦ ـ الغربان.

٧ ـ القطار الأخضر.

تمتزج الغنائية المعززة بالإيقاع الشعري، بالرمز الغريب، فتوفر للنص إمكانات فنية لصقل الذوق وإرهاف الإحساس و«الانقرائية» التي تسمح بالحفظ السريع للنص، وتساعد على تمثل جمال اللغة العربية وسحرها.

من قلب الأرض

يهزُّ الأرضَ

يشقُّ الأرض نداءْ

لبينا الصوت

قهرنا الموت

وصحونا الآن

مشينا الآن

طلعنا جيل فداء

وتلخِّص الدكتورة «ملكة أبيض» السمات التربوية في نتاج الشاعر «سليمان العيسى» خلال المزج بين الجانبين العملي والنظري في نتاجه. لكن السمة الواضحة هي ربطه بين أهداف التربية والهدف القومي الذي يتلخّص بالدعوة إلى الوحدة والتقدم الحضاري في محاربة التخلف، وربط حاضر الأمة المظلم بماضيها المشرق، من خلال التراث والانتماء إليه.. يقول: (العروبة التي غنيتها وما زلت نسيج حضاري هائل ضارب في أغوار التاريخ، تشابكت فيه ملايين الأصول والفروع).

والدعوة إلى تجديد التراث باختيار جوانبه الحية، واستبعاد ما علق فيه من عوائق، والتركيز على الطابع الإنساني، وتهيئة السبيل للأجيال للإبداع والإنتاج بحكم أنها ثروة الأمة وطاقاتها.

وتنمية شخصية الطفل بامتلاك الوعي وتحمل المسؤولية، وتوفير جو من الحرية للناشئ، كشرط ضروري لكل إبداع.

من هذا المنطلق يعيد «سليمان العيسى» كتابة بعض الوقائع التاريخية مبرزاً غنى دلالاتها الوطنية والقومية، كما في مسرحياته للكبار:

١ ـ الإزار الجريح.

٢ ـ أبو محجن الثقفي.

٣ ـ ميسون.

٤ ـ إنسان.

ويعرِّف الأجيال بأعلام التراث المبدعين كالمعري والمتنبي وبمناضليها المضحين مثل: جميلة بوحيرد والفدائي الشهيد عرفان عبد الله في «قنبلة وجسد».

* * *

وتتناوله المؤلفة «ملكة» في وقفاتها خلال الفصول الأخيرة، تجربة الشاعر التطويرية، ونتاجه الشعري في السنوات العشر الأخيرة بعد مغادرته دمشق إلى «اليمن»، واستقراره فيها عقداً ونيفاً من الزمن. ومن حظ «سليمان» أن له رصيدًا جماهيريًا عريضًا في كل بلد يحل به، وهو أمر يشجعه دائمًا على العطاء والتواصل مع جمهوره العربي.

ترك «سليمان العيسى» دمشق، وكانت موجة الشعر الحديث تطغى على النتاج الشعري، وتزحم الشعر الاتباعي، وهي موجة لم تكتف بتحويل بنية النص الشعري التقليدي إلى شعر تفعيلة، بل تجاوزت هذا التعديل الشكلي إلى بنية نص شعري يقوم على تعطيل وظيفة اللغة في الإيصال أو

العبث بدورها ومبادئها المصطلح عليها إلى ضروب من الانزياحات اللغوية والغموض والهلوسات. ولم ينجرف الشاعر «سليمان» وراء هذا التجديد العابث ـ كما تقول زوجته ملكة ـ بل ظلَّ وفيًّا لتقاليد الشعر الموروثة، ملتزمًا سلامة اللغة ووظائفها وعلاقاتها البنيوية، يحرص عليها إلى حد أنه لا يقدم نصَّه الشعري إلاَّ مضبوطًا بالشكل، وهو في صوره لا يجنح إلى التعقيد والغموض، وإن كان يترك للقارئ فرصة للمشاركة. على أنه في ديوانه «الشلالات» الذي كان آخر ما صدر من أعماله في اليمن، يتجاوز الغنائية والخطابية اللتين يتصف بهما شعر مرحلة شبابه، حيث بدا ضارباً في العمق والتأمل، محلِّقًا في الصور المبدعة، وهو يسمي قصائده في تلك المرحلة نبضات بكرًا جديدة يحاول فيها أن يتحدى الموت والفناء.. موت رؤاه، وخوفه من موت شعره:

أنت يا موت الرؤى

كلُّ الرؤى الخضر، وموتي

أترانا نتخطَّاك

بهذي النبضة البكر

الجديدةْ

أيكون المنقذ الآتي

قصيدةْ

* * *

تقول الدكتورة «ملكة أبيض»: **«في الشمالات لا يستعيد «سليمان العيسى» نفسه، بل ينفتح على عوالم جديدة، هي ثمرة تجربة حياتية جديدة، غذَّاها المقيل في اليمن، حيث تتلاقح الإبداعات فتخرج وهي أغنى وأكمل، وفي «ديوان اليمن» تتفجَّر موهبته برؤى مبتكرة وأساليب في التناول يجسد من خلالها تاريخ الأمة عبر تاريخ اليمن، ووقائعه وأساطيره الرافدة، كأسطورة وضَّاح اليمن..».**

إنها قراءة جديدة لهذا التاريخ، يلمس من خلالها عظمة الأمة التي أنجبت الحضارة اليمنية، ومآسي شعبه المستنزف عبر التاريخ. يقول مخاطبًا الأديب الشاعر عبد العزيز المقالح ردّاً على رسالة شعرية وجهها إليه:

أنا وأنت

وملايين اليتامى مثلنا

نظل صوت الغيم

صوت المطر المذبوح

صوت الحلم العنيد

وليأكل الضباب

هذا الزمن البائس

لن يطفئنا

لن يطفئ النشيد

وفي دراسة أخيرة تفردها الدكتورة «ملكة أبيض» عن «سليمان العيسى» مبدعًا، تستحضر جملة من الدراسات النفسية التي تعرِّف عملية الإبداع، وتحدد سمات المبدع وتطبقها على إبداع الشاعر سليمان وسمات الإبداع لديه، من خلال نشاطه الإبداعي، وسلوكه الإنساني، ومنها تواتر فترات النشاط الإبداعي وخموده، والطيبة التي تصل حد البراءة أو السذاجة، والاهتمام بمجالات محددة كالثقافة، والمراوحة بين الانبساط والانطواء، والتواضع والغلو في الاعتزاز بالموهبة والذات.. والتفرد بسلوك خاص يغاير فيه المألوف، والطاقة على العمل الفني.

إن توافر تلك الصفات في إنسان، لا تعني حكمًا أنه مبدع، وإن كانت سمات تشير إلى الموهبة التي لها دور لا يجحد، على أن الموهبة وحدها لا تكفي إذا لم تتوافر لها الشروط الملائمة لتفتُّحها، فالإبداع كما يقول «ديهامل» ثلاثة أرباعه جهد ومتابعة، وقد توافرت تلك الظروف للشاعر «سليمان العيسى» في بيت أسرته ثم في حياته العائلية الخاصة حيث الجو الثقافي السائد والمتابعة، وتوافق الميول، والانفتاح والتوافق الذي يصحبه الهدوء والتفرغ.

* * *

لا أرى إن كانت زوجة عربية قبل الدكتورة «ملكة أبيض» سبقتها في الكتابة عن تجربة زوجها الأديب أو الشاعر أو الفنان، وأعتقد أن «ملكة» هي الرائدة في هذا المجال، وقد شقت بذلك درباً من دروب تعزيز دور المرأة في حياة قرينها المبدع، وأثرها في تيسير تحقيق رسالته الشعرية، خاصة إذا كانت مبدعة مثله، فهي تقدم خدمة للأمة تتجاوز أهدافها الأسرية، لأن عطاء الأديب في نهاية المطاف هو عطاء للأمة وكسب لها.

سليمان العيسى ثمانون عامًا من الحلم والأمل

حظي الشاعر «سليمان العيسى» باهتمام الدارسين، بعد ظهوره على الساحة الأدبية، وإن كان ذلك الاهتمام جاء متأخرًا نسبيًا، فقد بدأ في إطار الكتب النقدية العامة التي تتناول الحركة الأدبية في عصرنا، أو الشعر القومي، إذ عُدَّ الشاعر رائدًا بارزًا من روّاد هذا الشعر وأعلامه، ثم حظي باهتمام في إطار الدراسات الأكاديمية الجامعية، فأُعدت حول نتاجه رسائل جامعية متعددة. على أن الكتاب الذي صدر بعنوان: [سليمان العيسى، ثمانون عامًا من الحلم والأمل](*). لم يحوِ بين دفتيه سوى الدراسات النقدية إضافة إلى دراسات تقويمية انطباعية أو ذاتية، تعكس وجهة نظر بعض الأدباء في نتاج الشاعر، أو تضيء جوانب من إبداعه وشخصيته الأدبية.

ففي دراسة بعنوان «**الأمل يغادر أسواره**» يرى الدكتور إبراهيم الجرادي، أن «سليمان العيسى» يمثل جيلاً ثائرًا طلع من وجع المأساة، ونمّى وعيه القلق على قيم مشروعة تعارض القائم الاجتماعي والفني، ويُعدّ واحدًا من رواد القصيدة العربية المعاصرة.

عالمه الشعري شديد الثراء، متعدد الآفاق، أمضى في تشييده ستين عامًا في فترة التحولات الرائعة، والانتكاسات المؤسية للشعب العربي،

(*) سليمان العيسى ثمانون عاماً من الحلم والأمل.. بإشراف: د.عبد العزيز المقالح، تحرير وتقديم: د.إبراهيم الجرادي، منشورات «الرائي» في ٤١٥ صفحة من القطع الوسط.

فكان شاهد عدل على هذه التحولات والمآسي التي استهدفت أمته مثلما استهدفته، فأخرجته من بيته في اللواء السليب دون أن تنتزع منه إيمانه بأمته وتفاؤله بمستقبلها. ويُصنّف «سليمان» عادة تحت المدرسة الاتباعية الجديدة، وهي مدرسة التزمت تقاليد الشعر العربي الموروث، لكنها جددت في مضامينه وفي طرائق التعبير الشعري، فجعلته أقرب إلى تمثيل المشاعر والفكر المعاصر حيث يتعاضد النص مع تطلعات حامله المعاصرة، الأمر الذي يعكس استقلالية تجربة الشاعر في إطار ظروف زمنها الاجتماعي والفني، إن انحيازه إلى الموروث يعلل اعترافه بقيمته الجمالية التي تراكمت عبر الأحقاب، فلا يصح تجاهلها، لكنه يُقيم تواشجًا بين الأصالة والمعاصرة باستيعاب واع لمستجدات الحياة الراهنة، خلال منظور العلاقة بين الفن والحياة، يلائم سنة التطور، ويشي بالروافد الجديدة، ثم يحدد الباحث «الجرادي» سمات شعر الشاعر «سليمان العيسى» البارزة بنزوعه القومي الإنساني الذي كان استجابة للوقائع العربية تتجاوز الحدود الإقليمية أو القطرية الضيقة.

والقومية في شعر «سليمان» ليست تعاليًا يلغي الآخر، إنها تعبير عن وجود إنساني مهدد، فالعروبة عنده «نسيج حضاري هائل ضارب في أغوار التاريخ، تشابكت فيه ملايين الأصول والفروع، لتعطي الإنسان أكرم ما أعطاه شعب على وجه الأرض».

والسمة الثانية لشعره هي الرمز أو الصورة الرامزة، يستغلهما الشاعر للهدف القومي باستدعاءات تاريخية وتراثية زمانية ومكانية من خلال اللفظ أو المفردة والجملة والواقعة مما يثير فيضًا من المشاعر الوجدانية لدى

القارئ، فالمجازي عنده في خدمة الوجدان لأن المجاز إذا لم يكن في خدمة الشعور، فهو محض عبث فارغ. والسمة الثالثة: أن لغة الشعر عند «سليمان العيسى» هي لغة الحياة، فهي أداة توصيل لا بدَّ من احترام وظيفتها التوصيلية، على نقيض الدعوات التي ترى قيمتها بالخروج عن وظيفتها الاصطلاحية وانزياحاتها. إنها تظل عنده وسيلة لغاية أبعد منها، هي الرسالة الشعرية التي يجب أن تكون واضحة ومفهومة ومحددة، غير أن الشاعر يحترم الشروط الفنية للغة الشعر التي تتميز من لغة النثر. إذ لابدَّ أن تكون موسومة بجمالية تنبع من حسن اختيار المفردة والتأليف بين الكلمات في سياق الجملة الشعرية واختيار المجاز اختيارًا عفويًا يخدم جمالية النص، دون إخلال برسالة الشعر وتوصيلها، فاللغة عنده تستمد جماليتها من تعبيرها عن طاقة الحياة لا من المعجمات وبطون الكتب.

وعن شعر «سليمان العيسى» للأطفال، يرى د.إبراهيم الجرادي أنه جاء استجابة لحاجة الأمة بعد نكسة حزيران ١٩٦٧م، التي خلخلت القيم والقناعات، وإنقاذًا للجيل مما كان يقدم له من شعر تثقله الغثاثة والتكلف والمباشرة، ويُرهق كواهل الصغار بالمحظورات والمرغوبات دون أن يستجيب لطاقاتهم المتفتحة، وخيالهم المحلّق، هو شعر يحرص على رشاقة الإيقاع والصورة الشعرية التي تحمل رموزًا تأريخية، واللغة البسيطة الموحية، والتجريدية المحببة التي تصقل ذوق الطفل، وتمدّه بزاد من الخيال.

ويتناول الباحث «الجرادي» شعر «سليمان» الضاحك أو الهازل من خلال ما قدّم في جريدة «الكلب» مع زميله الراحل «صدقي اسماعيل»، وما كتبه من مقطوعات ساخرة في ديوانه «الضاحك» فرضتها شؤون الحياة،

وأملاها ميله إلى مواجهة تحديات الواقع المرة بالسخرية، وهو يرى أن شعر «سليمان» الضاحك أقرب إلى الهزل منه إلى الفكاهة أو التهكم أو الهجاء الجارح الذي يتناقض وطبيعة الشاعر المترفعة، وهو يعمد إلى المبالغة والنزعة الكاريكاتيرية التضخيمية في تصوير الصغائر، ووراء ذلك كله أسًى وحزن دفين يغذي هزله كالصورة التي رسم بها ضعف بصر صديقه «صدقي» وكان يشاركه ضعف البصر أيضًا. يقول صدقي:

أعـشى يظـن الكـؤوس الخمـس واحـدة

وبالجـــدار إذا مـــا ســـار يـــرتطمُ

فيجيبه سليمان:

زعمـــت أني أعـــشى لا أرى أحــــدًا

وأنــت في الليلــة اللـــيلاء تحتطـــبُ؟

إن غـــاب عنـــيَ إعـــلانٌ عـــلى نُـــصُبٍ

يغيـبُ عـن عينـكَ الإعـلانُ والنُّـصُبُ

وتحت عنوان «سليمان العيسى وجائزة القرن العشرين»، كتب الدكتور عبد العزيز المقالح عن تكريم «سليمان» ومنحه الجائزة التقديرية «جائزة البابطين»، فقال: «أخيرًا تذكروه وهو ملء السمع والبصر، وشكرًا لهم لأنهم تذكروه بعد ستين عامًا من النضال بالكلمة الشجاعة الجميلة».

ويرى الدكتور المقالح أن «سليمان العيسى» قد نجح منذ البدايات في إحداث توازن دقيق بين الموضوعات وطبيعة الشعر، فالمفردة في قصيدته جزء من الموسيقا، والصورة جزء من الدلالة، وهو يقف متوسطًا بين من

يرون الشعر وسيلة لإيصال الأفكار، ومن يرونه لغة وأساليب فنية، مثلما يقف وسطًا بين مَنْ يحاولون هدم القصيدة التقليدية في تجديدهم، ومن يتشبثون بها صيغة نهائية لا تقبل التعديل، فكان شعره تمردًا على القيود دون أن يكون ثورة جارفة تستهين بالموروث. وكان المدّ الشعري لسليمان في مرحلة المدّ الثوري للأمة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، فكان صوته الحادي لذلك المدّ، والمعبّر عن تراجعه المأساوي دون أن يفقد الأمل بمستقبل الأمة، وهذا الإيمان بالحياة والتفاؤل في قلب المحن لا يملكه إلاَّ صاحب نفس صافية بعيدة الغور، نافذة النظرة بحضورها المتكامل وتجلياتها المشعّة المؤمنة بالغد المأمول:

اذكـــــــروا أنّي كالأطفـــــــال غنيـــــــتُ

وطـــــــاردتُ الفراشـــــــاتِ طـــــــويلاً

وتـــــــسلقتُ الـــــــشجر

وقطفتُ التينَ والرمان من بستان جدي والقمر

كـــــان جـــدي عاشـــقًا للقمـــح والرمـــان

والأرض التـــــي تعطـــــي الثمـــــر

* * *

اذكـــــــروا أني وإياهـــــــا نـــــــسجنا

مـــــــثلما شـــــــاء الهـــــــوى أيامنـــــــا

وزرعنـــــا خلـــف أســـوار الـــدجى أحلامنـــا

وجعلنـــــا الحـــــب قنـــــديل خطانـــــا

وسُرانا..

وقنعنا بالحكايات التي يخضَرُّ فيهن السَّمَرْ

* * *

وفي دراسة أخرى بعنوان: [سليمان العيسى وأغاني المهد]، يتناول د.عبد العزيز المقالح بدراسته ما كتبه الشاعر عن «اليمن»، فيرى أن الخطاب الشعري كعلامة ومؤشر للوعي القومي، قد يكون أجدى في استخلاص هذه المقومات من الدراسات النظرية، والمبادئ العقلانية، لأن الشعر يجسّد بواعث النزوع الوجودي من خلال اللغة الوجدانية التي تخاطب مشاعر الناس قبل عقولهم، وإقامة علاقة حميمة معهم، فهو أقدر على التأثير فيهم من لغة العقل ومخاطبة العقول، ويعلل صمود الشعر وديمومته في عصرنا عصر العلم والتقنية، وتفوّقه على الأنواع الأخرى كالرواية والقصة القصيرة.

والخطاب الشعري لدى «سليمان العيسى» في «أغاني المهد» تعبير عن مشاعر مشتركة بين الشاعر وجمهوره من أبناء اليمن، تنطلق من الإحساس بالانتماء والهوية، إذ وجد الشاعر في اليمن جذوره وانتماءه العربي إليها كمتحدر من سلالة يمنية عريقة هم الغساسنة، فرجوعه إلى اليمن هو رجوع إلى طفولته وجذوره إلى حضن أمه وأغانيها في المهد. هو الارتداد إلى الطفولة، ليعلل على أنه هروب من الواقع المؤسي، ورحلة رومانسية إلى يوتوبيا تسودها السعادة والسلام، إنه سفر الباحث عن طريق الخلاص أو الهرب الرومانسي إلى الحلم.

لم يكن اليمن هذه اليوتوبيا المتمناة، فهي لا تفترق في معاناتها الراهنة عن البلدان العربية، لكن الشاعر يستحضرها كواحة لحلمه الطفلي الذي

خاب، ولكنه مازال يبني عليه أمل التحقق، وسرعان ما يطل الشاعر «سليمان» بعين الواقع على اليمن. لا كمدرج لمهده الأول بل كحقيقة تُعاش، حقيقة تشوّه عليه صورة الحلم الجميل، إلاَّ أنه يجهد أن يرتقي به، ويحرره من تشوهاته على أمل أن يراه مهدًا جميلاً وبريئًا للطفولة المفقودة. إن رحلة الشاعر إلى «صنعاء» كما يقول «المقالح» ـ قد وضعته بين مهدين: خاص وعام، اليمن الحلم الذي يتمثل بحكاياته وأساطيره وأحلامه، والتي حاول «سليمان» أن يستغل رموزها لخلق يمنٍ واعدٍ يتجاوز الحاضر، فجعل من «وضاح اليمن» رمزًا لليمن الموؤود أو الحلم المضيّع، وبشَّر بأن هذا الرمز سيبعث من صندوقه كما يبعث اليمن من معاناته. وقابل الشاعر في قصيدة بين ثنائيات تمثّل جدلية الموت والحياة، وعبّر عن المستقبل الواعد باستخدام أفعال مضارعة متوالية:

يُقال: تفجَّر الصندوق يا وضَّاح فاليمنُ

تجرُّ وراءها الكفن العتيق، فيسقط الكفنُ

وتبحث عن خيوط الشمس

حيث تَحَجَّر الزمنُ

فتنهار العصور، ويستفيق السفح والقننُ

وتنهض من رماد الموت تحمل نارنا بيد

وتاريخ الظما بيدِ

* * *

أو يستخدم سين التسويف التي تعبّر عن آفاق مستقبلية:

ســـــــــتولد، تولـــــــــد الطـــــــرق

ســـــــــــــتولد وحـــــــــــــدةً،

ســـــــنعودُ يـــــا صـــــنعاء، يـــــا عـــــدنُ

ويحاول الشاعر أن يقيم روابط وجذوراً بينه وبين «وضاح اليمن» لتماثل الهدف والرسالة، وتشابه الوسيلة والإلهام، فوضاح اليمن رمز للأمة المقبورة سيبعث يومًا أو ستبعث مُثُل الشاعر «سليمان» خلفه في عصرنا المستهدف والمدفون في ركام تخلف الأمة، لكنه سينتصر أخيرًا. وإذا كان رحيله وهربه من الواقع اليوم إلى الطفولة والأطفال بعالمهما النقي والبريء، فإن رحلته ليست إلاَّ محاولة لبعث «يمنٍ» جديد يكون على أيديهم:

مـــاذا مـــن الـــشهقة الحمـــراء أختـــزنُ؟

أمـــشي وتنـــأَيْن يـــا صـــنعاء يـــا عـــدنُ

تَقَـــصَّفَ العمـــر في جفنـــي وفي شـــفتي

ومـــا تـــزال وراء الدمعـــة الـــيمنُ

لَنَنْفُـــضَنَّ تـــراب القـــبر عـــن شـــفقٍ

للهامـــدين يغطّـــي الأرض يـــا يمـــنُ

ويخلق الشاعر إلى جانب ثنائيات الموت والحياة، ثنائية شكلية، تراوح بين النظم التقليدي وشعر التفعيلة، تستجيب لرغبته في كسر الواقع وتغييره من خلال تحطيم الشكل الشعري التقليدي وتبديله، وفي ذلك اضطراب وتشويش يعكس اضطراب الواقع وتشويشه مقابل صفاء الحلم الموعود أو

الماضي الجميل، كما يتبدى للشاعر حين يرى صنعاء المهد، رمزًا لكل ماهو عظيم وجميل، فهي ابنة الأسطورة الأولى ولغز الزمان وسليلة أغاني المهد.. التي يرسمها بغنائية عذبة.

ديوان «أغاني المهد» [يشكل علامة بارزة في واقع الشعر العربي المعاصر]. ويمكن أن تضيف: إن شعر «سليمان العيسى» في اليمن يمثل قمة تجديده الشعري مضمونًا وشكلاً وأسلوب تناولٍ، وهو محاولة من الشاعر لبعث فني حرر فيه نفسه من نمطية طويلة لازمت شعره قبل هذه المغامرة.

* * *

وفي خاطرة موجزة يتحدث عبد العزيز بن سعود البابطين عن «سليمان العيسى» فيرى أنه من أطول الشعراء المعاصرين استمرارًا في العطاء الشعري، ويؤكد التماثل بين شخصية «سليمان» وشعره عبر تعريفه، فشعره كشخصيته يعكس التواضع والشموخ.

ثم يستعرض الملامح العربية في شعره، فيردها إلى تحريضه الجماهير للنضال، والدعوة إلى الوحدة وتجسيده الواقع العربي المتردي وصلابة الموقف القومي، واستغلال المواقف التاريخية المشرقة لبعث الأمة من مرقدها، وإعداد الأجيال لرسالة الكفاح القومي والإيمان بمستقبلهم وقدراتهم، فهو يرى فيهم جيش المستقبل للتحرير إذا أُحسن توجيههم وتوعيتهم.

وعن نهجه الشعري يقول البابطين: «مع الوضوح الشعري الشفيف الذي يميّز شعر «سليمان العيسى» تتراكب كل سمات الشعر الجماهيري الخطابية، «العاطفة المسرفة، المبالغة».

ويسوّغ منح الشاعر جائزة مؤسسته الشعرية فيقول: «وهي إذ تكرم بشخصه سمو الفن الشعري المتعانق مع طهارة المبدأ، فإنما تكرم نفسها وتكرم كل الشعراء الذين أخلصوا للشعر والأمة.»

*   *   *

وتتناول الدكتورة «كافية رمضان» في دراستها: «الفن الشعري والطفل عند سليمان العيسى»، فتقول عن موسيقا شعر الأطفال لديه:

«وكأني بالشعر يكتب موسيقاه بالكلمة ذات البعد الموسيقي بالنوطة التي يكتب بها المؤلفون موسيقاهم، والأغنية عند «سليمان العيسى» نظام دقيق كنظام الكون، والخلية في الجسم، إذ حرص الشاعر أن تتوافر في أناشيده للصغار اللفظة الرشيقة الموحية والصورة الشعرية الجميلة والوزن الموسيقي الخفيف»

وتعرّج الباحثة «كافية» على دراسة خصائص شعر الأطفال لديه من حيث الوزن الخارجي والموسيقا الداخلية، واختيار البحور الخفيفة المرقصة أو المجزوءة. وخصائص شعر التفعيلة للأطفال ألصق بذاكرة الطفل وأكثر تحررًا من الرتابة، والتنوع في قوافي الأشطر الشعرية، وعقد مقابلات مختلفة بين حروف الروي أو توالي حرف معين يسيطر على الإيقاع، ثم إقامة التبادل الإيقاعي بين البيت التقليدي والتفعيلة في إطار المقطع الشعري الرباعي أو الخماسي، والصور المركبة التي تمنح ظلالها الموحية للطفل أكثر مما تنقل معنى مباشرًا، يستمدها من الطبيعة وهي منهل إحساسه جبالاً ووديانًا وعصافير وشجرًا ونورًا متألقًا، وهي تتنوع بين التشبيه والاستعارة والكناية، وتتألق باختيار كلماتها من بحر ثقافة الشاعر اللغوية وإحساسه

العميق بأسرارها، ومسمياتها المختارة، وللون نصيب متميز في شعر الطفل، ولعل أبرز الألوان الأخضر والأسمر، لكن اللون يتجاوز حدوده في الواقع إلى المجردات، حيث يصبح الحلم أخضر، والنغم أخضر والسكون أسمر، وللشاعر أساليب متنوعة في تقديم النشيد فهو يراوح بين السرد بلسان الشاعر أو المتكلم والحوار والحكاية..

* * *

وفي خاطرة بعنوان: «سليمان العيسى اللهب الشاعر» يتطرق الأديب أحمد جابر عفيف لبدء صلته بالشاعر منذ أربعين عامًا فيقول: «قُدر لي أن أتعرف على شاعرنا الذي كان أكثر شعراء تلك الفترة تعبيراً عن الأمة، وصدقًا معها وانفعالاً بآمالها وأحلامها وأحزانها، وبهرتني قدرته على إلهاب المشاعر وتحريك أحاسيس الناس بحماسة غير عادية».

* * *

ويتحدث الدكتور شاكر خصباك عن «سليمان العيسى» الإنسان... من خلال معرفته الحميمة به، ويستغرب تحول الشاعر في شيخوخته من دمشق إلى صنعاء، ثم يزول تساؤله عندما احتك بالشاعر، ولمس في روحه بساطة وطيبة وتواضعاً، فهو يجنح إلى أدنى شروط الحياة في المأكل والملبس والمشرب، ولو أراد أن يتاجر بشعره ويتزلّف لكان له مال ومُلك، لكنه آثر أن يظلّ وفيًا لمبادئه، قانعاً بمطامح محدودة في العيش، وفضاء مريح يوفر له نظم شعره، ثم الإشراف على طبعه وتنقيحه ونشره للناس. إنه مازال إلى اليوم يتلقى كل عمل من أعماله يخرج للنور باللهفة والسرور اللذين كان

يتلقى بها ديوانه الأول. بهذه الشروط الحياتية يشعر عارفوه أنهم أمام شخصية متسامية تنشر دفءها الإنساني أينما كانت.

* * *

ويحلل الدكتور «عبد الإله الصائغ» دلالات قصيدة سليمان:

«خذي شفتي يا دار» وفيها يستعيد ذكرياته وحنينه إلى معهد دار المعلمين العالية ببغداد، فيضعها في سبع لوحات متتالية، فيمهد مدخلها الاستهلالي لفكّ مغالق صور النص اللاحقة، ويكون ختاماً لمحاولته الإبداعية، على صورة استدارة تجمع بين البداية والختام عبر تماهٍ بين الحقيقة والمجاز، يستلهم فيها المقدمات الطللية القديمة:

خـــذي شـــفتي يـــا دار وَلْيركـــعِ الحـــبُّ
يـــسلم عنـــد البـــاب بالدمعـــة الهُـــدْبُ

ويتحول الحنين إلى دار المعلمين في النص إلى حنين للعروبة كلها، وقد اختار القافية البائية لغايات دلالية توحي بالانفجار الذي تعقبه راحة نفسية، ويتحول الشاعر من الدار إلى بغداد فيخصها بمقطع من النص، يُعمق إحساسه بالفجيعة. إن خروجه من الدار إلى بغداد تمثيل لخروجه من عهد حماسته إلى واقع الحياة الذي صدمه.

فمدينة بغداد تملك ملامح الماضي والحاضر، ويتحول بعد ذلك الحديث عن أناه باستدارة صوفية دلالية يتخللها زهو المبدع وتركيزه على دوره في الحياة، غير أن دوره لم يقوَ على الصمود في مواجهة رحيل الحلم وتحطمه، رحيله عن اللواء السليب وفلسطين والأندلس، فهو يواجه الخيبة

ويبادر إلى حضن يحميه كحضن الحبيبة في بغداد، أو حضن الدار التي درس فيها، وترعرع حلمه على جنباتها.

إن الشاعر «سليمان العيسى» يبحث عن فردوسه الضائع فاراً من مكان إلى آخر، يعود إلى حضن أمه التي يراها في كل ماضيه ببغداد كطفل انفرطت أغانيه، لكنه الحلم يبقى قادراً على صنع المعجزة.

* * *

وللشهادة التي أعدها الشاعر رشاد أبو شاور خصوصية، لأنها شهادة قدمها على صورة خاطرة أدبية فكهة رائعة الأسلوب، واستهلها بقوله: «توعدته منذ سنوات بأن أقاضيه لما فعله بجيلنا.. قلت له مراراً: كُفَّ عن مواصلة ما تقترفه كلماتك وأشعارك والأغاني والأناشيد التي تكتبها للأجيال بعدنا. يكفي ما فعلته بنا. لكنه ظلَّ لا يهيم في الوديان أو يبحث عن الجن في وادي عبقر، بل يركض من بلد إلى بلد ومن جبل إلى جبل، ويلقي على الشطآن بمناديله مالئاً دنيا العرب بالأحلام. ويلتقيه مرة في تونس فيسأله: ماذا جاء بك إلى تونس الخضراء؟؟ فيبتسم الشاعر ويجيبه: مازلت فتى.. أحب بلادي وستراني في كل مكان منها.. يا بني أنا روح طافح بالحلم ولست شاعرًا ينظم قصيدة».

ويضيف أبو شاور: بعد كارثة حزيران ١٩٦٧م، لم يعلن سليمان يأسه، لكنه نفض يديه من جيل راهن عليه.. حمل أحلامه، يحدب على الغراس العربية الطالعة.. وغنى لأطفال الحجارة في فلسطين مثلما حملها يوماً وهو طفل حين كان في اللواء.

* * *

ويتوقف الشاعر عارف الخاجة عند ثمالات «سليمان العيسى» الأخيرة فيقول على لسان صديقه الشاعر:

أَعِنّي فإن فمي زهرة

وأنت الرحيق

أنا القادم الآن.. إني

أنا المضرم النار.. إني

أنا الشاعر الحق

اسمي سليمان

عمري سنة

أقول قرون

أنا أرسم الفجر.. دعني

أكون.. فأنتم تكونون

أو.. لا أكون

* * *

ثم يتوقف عند قول الشاعر بعد تجربة شعرية أثمرت خمسين عاماً: هل قلتُ شعرًا؟ فيؤكد أن سليمان هو الشاعر الوحيد الذي ربط الكلمة بالسلوك والموقف النزيه، بعد أن أمست سلعة للمتاجرة والمديح الزائف، ثم يضيف مخاطبًا الشاعر: «نعم يا سيدي أنت شاعر.. وأنت جميل بمقدار ما زرعت في وطنك الكبير وفي أمتك من جمال..».

* * *

وتستعرض الأديبة قمر كيلاني حرص الشاعر على سلامة اللغة العربية وجهوده في إنشاء اتحاد الكتاب العرب ومشاركاته النضالية في العمل القومي على صعيد إنساني وشعري، وسماحته مع أقرانه الأدباء ومساهماته مع زوجته في نقل روائع أدب الأطفال العالمي إلى العربية ولاسيما ما كتبه أدباء الجزائر بالفرنسية، وإيمانه بالانفتاح على الثقافات، ولقاء الحضارات بلا تزمت أو ذوبان فيها.. ووفاءه لأصدقائه ومعارفه، وتختم دراستها بالحديث عن الملمح القومي في شعره، وأدب الأطفال الذي وجهه لتعريف الأجيال بتراث الأمة وأعلامها المبدعين.

* * *

ويكتب الدكتور خليفة الوقيان عن «سليمان العيسى» فيقول: «لم يكن سليمان الشاعر المتفرد في ساحة الشعر القومي خلال الستينيات، لكنه كان يحمل سحرًا خاصًا، وقدرة فائقة على التسلل لقلوب الشباب.. ولأنه صادق مع نفسه ورسالته، لم يكن يخطب ود المنابر الإعلامية أو يحفل بمسايرة الصراعات الفنية المسرفة في التغريب والتجريب، فذلك قد يفضي إلى تقليص حجم القاعدة التي يتواصل معها..».

ثم يتحدث عن إسهامات الشاعر الثقافية والأدبية ومنها اشتراكه في إصدار موسوعة الطفل العربية، ومشاركته في المؤتمرات الأدبية والعربية.

* * *

ويتحدث الدكتور عماد زكي عن سليمان شاعر الطفولة والبطولة فيقول: «سليمان العيسى الذي غنى للكبار أغاني البطولة والمجد والعنفوان العربي الثائر ينحني اليوم بقامته الشعرية العالية ليهمس للبراعم العربية

الصغيرة بأعذب الألحان.. ويزرع في جوانحها نور الأمل الواعد... هبطنا إلى القاع حين تخلينا عن قيم حضارتنا الروحية والفكرية والإنسانية وتركنا أطفالنا ضحية لثقافة ـ بباي وغرانديزر والسيدة ملعقة ـ».

ويضيف: «إن سليمان العيسى وهو يعيد إنتاج أفراح الطفولة، ويبحث عن صورها الزاهية في ذاكرة مجرب يقف على هم السنين ويستخرج منها ألحاناً متفائلة، إنما يغني للمستقبل الذي سيصنعه الأطفال».

* * *

ويرى الدكتور علي جعفر العلاّق أن القصيدة عند سليمان فعل إنساني ينضح بالوعي والشفافية واللغة الجياشة بالأمل والغضب، ويضيف العلاق: إن ألفة الإنسان للمكان لا تأتي عبثًا، بل هي نتيجة رغبته الدائمة وميله الغريزي إلى الانتماء، أما المبدع فهو أكبر من الزمان والمكان.. والشاعر سليمان العيسى لم يكن حكرًا على مكان بعينه.. كانت حياته وشعره موزعة على بلاد العرب جميعها. هو جزء من هواء العرب وإرادتهم التي لا تقهر، وما يشدنا إلى شعره تشبثه بماضي الأمة ومستقبلها، وارتباطه بالسلف من الشعراء العرب القدامى، واستلهامهم، ومن ينظر إلى ديوانه «ثمالات» يدرك مدى حرصه على هذا التيار الذي يربط الماضي بالحاضر ويستدرج قوة الماضي الروحية لفهم الحاضر.

ويسلط الدكتور عبد العلي الجسماني الضوء على بعض الظواهر النفسية في شعر «سليمان العيسى»، ومنها أن شعره مطبوع ترفده الموهبة الشعرية الفطرية، فليس في شخصيته التواء أو إبهام ولا غموض يقوده إلى التعقيد، فصفاء شعره من صفاء روحه، وتماسك الأنا عنده بالنحن

والتصاقها به، فكان شعره امتحانًا لوجدانه الذي يملي عليه الموقف والتماسًا للقيم وانفتاحًا على الكون بأسره، وتفردًا إنسانيًا، وشعره لا يمنح القارئ حلاوة التلذذ من القراءة الأولى، لكنه يفجرها في قراءات لاحقة تدفع به إلى المشاركة في الإبداع والخلق.

* * *

ويتابع الدكتور صالح الألوسي في دراسة صريحة ممارسات ذلك الجيل من الكبار الذي يئس منه الشاعر سليمان على صعيد التخبط في الممارسات السياسية والولاءات المريبة، ويصور بصدق تخبطه وجيله بين مُثل بعيدة تلقنها وجيله من الشاعر، وممارسات توصف بالواقعية لم تجن إلاَّ الخيبة، ثم أدت إلى أن ينهار ذلك الجدار السميك بينه وبين رؤى الشاعر، ويسلم بأنه الوحيد الذي جهر بالحقيقة، لكنه حورب حتى على صعيد المناهج الرسمية التي تبنت شعره للأطفال عبر مخطط موحى به يستهدف طمس الشعارات التي نادى بها.

* * *

وعن «سليمان العيسى» مترجماً، يتحدث الدكتور راتب سكر عن إجادة الشاعر ثلاث لغات أجنبية، وتضافر هذا الإلمام بإتقان زوجته الدكتورة ملكة أبيض للفرنسية والإنكليزية واتصاله بأدباء الجزائر الناطقين والكاتبين بالفرنسية، وتبنيه مع زوجته ترجمة آثارهم. ومنها: الشقاء في خطر لمالك حداد، ونجمة والجثة المطوقة لكاتب ياسين، ثم ترجمة مئة قصيدة من الشعر العالمي الحديث وتسع قصص من الأدب الأمريكي بالتعاون مع زوجته وناديا الياس، ثم تعريبه للمئات من قصص الأطفال..

وقد أدرج سليمان في أغلب هذه الترجمات أناشيد تتناسب والمواقف القصصية وبالمقابل فقد ترجم أدباء أعماله إلى اللغات الأخرى، ومنها ترجمة مختارات من شعره إلى الإنكليزية وإلى الفرنسية.

* * *

ويكتب الدكتور «حاتم الصكر» عن ثمالات سليمان، فيرى فيها صفوة ما أسفرت عنه تجربته الشعرية المديدة، وهي تعبير عن سر شبابه الدائم وعشقه للحياة، وتحدّيه للشيخوخة، وتجديد مسيرته الشعرية في فضاء من حرية التعبير، وتطوير أشكاله، ويرى أنه من العسير إدراج شعر سليمان تحت أي مدرسة شعرية، وهو شعر ينتمي إلى الحلم الأكبر، إذ تذوب الذات الفردية في ذات الجماعة، وإن كان الشاعر بدا أكثر ذاتية وكشفًا لآلامه ومعاناته كمن يسير في طريقه إلى الجلجلة.

ويحلل الدكتور عبد الملك مرتاض من منظوره قصيدة: «أمشي وتنأين يا صنعاء يا عدن»، فيرى أن تكرار لفظ اليمن في النص ينهض بوظيفة سيميائية تجسد الكل في مستوى المكان والزمان، ثم لفظ «عدن» الذي يجسد الإطار الخاص للمكان. ولم ترد لفظ «عدن» في النص مصادفة، وإنما وظفت فنياً لأنها احتضنت إعلان الوحدة بين اليمنيين، والطريق في النص هو طريق الوحدة، ودرب الخلاص ويلاحظ في النص البنية الانفجارية (مشاعر الأسى المتفجر) والبنية التغييرية (تذويب كل ما يعرقل بين اليمنيين) والبنية التشخيصية (السردية) التي امتازت في النص بروعة التشكيل والتصوير، ثم البنية التفاؤلية التي تمثلت بألفاظ الشاعر التي تثير الأمل والفرح.

* * *

ويستعرض الباحث د. عبد الله أبو هيف قضايا مسرح الأطفال في سورية، وأهمها الحاجة إلى النص المسرحي المبدع الذي لم يكن متوافرًا قبل الشاعر «سليمان العيسى»، ثم يتحدث عن وجهتي النظر المتعارضتين في لغة مسرح الأطفال، ويمثل «سليمان» وجهة النظر التي تؤمن بأن يقدم للطفل شعر حقيقي، وإن قصرت مداركه عن التمثيل المضموني لبعض صور النص، فإنها تبقى زادًا له حتى يكبر، ويتناول مشكلة ملاءمة أسلوب النص وأفكاره للطفل في العرض المسرحي، حيث حمَّل كتاب المسرح الطفلي الصغار من الهموم ما يثقل كواهلهم، ومن التطلعات ما يتجاوز طفولتهم، وعن الموضوع بدا إلحاح واضح على الموضوعات القومية والوطنية مراعاة لواقع الأمة، وعلى شرف هذه الغاية فإن المسرح الطفلي عندنا لم يخل من مباشرة في التوجيه القيمي، وعلى صعيد التأليف تجاوز «سليمان العيسى» محدودية المسرح المدرسي القائم على آفاق ريادية أصيلة على الرغم من أنه جار على الطفل بتحميله همومًا ومفاهيم للكبار قد تضيق طفولته من احتمالها تحت دافع إعداده للمستقبل.

ويختم بحثه بأن مسرحيات «سليمان العيسى» للأطفال، هي عمل واحد طويل عن العروبة وتطلعات الجماهير القومية، وإن توزّعت تلك الأهداف في مسرحيات عديدة.

* * *

ويتوقف الكاتب «حسين درويش» عند الإيقاع في شعر سليمان للأطفال ففي «ثمالات» وفي كتاباته الموزونة التي تقف بين الشعر والنثر. يُستخلص من تحليل دقيق لعناصر الإيقاع في شعره، أنه تمثل جيدًا دور الوزن وأثره في الكتابة الشعرية، وتجاوز بذلك ممارسات معاصريه.

ويرى الكاتب علوان مهدي الجيلاني أربع صفات يتميز بها الشاعر هي: الشفافية المحببة، والحفظ المتميز لروائع الشعر العربي، والاعتزاز به اعتزازاً يبدو جليًا حين يلقيه، وحساسية مفرطة تجعله يهتز من أعماقه للإبداع الجميل، ثم اشتغاله بالإبداع من خلال هموم أمته التي نذر لها رسالته الشعرية.

ويتحدث د.معن العيسى نجل الشاعر عن أبيه وحياته المنزلية التي تستعيض عن الثراء المادي بالغنى الثقافي والإنساني، حتى غدا منزل الأسرة منتدًى أدبيًا له روّاده.

ويختم «معن» رأيه في والده بعبارة يرى فيها أن والده بمقدار ماكان زاهدًا وقنوعًا في حياة أسرته المادية كان شديد الطمع بأن تسترد الأمة عافيتها.

* * *

هذه جولة في رحاب النقد الأدبي الذي أفرزته سدنة النقاد حول نتاج الشاعر «سليمان العيسى»، ومع أن الجهد النقدي جاء متأخرًا بالنسبة إلى إنتاج الشاعر، استهدف التقويم أكثر مما جهد أن يقدم للشاعر إرشادات فنية أو تقنية، فبدا وكأنه أكثر تسليمًا للشاعر سليمان الظاهرة الشعرية بكمال تجربته، وليس ذلك من قبيل المحاولة، لكن من الاعتراف بشاعر متميز وضع الشعر المعاصر على حدود التجديد والحداثة المعقولة التي ننشدها، إضافة إلى إسهاماته الجدية في سد الثغرات وتلبية الاحتياجات لتغطية أبواب من الشعر أغفلها من سبقوه أو قصّروا دون تطويرها كشعر الأطفال وخاصة الأناشيد والمسرحيات الشعرية.

إن «سليمان العيسى» رائد مبدع، تدين له الأمة العربية بالجميل والعرفان، وتعترف له بالخلود.

المرأة في شعر سليمان العيسى

(هي الجمال.. في أحلى صوره..

وأبدع تجلياته..

هي نبضة الشعر الأولى

منذ كان النبضُ، وكان الشعر

هي التي وضعت الكلمة الجميلة على شفتي أول محب

فأصبح شاعرًا

هي الطفلة التي كَبِرت..

وما زالت الطفولة والأطفال سرَّها الأول

ونحن جميعًا أطفالها

هي ملهِمة ومُلهَمة.. وعاشقة ومعشوقة..

هي شريكة حياة.. ورفيقة كفاح

هي الحلم.. وهي الواقع في آن

هي القادرة على الحب، لأجل الحب

وعلى العطاء.. لأجل العطاء.

ليست ملاكًا.. ولا شيطانًا.. كما يزعمون..

إنها الأنثى.. نصف كتاب الحياة..

كم ظُلِمَت عبر التاريخ.. وكم وسعت الظلم والظالمين

دون أن تَسْأل أو تحاسب

ومن حقها الأزلي، أن تَسْأل وأن تُحاسِب

ماذا قلت لها عبر شريط العمر؟.. وماذا قالت لي..؟

سأترك هذه الصفحات تجيب

وأتمنى أن أكون قد رددت لها بعض ما منحتني،

أتمنى...).

في مختارات **(**سليمان العيسى**)** الشعرية التي بدأها بهذه المقدمة النثرية ـ الشعرية المكثفة التي آثرت أن أوردها كاملة**..**

يقدم الشاعر **(**العيسى**)** مئة وعشرين قصيدة أو مقطوعة تسجل حياته ومشاعره ومواقفه من المرأة، منذ أن كان طفلاً إلى يومنا هذا**.** تاريخ مديد يبدأ منذ عام ١٩٣١، أي حين كان في العاشرة من عمره، يوم قرزم الشعر مرورًا بشبابه حين أمست المرأة عنده صبوة وهوًى مشبوبًا، ثم عشرته لها رفيقة عمر، وأنيسة درب في الكفاح، وبعد هذا كله المرأة خارج دائرة حياته الخاصة في نماذجها المختلفة**:** صبية تطفر على دروب الضيعة، وترفع منديل عشقها في حلقات الدبكة الريفية، وقد لوحتها الشمس وتورد الخجل بحمرة أشهى من خدود التفاح، وطفلة تستقبل الحياة وتستطلع أسرارها الخفية، وتسجل معزوفة قلبها على أوتار الكمان، أو بطلة ثائرة تختم حياتها

الوردية بالشهادة، فإذا هي (ملهِمة وملهَمة، وعاشقة ومعشوقة، حلم وواقع.. إنها الأنثى نصف كتاب الحياة.. ونبضة الشعر الأولى منذ كان النبض وكان الشعر..).

لــــولا هواهــــا لم يكــــن نغمــــي يطيــــب ويعــــذب
هــــي دفــــق إلهــــامي وكــــوثريَ الــــذي لا ينــــضب

هذه النظرة المتسامية للمرأة عند الشاعر الذي رفعها إلى مستوى يتجاوز الجنس والجسد والواقع هي ثمرة نزوع روحي وإنساني رفيع المستوى، تضافرت على تكوينه سمات الطبع واتساع أفق الثقافة، والتنزه عن الماديات، والذوق الفني الرفيع الذي يسمو بميولنا ونزعاتنا، ونحن نقرأ شعر «سليمان العيسى».

والأدب العربي في نظري لونان: أدب رخيص يستجيب لأهواء القارئ الجنسية وعطشه إلى المرأة جسدًا، ويشاكل الواقع في النظر على أنها نبع لذة وارتواء.. وأدب من نوع آخر لا يرتاح إليه إلاَّ أصحاب الذوق الرفيع، الذين يطلبون من الكلمة أن تسمو بأرواحهم وأذواقهم إلى آفاق روحية صافية، وكلما ارتقت المدنية وسمت الأذواق، ارتقى أدبها وتجرد من نزعاته الحسية، فمن طلب اللون الأول من الأدب فإنه لن يجده عند «سليمان العيسى»، وإنما عليه أن يلتمسه لدى شعراء الجنس، ومن نشد سمو الروح وتصعيد الميول ورهافة الحس والذوق السامي في أدب المرأة، فليلتمسه عند سليمان وأترابه من الرومانسيين كأبي القاسم الشابي وعلي محمود طه.

وإذا كانت موجة الأدب الرخيص قد اكتسحت في عصرنا روح الأدب الصافي، لأن القارئ ابن عصره الاستهلاكي قد هبط ذوقه، ونظر إلى المرأة على أنها سلعة تباع وتشرى وأنها جسد محض ولذة مبتذلة، فإن الشاعر «سليمان العيسى» يبدو في حديثه عن المرأة وكأنه قادم من عصور سبقت عصر الاستهلاك، أو أنه يمهد لعصر جديد تحتل فيه المرأة مكانتها اللائقة بها، ويتعوّد فيه الناس عشق روحها وكيانها الأثيري، حيث يغدو جسدها الذي خلقه الله نبع جمال سبيلاً للذائذ روحية لا حصر لها، ومن هذه اللذائذ روابط الحب الإنساني الذي يكتمل فيه الرجل بالمرأة، وتكتمل المرأة بالحبيب، ويتذوقان معًا جمال الحياة بحلاوتها ومرارتها، ويوقعان سمفونيتها الرائعة.

المرأة عند «سليمان العيسى» عالم صاخب من المشاعر، وقلبها لا يسلّم مفتاحه إلاَّ لمن ينفذ إلى روحها:

هـي مثلُ شـاعرها حيـاةٌ ... باللهيـــــب مخــــــضَّبَهْ
طلعـا عـلى فجـر الـشباب: ... معـــــذَّبٌ ومعذَّبـــــه
ياحـب، مـا أنـدى لظـاك ... عـــلى القلــوب وأعذبــه
لفحاتـك الحمـراء في قلـب ... الجحـــــيم محبَّبَـــــه

وحب المرأة كبير غني، لا فرق في ذلك بين طفلها، وعاشقها حين تحتويك بين ذراعيها فتستسلم كالطفل لحنانها الواسع الذي يحتوي العالم وما فيه:

أو لم تهمـــسي وروحـــك في ثغـــري
وأنـــت اختلاجـــة مـــن حميَّـــا

لــكَ أن احتويــكَ يــا شــاعري الطفــل

حنينـــــاً في أضـــــلعي أبـــــديا

* * *

اذكرينــــي.. هـــواكِ غلـــة صـــادٍ

لــست أرجــو لهــا يــد الــدهر ريــا

اصـــــهريني، هـــذي بقايـــا شـــبابي

ثـــم عـــودي إلى الرمـــاد، إليّـــا

مـــا تـــزالين عـــصفة الكـــأس في

رأسي ولحـــن الجنـــون في شـــفتيا

ونلحظ أن بين المرأة والشاعر روابط نسب أزلية، فقد خلقت من الجمال لتلهم ذاك الذي نذر نفسه للتغني بكل جميل:

بـين شـعري وصـباك الأنـضر	نـــسب يجمعنـــا منـــذ الأزلْ
لــكِ يــا شــاعرتي أن تــأسري	وتـــرفِّي في فـــؤادي كالأمـــل
فــإذا فجــرت لحنــي فاســكري	إنــــه منــــك لهيــــب وشُـــعَلْ

وهكذا تغدو المرأة هي الشاعرة الملهِمة، وليس له إلاَّ فضل ترديد ما تلقنه إياه من إلهامٍ.

وهو في قصائده الأولى التي نظمها في الخمسينيات، يوم كان في ريعان شبابه أكثر التفاتًا إلى أحاديث الحب، ووصف مواجده وعذاباته، واندفاعًا وحرارة في التعبير عن أشواقه ونزعاته:

في وجنتيـــك شـــباب نـــاضر يثــبُ
أســـكرة مــن شـــفاه الـــورد أم لهــبُ؟
لـــن أجلــوَ الـــسر إلاَّ حـــين أنـــسكبُ
روحًـــا عـــلى ثغـــرك المحمـــوم تـــضطربُ
وتـــستفيق حنايـــا جرحـــيَ الـــدامي
عـــلى رفيفـــك يـــا عطـــري وأنـــسامي

بل يجلو في المرأة عالمه الذي يغنيه عن الوجود كله، لأنها هي الوجود:

لـــو أســـتطيع اتَّخـــذْتُ الأفـــق لي ســـكنا
وعـــشتِ أنـــتِ عـــلى أطرافـــه وأنـــا
فليفتقـــد غـــيريَ الأحبـــاب والوطنـــا
مـــا دمـــت في شـــفتي نجـــوى وفي جـــامي
أنـــشودة فـــالوجود الحـــي قـــدَّامي

على أن نزعة التفرد بالمحبوبة والاستغناء بها عن الأهل والوطن، هي ثمرة رومانسية هاربة تخلى عنها الشاعر في المراحل اللاحقة، فلم يعد الحب في سلم الأولويات يحتل المرتبة الأولى، وإنما أمست هموم الوطن والأمة هي شاغله الأول، وتحوّلت المحبوبة إلى شريكة نضال، وواحة يفيء إليها عند يأسه، أو يعترف لها بخيبات أمله، وكثيرًا ما يتقاسمان معًا هموم الوطن، وقد أصبح شرطه الأول في الحب أن المحبوبة تفهمه ويفهمها.

وفي بواكير شعره يطيب له أن يدعوها نجمة الصبح أو السمراء وهو اللقب المحبب لديه أو الواحة الخضراء، أو الخمرة الأزلية وابنة النور،

وحبها ضرب من الغي وجنون الشباب، وهي ليست محبوبة مقصودة بذاتها، إنها المرأة التي فيها تتجدد حياته:

يـــا كـــاس، مـــا أبعـــدَ أن أرتـــوي
يـــا ليـــل، مـــا أظمـــأني للحيـــاة
أتـــرِعْ لي الغـــيّ، فلـــن أرعـــوي
يـــا ليـــل.. مـــا هـــزت خيـــالي فتـــاة
هـــي التـــي رفَّـــت بإغرائهـــا
عـــلى حيـــاتي.. فـــإذا بي نـــشيدْ
أختـــصر الكـــون بإيمائهـــا
وأبـــدأ الخلـــق بهـــا مـــن جديـــد

ويستهويه من مفاتنها شعرها المنسكب كالشلال، وضفائرها الطليقة.

وعلى ضفيرتك الطليقـة وشوشـات مـن فتـون

ويمتعه حديثها، فتصمت قيثارته ليصغي إلى صوتها، أو يستلهم شعره من سنا عينيها:

قفـــي نَمـــلأْ جوانحنـــا الظـــماءَ
حـــديثًا مـــا أودّ لـــه انقـــضاءَ

* * *

في صـــوتك النـــاعم قيثـــارةٌ
تنـــساب كالنـــشوة في خـــاطري

أنـــــــت إذا كلمتنـــــــي نغمـــــــة

تلعـــــب بالـــــشعر وبالـــــشاعر

المبـــــسم الغـــــارقُ في حلمـــــه

أفتـــــك مـــــن إحـــــساسيَ الثـــائرِ

وتستبيه أهدابها التي تلقي ظلالها من خيال الطبيعة والجمال:

أي حلـــــم مـــــن بقايـــــا عبقـــــر

من خيـال الغيـب مـن ومـض الفتـون

هوَّمـــــت في جفنـــــك المنكـــــسر

موجـــةٌ منـــه فـــآثرتِ الـــسكونْ

فتنـــــةً كنـــــت وإن لم تـــــشعري

عنـدما استـسلمتِ في أيـدي الـشجون

جُـــنَّ يـــا ســـمراء نـــورُ القمـــر

وهـــو ينـساب عـــلى تلـك الجفـــون

* * *

وقد يرسم سهومها ونظراتها الشاردة الضائعة:

غرقـت في الـصمت ضـاعت في المـدى

في حنايـــا الغيـــب لا أعلـــم أيـــن؟؟

ربـــما فـــرَّت عـــلى أجنحـــة

مـــن رؤًى وانـــسكبت في غيمتـــين

أروع الـــــشعر ســـــؤالٌ حـــــائرٌ

أبـــــدًا مختبـــــئ في مقلتـــــين..

* * *

وأكثر ما يؤلمه دموع المرأة، فهو لا يقوى على رؤية اخضلال عينيها بالدمع، وهي التي يجرحها النسيم:

وحـارت دمعـة، واخـضلّ جفـن فراشـة اللهِ

أيجرح خد نيسان؟؟

أيـــــؤذي عطـــــرُهُ الـــــساهي؟

لمـاذا تحمـل الكلـمات أحيانًـا نـدى الزَّهْـرِ

وتهـوي تـارة عميـاء كالـضربات، كالـصخرِ؟

وتختـــــار الـــــشذا الـــــوادع

بلا وخزٍ ولا رادع؟..

* * *

وحين تدلهمُّ العواصف والنكبات، يجدها قربه تكفكف يأس روحه، وتدفعه إلى الأمل الجديد:

سرق الـــضباب أشـــعتي واغتالهـــا

ســيطول في لُجــج الـضباب سـفاري

إنِّي لأزرع ألـــفَ فجـــرٍ في دمـــي

مــا دمــت في عينــيّ خــيطَ نهــارِ

مـــا دام في الأعـــماق مولـــد نـــسمة

تَعِـــدُ الربيـــع بموســـمي ونـــضاري

ألِمْ ألفنـــــاه.. فمـــــري فوقـــــه

نزَّهــتُ عـــن هــذا «الــشذا» نــوَّاري

حـــسبي مـــن التـــاريخ أنـــك لمحـــة

خـــضراء في غـــده.. وخـــيطُ نهـــارِ

* *

هكذا يتخذها الشاعر على الدرب المرهق واحة يفيء إليها، لكنها تظل في نظره أمّاً يسند رأسه إلى ركبتها، وتظل هي في نظره طيفًا من أثير، مثل الشاعر، فإهابه ليس من دنيانا، إنه طائر غريب عن الأرض، هو روح حطَّت على تراب أرضنا، وهو أحوج إلى جناح يحلِّق به، لا أنثى تلصقه بالتراب:

لا تلحِّـــي عليـــه.. مـــاذا يريـــد النبـــع

مـــــاذا يريـــــد..؟ إذ يتـــــدفقْ

أكتـــب الـــشعر مـــثلما يـــضحكُ الطفـــلُ

ويبكـــــي، ويـــــستغيث، ويـــــشهق

أنـــا ضـــيف عـــلى الوجـــود.. جنـــاح

حـــطَّ حينًـــا عـــلى الـــتراب، وحلَّـــق

* *

فهي في نظره صورة عليا ترتبط بالسماء:

زَرَعَتْنِــــي فـــوق أهــــداب الغيــــوم

أســــكرتْ لـــــيلي بنجمــــــةْ

وتحــــدتْ بجناحيهــــا التخــــوم

فهــــي في صــــدريَ نــــسمةْ

* *

أما جلسات الأنس ومواعيد اللقاء، فهي عالم سحري من الفتنة والغواية، يُحسن الشاعر اختيارها وتوقيتها، فهي غالبًا ما تتم في قلب الطبيعة. كل مافي الكون يشارك في وليمة الحب، وكل ما حول العاشقين مفتون بنفسه، وبما حوله وبالعاشقين، مرة على الشط حين يرقص الموج لهما:

إذا ارتمى الهدب فـوق الهـدب وانـسرحت

عيناك في المـوج، قـرب الـشاطئ القلـقِ

إذا أحبتــــك مــــثلي موجــــة وهــــوت

عـلى الزجـاج، عـلى منـديلك العبـقِ

وقبَّلــــت نَثَــــراتٌ مــــن جوانبهــــا

خـديك.. صـدرك..نهـر المرمـر الألـقِ

إذا انثنــى القــدح المــسحور منتــشيًا

يَعــبُّ سـمرة فجـر نـصف محـترقِ

وغمغمــــــتْ بأغانينـــــا وســـــكرتنا

فـيروز، بالفـل، بالأضـواء، بـالحَبَق

إذا شربــت وراح «الــنجم» يــضحك في

خديك كالطفـل كـالأمواج، كالـشفق

فزحزحـــي الغيمـــة الـــسمراء.. واتكئـــي

عــلى يـدي.. أنـا عنـد الـشاطئ القلـق

وتارة يكون اللقاء على صخرة سحرية، غرقى بأحلامها كصخرة «لامارتين» تشهد وتشارك:

الـــــصخرة الغرقـــــى بأحلامهـــــا

تحـــسّ مـــثلي وحـــدة قاتلـــهْ

هــــذي خطانـــا لم يـــزل وقعهـــا

وشوشـــــةً في ســـــمعها ســـائله

تـــسألني الـــصخرةُ.. يـــا طفلتـــي

عنـــك وترتـــدُّ معـــي ذاهلـــه..

* * *

ألم نكـــن نرســـو عـــلى شـــطها

طفلـــين مثـــل الـــنغم الـــشارد

في قُبْلـــــة حالمـــــة إن أَضِـــــعْ

وإن تـــضيعي فعـــلى ســـاعدي

تبـــارك الحـــب فكـــم أرعـــشت

يمنـــاه قلـــب الحجـــر الهامـــدِ

وقد يكون اللقاء في دنيا الضيعة حيث الحب يجدد سيرته في كل منعطف:

أفيـــــذكرنا.. يـــــومُ العيـــــد
و«الدبكـــــة» بنـــــت أناشـــــيدي؟
والبيـــــدر رُصِّـــــعَ بالغيـــــدِ
وأدَلَّ بهـــــن عـــــلى الزُّهْـــــرِ
هـــــل كنـــــا نـــــرقص يومئـــــذٍ
أم نـــــسبح في ضـــــوء البـــــدر؟

* *

وحين يذكرها في شوارع المدينة ينغّص على الشاعر غربته النفسية والقيود التي تكبِّل وطنه، فيشعر أنه سجين داخل الأسوار، لا فرق بين شارع «القصاع» الفسيح وجدر السجن التي احتضنته في دمشق أكثر من مرة، فلا يجد إلاَّ زوجته يشكو لها محنته:

يــاحلوة الرنــوات، يــا حلــمًا أطــاف بمقلتيَّــا
أنــا مــن جديــد عنــد وحيــك يرتمــي ســحرًا عليّــا
هــا أنــت والغــزل المجــنح والجريــدة في يــديَّا
ووجوم جـدراني الغـلاظ ومعطفـي الـساجي عليـا
ودبيــب صرصــور عــلى رجــلي يــداعبني حييــا
وخيــال «معــن»(١) في الــسرير وثــورة الأجيــال فيّــا
أنــا لــست مــن يخشى الظــلام ولــو أنــاخ بنــا مليَّــا

---

(١)«معن» اسم الولد البكر للشاعر.

وقصائده في شريكة حياته يندمج فيها الحب، والصحبة الطويلة، والتجانس الفكري والوطني، وعاطفة الأمومة، وشراكة الفن والذوق، ورقي المشاعر الإنسانية، فإذا هي ملهمته السمراء التي وقع لأجلها أروع ألحانه، وأمدته بأجمل قصائد الحب، وهذه العلاقة المتينة لا نجد لها نظيرًا في شعر أقرانه من معاصريه[1].

بعد عام ١٩٦٠ نحس أن الشاعر ودع عهدين من حياته، عهد كان فيه صوت الحب ونشدان المرأة يطغى على شعره، ثم غابت صورتها في شعره... أوعلى الأصح اتحدت بحب الوطن الذي طغى على كيانه، فإذا كل ما كتبه يصطدم بصخرة الواقع المر فلا يحصد إلاَّ المرارة، فكتب لمالك حداد الشاعر الجزائري قصيدة بعنوان «الورد والصيف» نظمها في عام ١٩٦١ فيقول:

وكان الحب والصبوات أعراسًا على دربي

وأصواتًا تناديني

تمور تضجُّ في قلبي

وكانت كل ألحان الصبا يا شاعري

غرثى

تودع عالمًا رثّا

وكفكفت الرؤى العطشى عن النبع

---

(١) انظر (قصائد خاصة) في القسم الأخير من كتاب «وقفات مع سليمان العيسى» ، للدكتورة ملكة أبيض.

وآثرت الطريق الوعر بين الشوك والدمع

أحبٌّ..؟؟

وهل يعيش الحب يا «مالك»

بحربة غاصب فاتك

تشد برأس بارودةْ

وتهوي..

فالرؤى والحب والصبوات موءودة

* *

في هذه المرحلة من العمر يفتر تدفق الشاعر، وتغدو المرأة في عالمه رفيقة كفاح يأمل أن يشدها إلى عالمه النضالي، يكتب للكاتبة الفرنسية «فرانسواز ساغان» إثر توقها إلى زيارة للشرق العربي، فيذكرها بأنها ستجد في الشرق ألف مأساة تغذي قلمها:

لا تغمسي في جرحنا أحلام طائر

أخشى على الزغب المخاطر

وتلمَّسي لجناحه غير المجازر

* *

ويشجع االفتيات عاشقات الشعر على صداقة الحرف لكنه يحذرهن من مرارته ومعاناته:

الحرف.. أُعيذكِ من نار

سافرتُ بلجَّتها

وتنفَّس فيها نوّاري

واقتاتَ بجمرتها

أفنيتُ محاجر أسحاري

عطشانَ لخمرتها

ورجعتُ.. رجعت من السفر

أنقاضَ نداءٍ معتصر

وقد يحركه الجمال الفتي بعد يأس، وتبعث فيه رؤية المرأة في مقتبل عمرها ذكريات ماضية في الريف وشبابه المنصرم:

صبا.. وتضحك خلف الأفق زنبقة
تعطر الجبل المسحور والأفقا

لو لم تقص جناحي ألف عاصفة
سقيتك الفجر في بيتين والغسقا

لفلة الريف في عينيَّ أغنية
أطبقت صونًا لها الأهداب والحدقا

* *

وتغريه المرأة الفنانة المبدعة فيمجدها شاعرة أو مغنية أو راقصة، يوجه إليها رسالة إعجاب وتقدير. فيكتب إلى «موي سيفا» بطلة باليه موت البجعة، ويخلد «فيروز» صاحبة الصوت المخملي ويعتز بسانتيا صوفيا، بطلة

فيلمي «زوربا» و«ماي فير ليدي» الفتاة اللبنانية الأصل التي لم تنس جذورها، ويبدي اعتزازه بتخريج أول دفعة من الفتيات في الكلية العسكرية بدمشق، ويخلد بطلة الجنوب اللبناني «سناء محيدلي» في قصيدة من عيون شعر المقاومة، كما مجَّد من قبل بطولة «جميلة بو حيرد» الجزائرية فيفتح للمرأة عالمًا جديدًا تطل منه على الحياة، من منطلق إيمانه بدورها في الحياة ندًا للرجل، وينظر إليها صاحبة رسالة قومية، وروح تعانق الموت ليحيا الوطن، مثلما هي ذراعان مشرعان للحب بكل أنواعه ومظاهره.

ونظرة الشاعر «سليمان العيسى» إلى المرأة ودورها الفاعل في الحياة ليست ثمرة ذلك التطور الاجتماعي الذي شهدناه في حياتنا العربية، ولا هي استجابة له، وإنما كانت حلمًا رافقه منذ يفاعته، فهو يكتب في عيد زواجه الثاني والثلاثين نصًا نثريًا بعنوان: الليلة الثانية والثلاثون يلخص فيه قصة حياته الزوجية من خلال شخصيتي خولان وخولة. فقد كان خولان يطمح لتغيير عالم الوطن الذي يعيش فيه، وكانت «خولة» تشاطره الرأي، وهي واحدة من الجيل الذي ينتمي إليه.. جيل الحب والرؤى والصدمات. ومع أن نور الحلم قد انهار، وعربد من حولهما الظلام فإنهما مايزالان معًا على طريق الحياة: أحلام تتبدد وتتجدد، يشقيان، ويسعدان، تربط بينهما إرادة التطلع إلى التجديد ومعاداة الراكد والبليد، إن لم يكن تجديد العالم كما يرددان معًا، فليكن تجديد ذاتيهما.

فإن يئس من الكفاح خاطبته شهرزاده قائلة:

مـــسمرّ أنـــت، في الـــصحراء متحـــد

بـــالأرض ممتـــزج، بالكـــأس والعنـــبِ

بـــــالحزن يحمـــــل تاريخًـــــا برمَّتـــــه

في منكبيـــه.. وحلـــمًا في جفـــون نبـــي

وتطلب منه أن يواصل رحلة السغب، ويطعم الجوعى دم الحقب، لأنه لم يخلق للهرب، ويحزن الشاعر لأن عصره ماعاد يفهم الحب أو يصلح للحب، يوم كان الحبيب فارسًا يرعى العهود.

يخاطب فتاة قررت أن تهرب من زمانها البائس، فيقول لها:

أشعليها يا حبيبة

هذه الصبوة في الأعماق حيرى هاربة

قتل الناسَ حسابُ العاقبة

الفروسيةُ.. لا تنتظري حتى يجيء

الفارس الأسمر والمهر العتيق

زمن الفرسان هاجَرْ

في ضباب الأمس والنسيان هاجر

حسبنا من هذه الدنيا رفيق

نقسم البسمة فيما بيننا

نسرق القبلة، فالدنيا لنا

ثم يمتد بنا في الصخر والشوك طريق

* *

ويكتب في عام ١٩٨٢م مشعرًا بتقصيره في الكتابة عن المرأة، بالرغم من كل ما كتبه فيها:

لم أكتب شعرًا كثيرًا للورد

لم أخصه بديوان غزل

لأني آثرت أن أحمله في دمي

أتنفسه في رئتي

أسكبه في أعصابي

ويبدو لي أني ظلمته

ظلمتُ الظل واللون والعبير

آذيت أنوثة الورد

الصامتة الطاغية

التي تسكرها اللا نهايات

ولكنها تظل أبدًا الأنوثة

التي تحب أن تسمع

وتطربَ وتنتشي

ظلمت هذه الأشياء كلها

حين آثرت أن أشرب الربيع

على أن أكتبه

هل يعاقب الورد؟

هل يغفر لي ما فعلت؟

لقد أعطاني كل مايملك!

والواقع أن «سليمان العيسى» لم يبخل على المرأة بشعره، فقد كتب عنها الكثير، لكن ذوق عصره قد تبدل فما عاد يلتفت إلى ذلك الغزل السامي الرفيع الذي أفرزته الرومانسية ومن هنا وجد نفسه وشعره غريبين في عالم قرَّاءٍ هم أدنى ذوقًا من الجيل المنصرم، لا تحركهم صبابات الروح قدر ما يهزهم شعر الجسد، ولا ينظرون إلى المرأة إلاَّ من خلال نزعة العصر المادية. وقد أدرك بعض الشعراء ذلك الواقع، فركبوا الموجة، فإذا المرأة في شعرهم، فستان يشف، وطيوف ترف، ومواعيد عابرة لا يتألف فيها ذلك الحب العميق الشفيف، وإنما تطوى على التقلّب والشك، وطلب المتعة العابرة.. فتسقط المرأة من سمائها، ويهبط الشاعر من بين النجوم ليعيش في علب الليل المغلقة، بعد أن كان يفرد جناحيه بين الغيوم.

* * *

الاسفار والرحلات عند الشاعر سليمان العيسى

منذ أن غادر «سليمان العيسى» بيت أبيه في «النعيرية» يافعًا عَقَدَ مع التنقل والأسفار صداقة دائمة، فهو لا يكاد يستقر في حياته المديدة ببلد إلاَّ زمنًا محدودًا. لعل أطول هذا المكث كان في حلب ودمشق، لكنه استقرار قلق، وإنني قد أدرك سرّ عدم استقراره في مكان، بسبب كرهه الجمود وتطلعه إلى تجديد حياته باستمرار، وربما فرضت عليه حياته وشعره ونضاله التشرد بسبب الملاحقات المستمرة شأن كل شريد ينأى عن أهله وأحبائه، فليس غريباً أن تتوزع حياته الدراسية بين مدن اللاذقية وحماة ودمشق وبغداد، وأن يمليَ عليه نشاطه النضالي رحلات بين المدن والقرى السورية سيرًا على القدمين، غير أننا يجب أن نضيف إلى دوافع الارتحال ما فطرت عليه روحه من قلق وتوثب فلا يكاد يستقر في مكان معين إلاَّ زمنًا حتى يشعر بالرتابة والسأم.

فيغادر مكانه وكأنه يبحث عن مجهول... وغالبًا ماكان يقطع الطريق بين منزله ومكتب عمله أو المكان الذي يقصده راجلاً يتقي حرَّ ا لهاجرة أو قرَّ الشتاء بصحيفة تظلل رأسه، عازفًا عن وسائل التنقل الآلية، فقد كان يرفض استخدامها بإصرار، وكأنه آلى على نفسه أن يكون سعيه أبدًا في حضن الطبيعة، وهي الجاذب الوحيد الذي يلزمه المكث ساعات أمام سحرها يتأمل شجرة مزهرة، أو عصافير تحلّق أو تستقر على أغصانها.

وكذلك زوجته الدكتورة «ملكة أبيض» تعشق السفر والارتحال لأنهما السبيل إلى التجدد والمتعة، فكانا يدخران ما يمكّنهما من السفر كل عام في رحلة يخططان لها شهورًا، وربما يخفف من أعبائها ما يجدانه في البلد المقصود من طلاب ومعارف أو أهل وأحباب يقدمان لهما بعض الخدمات والتسهيلات، فتكون الزيارة فرصة لتعزيز عُرى المودة التي فرقت شملها المسافات، وكسب صداقات جديدة يمليها التواصل.. وغالبًا مايكون هدف الزيارة الاطلاع على الحياة الثقافية والأدبية والفنية في بلدان العالم، وزيارة الأوابد والمتحفات ومعالم الطبيعة الفاتنة، إضافة إلى أنها فرصة للقاءات أدبية وثقافية يتحدث فيها الشاعر «سليمان العيسى» عن حلمه القومي في شعره، وتطلعات أمته إلى الحرية والتقدم والكرامة الإنسانية.

مع أن الشاعر «سليمان العيسى» تغرَّب كثيرًا وارتحل، سلم نثره وشعره مما يعرف بداء العصر، فلم يكن رحيله اغترابًا نفسيًا أو هربًا من واقع يمضّه، فقد ظلَّ متكيفًا مع واقعه الإنساني لا يشكو ولا يتسخط، ولا يراهن على هويته أو يسمح للتواصل مع الآخر بأن يبدّل ثوابته أو يذيبها شأنه في ذلك شأن الآباء الأول، حيث كانت حياتهم رحيلاً مستمرًا، لكنه لم يزحزحهم عن قيمهم وثوابتهم، وحتى في مجال ارتحال الشاعر الثقافي إلى الآخر، ونهله من معطياته الفكرية والأدبية، فهو لا يسمح للرياح التي تهب على نافذته أن تقتلع بيته، وبحسبه أن يطعّم ثقافته بمعطيات التراث الثقافي والعالمي، ويوسع آفاقه الإبداعية..

تختلف الرحلة في حياة «سليمان العيسى» وأدبه إلى البلدان العربية عنها إلى مدن الغرب ومعالمه، فهو هنا يحسّ أنه بين أهله وعشيرته وجذوره،

وهي هناك الرحيل إلى عالم مختلف يقربه من دنيا الشاعر مشاعر الوحدة التي تؤلف بين البشر، وينفّره عن الآخر ممارسات غير إنسانية يمليها الزهو والاستعلاء والجشع والركض ا للاهث وراء المصالح المادية والنزعة الاستهلاكية...

نشاط محموم يغيب وراءه وجه الغرب الإنساني، وكأنَّه ليست تلك الأرض التي أنجبت «فرانز ليست، وبيتهوفن، وميكل أنجلو، وروسو، وغيرهم من عباقرة الإبداع في الفن والثقافة، وما تركوه من غذاء روحي لا نرى أثره الآن إلاَّ في المتاحف والمكتبات تحجبه الحركة والسعي المادي، وإن كنا نلمح أثره في ممارسات الناس وسلوكهم اليومي المصقول بالثقافة والفن.. و«سليمان العيسى»» ليس معنياً في رحلاته بتقدم معارف أثرية أو جغرافية أو تاريخية، ولا يعنى كثيرًا بالحديث عن سمات الشعوب التي زارها، وإنما يكتفي بتقديم انطباعاته ومشاعره تجاه المدن ومناظر الطبيعة والأوابد التي زارها والأناس الطيبين الذين ذللوا له صعوبات الرحلة، ونادرًا ما يتحدث عن الشعوب أو يحلل طبيعة أهل المدن التي زارها.. يقول:

أحلُمُ بالسفرْ

خلف الغيوم والنجوم والقمر

خلف رذاذ الموج والمجداف

وراء هذا الصخر والهجير والجفاف

إلى بلاد يغزل الناس بها المطر

معاطفاً لمن يحبون

يُغنَون إلى السحر

ويشربون الليل والنبيذ والوتر

*

فالرحلة في شعره تشكل حلمًا رومانسيًا إلى عالم مثالي تسوده الألفة والمحبة والإخاء بين البشر..

يتابع الشاعر أولى رحلاته إلى بلاد الصين بدعوة لحضور مؤتمر أدبي عام ١٩٥٧م، ويستثيره «صمت بكين الحالمة ليلاً» فيقول:

صمت كأعماق الحضارات وشيء مبهم

يذوب سحرًا في دمي قصيدة لا تنظم

ياليلُ، أندى لغة أنت هنا وأرخم

بكين: كون حالم وشاعر مستسلم

*

وتردّه زنابق تطفو على وجه بحيرة الفندق فيها إلى تراثه العربي في الأندلس، فيتذكر «ابن زيدون» وشعره في ولاّدة، وفيه يقول في وصف«النيلوفر» الناعس:

سرى ينافحه نيلوفر عبِقٌ

وَسْنان نبه منه الصبح أحداقا

ويزور مع رفقائه سور الصين «ذلك الثعبان الهائل الي يتلوى بين الجبال شاهدًا على عظمة إنسان الصين وتصميمه»، ويسافر إلى «شنغهاي، حيث يتلاقى الشرق والغرب في مسيرة الحضارات»، ويقوم مع أسرته برحلة إلى «تركيا» ويمر بمسقط رأسه «أنطاكية»، ويردد: [إن جذورنا باقية، وإن كانت الرياح ما تزال تعصف بأغصان الشجر، وتحاول جاهدة تغيير كل شيء]..

ويستسلم لسحر شاطئ «مرسين» بدعوة من شقيقته، ثم يودّع الأهل واعدًا إياهم بلقاء قريب، ويتابع مع الأسرة رحلة إلى «أنقرة» العاصمة، فيراها «مدينة من صنع الإنسان» وتسحره «استانبول» [الزمردة التي يشطرها الماء، وتقف لتشع جمالاً وبهجة بين قارتين].

ويعبر خليج البوسفور هذا المعبر الذي كان ومازال ملتقى الحضارات، ومسرحًا للتأثير العربي والإسلامي حيث تعبق شذى الابتهالات من مساجدها ومآذنها وقبابها الشامخة، ويبرز من خلال بنائها عبقرية المهندسين الأتراك.

وينتهز الفرصة لزيارة مقهى الشاعر الفرنسي «بيير لوتي» الذي قضى في استانبول ردحًا طويلاً من عمره، وتغنى باستانبول، ولم يغفر له الشاعر «ناظم حكمت» هذا التغني متجاهلاً بؤس الأتراك وكدحهم، وقد التقاه الشاعر «سليمان العيسى» وهو في آخر عمره في موسكو، وذكره بذلك، فقال: [لم أعد أبحث عن الكادحين، أو كانزي الملايين، وإنما أبحث عن الإنسان، ولست نادمًا على ما كتبت].

ويتلقى «سليمان» دعوة من «الجزائر» لزيارتها بمناسبة عيد الاستقلال، فيلبّي مع رفيقة دربه، وهو الذي ترجم معها أروع كتابات الجزائريين في المنفى الفرنسي، ويستقبله أدباء الجزائر بالحفاوة والترحاب، ويشهد احتفالات العيد على أنغام الموسيقا المغاربية وكلمات مطربيها، ويدعى لإلقاء قصيدته بهذه المناسبة، ثم يودع أرض البطولة التي تغنى بمآثرها ثلاثين عامًا .

ويتحوّل في رحلة إلى باريس عاصمة النور بجدارة، ذلك أن أعلى ما حققته باريس حرية الفكر والتعبير بعد الثورة الفرنسية، فيزور حدائقها ومتحفاتها، وبرج إيفل ومتحف اللوفر وفونبتبلو، ومنها ينتقل إلى «روما» ويحضر أوبرا «عائدة» وموضوعها شرقي يذكره بوطنه.

ويعلق على حكم نابليون.. فيكتب: [أنا أرثي لنابليون العظيم المسكين الذي ملأ صفحات التاريخ بكل طلقة مدفع أطلقها، وسجلوا معاركه وحروبه بالتفصيل، وفاتهم أنه هو الذي نقل فرنسا من حكم الأسقف والدير إلى قلب العصر الحديث].

وفي «روما» تسحره عظمة الأكروبول، وتمجيد روما العلماء والفلاسفة، ويرى مايراه صديقه المؤرخ «أحمد داود» أن نصف الفكر اليوناني الذي سمّاه الغرب معجزة، جاء من سورية ومصر، لكنهم يحاولون طمس هذه الحقيقة.

ويحضر أمسية شعبية في حي يوناني قديم تحفل بالغناء اليوناني ويذكّره بليالي الطرب في الشام وبيروت والقاهرة.

وفي الرحلة نفسها، يطير إلى «دبي» حيث يعمل ولده الطبيب وحفيده، ويهيء بكتابة قصيدة يخاطب فيها حفيده، وقد سئم حياة المدن:

هيئ لي الصحراء إني

يا حفيدي جارها

ونشيدها منذ اصطفاني

للهوى قيثارها

أنا قادم بالباقيات من الرؤى والعنفوان

يتقصف العمر الجريح

وفي الجوانب خفقتان

*

ويسعد بلقاء الابن والحفدة والأصدقاء، فيزور شاطئ دبي، وتُقام له سهرة لبنانية في بيت صديق يتخللها الزجل والغناء، وتتوالى الأماسي الجميلة في خيمة فندق «دبي».

ويتحول الشاعر إلى مدينة «الرياض»، وله فيها رفاق دراسة وأصداء ومعجبون، ويستقر في جناح «غرناطة» حيث يشعر بشميم عرار نجد، ويقوم بجولة في أرجاء العاصمة الممتدة، ويعقد لقاءً أدبيًا في «ندوة الأحد» التي يقيمها صديق له، ويحضر اللقاء أدباء وشعراء وأساتذة، ويتحدث الشاعر عن طفولته وشعره، وينشد بعض قصائده، وقد غمرت قلبه السعادة لاكتشافه أن شعره في أقطار العروبة منتشر، وأن له قراءً ومعجبين.

وفي رحلة إلى «الولايات المتحدة» يضيق الشاعر بزحام «نيويورك» وناطحاتها المتعانقة، وتلطّف مزاجه زيارة لشاطئ «فرجينيا» حيث البحر والشمس والرمال الناعمة، وغابات الشجر الجميلة، وتسحره الجسور المعلقة فوق الأنهار، وكأن العالم الجديد يحاول أن يطير بدل أن يمشي، ويعرّج من الولايات المتحدة إلى «كندا» لزيارة ابنته المقيمة في «مونتريال» مع زوجها الرسام، ويعلق بأسى على اغترابها.. فيقول: [ثلثا الأسرة تعيش في كندا، إنها الهجرة التي امتدت إلى بيوت لا تحصى في الوطن، وانتزعت منها زهرة شبابها]. ويثير فضوله التربوي مشهد حفيدته التي عوّدتها أمها أن تعتمد على نفسها في تناول وجبتها، فهي توزع الطعام على وجهها وشعرها، ثم تقلب الصحن فتجعله قبعة لها متجاوزة «روسو» ودعوته إلى التربية الطبيعية.

ويعلق «سليمان » على شعوب العالم الجديد.... فيقول: [العالم الجديد الذي أزوره هو جديد في كل شيء، فاجأني في أمريكا ذلك التباين الذي يبلغ حدّ التضاد بين طيبة الشعب العادي هنا وبراءته وغفلته عما يجري في معظم أرجاء العالم، وبين سياسة حكامه التي تحاول بأي ثمن أن تمدّ ظلها وتفرض سلطانها على هذا الكوكب غير عابئة بشيء].

ويضيف في نهاية رحلته: [متى نستطيع أن نجعل من وطننا العربي وطنًا جديدًا ومتقدمًا وجميلاً في كل شيء، ولا يسعه إلاَّ أن يردد مع المتنبي:

ولم أر في عيـــــوب النـــــاس عيبًـــــا

كـــــنقص القـــــادرين عـــــلى الـــــتمام

وفي رحلتين للعراق ومصر، يلتمس الشاعر «سليمان» رؤية أعجوبتين من عجائب الدنيا السبع هما: أبراج بابل، والأهرام، ومع أن عجائب الدنيا تجاوزت سبعًا إلاَّ أنه يسعد أن تبرز اثنتان منهما تصميم الإنسان العربي وطموحه، يزور بابل فلا يرى من أبراجها المعلقة إلاَّ آثارًا خربة تغطيها الرمال، ويزور الأهرام وتمثال أبي الهول، فيذهله عظمة جهد بُناتها.

ولا يفرق «سليمان» بين الحضارة العربية وما سلفها من حضارات المنطقة وشعوبها.. هي موجات خرجت من الجزيرة أو وفدت إلى الأرض فتفاعلت مع أهلها، وهيأت لها المنطقة شروط التقدم والإبداع، فهم جميعًا سلسلة من حضارة واحدة متجددة، ويزور الهند مدعوًا إلى ندوة أدبية في «دلهي» فتكتحل عيناه برؤية «تاج محل» معجزة من البناء الآسيوي، ويقدّر عظمة مشاعر ذلك الأمير الذي شيده وفاء لذكرى زوجته الراحلة، فجاء معجزة عمرانية يمتزج فيها الحجر بالشعر والموسيقا، فهو قصيدة من الرخام تحيط بها حديقة غنَّاء يرتع فيها الغزلان.

وفي زيارة لمدينة «بيروت» بعد الحرب الأهلية، يؤلمه الدمار الذي حلَّ بها بسبب صراع الأهل والأشقاء، وبتدبير من الحاقدين الغرباء، وهي الآن تنهض من رمادها كطائر الفينيق الذي بدا رمزًا ونبوءة لما سيحلّ بالمدينة، ولابدَّ للشاعر من السباحة في شاطئها، فهو صديق البحر..

ويفرد لرحلته إلى «اليمن» قبل أن يقيم فيها بعد تقاعده فصلاً ماتعًا، حيث عملت زوجته فيما بعد أستاذة في جامعة «صنعاء» وتفرغ هو للتعرف إلى جذوره، وهو المتحدر من أجداده الغساسنة الذين هاجروا إلى الشمال من اليمن. وقد وجد أخوة له وعشيرًا وشعبًا عربيًا لا يعترف بالحدود، ويكون

له أول لقاء مع الجمهور اليمني الحاشد، ويلقي قصيدته المشهورة التي مطلعها:

مــاذا مــن الــشهقة الحمــراء أختــزن

أمــشي وتنــأَين يــا صــنعاءُ يــا عــدنُ

تقــصّف العمــر في جفنـــي وفي شــفتي

ومــا تـــزالُ وراء الدمعـــة الـــيمنُ

*

فكان هذا اللقاء، كما يقول: [أجمل ما مرَّ به في حياته...].

ويتحدث عن اجتماعه أول مرة بالصديق الدكتور الأديب عبد العزيز المقالح رئيس جامعة صنعاء، فيعجبه أدبه وتواضعه ومروءته، ووفّر المقالح للشاعر ندوة في الجامعة يلقي فيها بعض شعره، ويتحدث عن حياته وزيارة معالم اليمن البارزة ومنها: جبال صنعاء، وسد مأرب الذي يحمل أرج التاريخ، ويضمّه «المقالح» إلى «مقيله» الذي كان ندوة تدور فيها محاورات ماتعة حول الأدب وقضايا الفكر.. ويثلج صدر الشاعر قيام الوحدة بين شطري اليمن، فيتذكر الوحدة بين سورية ومصر، ويرجو أن تستمر هذه الوحدة بين صنعاء وعدن بقصيدة يقول فيها:

امــلأ بهــا التــاريخ نبــدؤه ... يمنًــا لتــصبح أمــة يمنــا

هي وحدها القـدم التـي بقيـت ... لنعـــود أحيـــاء.. تحرّكنـــا

هي وحدها خشب النجاة فمـن ... يعلـق إلى شـط النجـاة دنـا

*

ويستقر الشاعر وزوجته في مدينة «تعز» ثم في صنعاء، وفيهما يكتب دواوينه الأخيرة بعنوان «الشمالات» وسواها.. ويسعده أن يلمح أمل تحقيق حلمه العربي الكبير من خلال تطلعات جماهير الشعب اليمني الناهض...

ويدفع إغراء الارتحال ومغامرة السفر الشاعر وزوجته لزيارة «برمودا» في قلب المحيط الذي «ثنى يومًا عنان فرس عقبة بن نافع، وألهم بايرون وهمنجواي»، ويسحره ذلك المحيط المارد الذي يبدو ساكنًا وديعًا كطفل، ثم يتحول ماردًا ثائرًا كشيطان، ويستعيد «سليمان» ماضي أجداده العربي في الأندلس، فيزور قصر الحمراء وجنة العريف في إسبانيا، ويخاطب دليلته معتزًا بتراث أجداده المعماري، فيخاطب مزهوًا فتاة إسبانية:

وتذهلها روائعنا

أقول لها: أجل هذي روائعنا

تركناها لمن يأتي كتابا

من الأمجاد

تمرّ به قوافل ليس تحصى

من الرواد

وتقرؤنا على الحمراء

قصائد لم تزل صداحة

في كل زركشة من الحمراء

*

ويزور الشاعر «كندا» في الشتاء، فيمضّه ثلجها اللاسع وقد عهدها في الفصول الأخرى جنات عدن خضراء، وقد غابت مع الثلج سناجيبها الصديقة، فليس إلاَّ كفن من البياض ينذر بالفراغ والسكون... فيكتب:

أفتش عـن زنابقـك الحـسان ترش عـلى يـدي خـضر الأغـاني
وأنّى درت، يسفَعُني بيـاض يمـوت بـه الـسؤال عـلى لـساني

*

وفي زيارة لاحقة إلى «بودابست» التي يشقها الدانوب الأزرق والذي استلهمه الموسيقار «شتراوس» مقطوعة بهذا العنوان، ويلاحظ أن الدانوب في «المجر» لم يكن أزرق بل داكنًا يتدفق بغزارة ثائرًا، فيوحي له بالأبيات التالية:

صــباح الخــير يــا أزرق ويـــا إيـــماءة المطلـــق
صــباح الخــير شيء مــن ضـــفافك في دمـــي أورق
ألمــك والـــصبا خلفـــي بهـــدبي في الـــرؤى أغـــرق
ولا أدري وحـــــق هــــــواك أي جراحنـــــا أعمـــــق

*

ويتمنى لو يسمع مقطوعة «لِيسْت» ـ رابسودي هنغارية التي يحبها، فيتفاجأ بسرب من الفتيات في الحديقة، يرقصن على أنغام هذه المقطوعة التي أصبحت رمزًا من رموز الفن الشعبي الأصيل، وهكذا تتوالى رحلات الشاعر إلى بلدان ارتحل إليها من قبل بالخيال، وتغنى بإبداعاتها، فيلملم ما قاله فيها سابقًا، وما أوحت له في مجموعات شعرية تحتل عنوانًا واحدًا..

مثل: (أنا وبغداد، أنا ودمشق، أنا واليمن. أنا ومصر....). ولأن حياته كانت ارتحالاً، في المكان والخيال... وقد بدت هذه المجموعات وكأنها تؤرخ مسيرة حياته، لم تكن هذه الرحلات سوى التماس عوالم جديدة، تثير «إلهامه» والشاعر في كتابة هذه الرحلات يعتمد أسلوبًا يجمع بين النثر والشعر، وقد درج في مجموعاته الأخيرة على أن يقدم لنصوص شعره بمقدمات نثرية، يحدد فيها مناسبة النص، ودواعي نظمه، ويقدّمه للقارئ مضبوطًا بالشكل، ويحيل إلى مصدره في الديوان الكبير ليسهل على الدارس أو المعني عملية الرجوع إليه، وقد بدأت عنايته بالكتابة النثرية التي يقدم بها شعره في مرحلة متأخرةً.

ويعتمد الشاعر «سليمان العيسى» الوضوح في بيانه، ونثره ليس تقليدياً وكذلك شعره، فهو يجهد في تحديث كتابته بتقنيات من الحداثة تغاير مفهوم الحداثة السائد فيما يعرف بقصيدة النثر التي تقوم على الرمز والغموض والتكثيف والإبهام، فهو واضح الكتابة كوجه الصحراء العربية، ولا يقيم وزنًا لأساليب غامضة في الكتابة تبعده عن جماهير شعبه شأن أي صاحب رسالة يريد تبليغها بكفاية ووضوح.

وتقوم الحداثة في كتابته على طرافة التناول، ورشاقة العبارة، واصطفاء المفردات، والصور الموحية، والتجديد في تناول الموضوع والخروج به من دائرة التقليد...

إن هذه الحداثة بمفهوم الشارع أفضل من الركض وراء حداثة مستوردة يكتنفها الغموض والانغلاق والتعميات، وهي حداثة أقدر على تجديد روح الشعر العربي..

وبهذه النظرات الحداثية الخاصة لمفهوم الشعر، استطاع الشاعر «سليمان العيسى» أن يقيم جسورًا بين التراث والحداثة دون انقطاع أو تعالٍ على مسيرة الشعر العربي، فظلّ ألصق في شعره ونثره بجماهير شعبه، وأقرب إلى تطلعاتها.

(*) مدن وأسفار.. تأليف: «سليمان العيسى»، منشورات وزارة الثقافة السورية في (١٧٦) صفحة... من القطع الكبير.. عام ٢٠٠٩م.

الجزيرة العربية في شعره ونثره

من أمتع ما يشدّنا إلى الشعر أنه يحررنا من قيودنا المادية، وينطلق بنا إلى الخيال إلى عالم وآفاق تتجاوز حدود المكان والزمان، وكأنَّ الروح تصبو دائماً أن ترود فضاءات من الحرية، تستجيب لعطشها إلى المطلق، فالسكون والاستقرار في نظر الشاعر هما لون من الهزيمة والموت، وتعطيل لإرادة الحياة في توقها الأبدي إلى التحقق والكمال، ولو عن طريق الحلم.

لكن أكثرنا قد ألف القيود التي تكبّلنا، فلا نملك قلق الشاعر، وقد فصّلنا أحلامنا على قدر ما تطلبه منا الحياة، فظلت أحلامنا صغيرة ومحدودة، ورضينا بها على قدر ما نملك من وعي لذواتنا وتطلعاتها، والشعراء يتطلعون دائمًا إلى أبعد مما وراء عيونهم، فالحلم القومي الكبير الذي شغل الشاعر «سليمان العيسى» وسيشغله حتى آخر نسمة من حياته، هو في جوهره حلم إنساني يراود الأفراد والشعب، وهو ينبع من ثقة الشاعر بالإنسان عامة وبالإنسان العربي خاصة، وبقدرته على تحقيق حريته من خلال وعيه لذاته ووعيه ما حوله، وهو حلم لا يتجزأ عبر الزمان والمكان، ولا يتحدّد.. فالأحوال التي تتحدى الشعوب والأفراد واحدة، والعوائق التي تجهض تطلعاتها واحدة، لكنها تتلوّن بشتى الصور عبر التاريخ وعلى امتداد المساحات الجغرافية.

وحين يستعيد الشاعر «سليمان العيسى» رحلة شعره عبر حلمه القومي والإنساني، فيقدمها بقالب جديد، لكنها في إطارها المكاني والزماني،

إنما يمنحها ويمنح حلمه خصوصية المكان...وأثر الأحوال الخاصة في دفع هذا الحلم أو إحباطه، ويطمح أن يعلمنا نحن الذين أثقلتنا هموم الحياة، وربطتنا بطموحات صغيرة كيف نتجاوز ذواتنا لنمارس إنسانيتنا في جوهرها العميق، ونعبر عن وعينا لرسالتنا في أن نكون جديرين بحمل الأحلام الكبيرة شأن الشاعر سليمان...

أنـــا شـــهقة الـــصحراء حمـــر   همومهـــا أبـــدًا همـــومي
أنـــا بيـــت شـــعر للطفولـــة   في العـــرار وفي الـــشميم
أحيـــا بـــصهلة مهـــري   العـــربي في حـــرّ الـــسموم
قل للجزيرة:
كـــل حـــرف فيـــك نـــبضٌ في صـــميمي
مـــا زلـــت أغنيـــة البـــوادي   في الخـــصيب وفي العقـــيم
قل للجزيرة:
في دمـــي حلمـــي يُقـــيم وفي رميمـــي
وغداً.. أنا ابن غد
يدبّ أجل
يدب ربيع أطفالي
على هذا الأديم

*

والشاعر من خلال الرحلة، يستعرض أيضًا مراحل حياته في هذا التبويب الجديد لشعره، فأصدر عددًا من هذه المجموعات وما يتوقع

صدوره منها مستقبلاً، حيث تمثل كل مجموعة مرحلة من مراحل حياته، واتساع أفقه القومي والإنساني عبر التاريخ والاختزان الثقافي، أتخيل أنه في مجموعة بعنوان: (أنا واللواء) يعرض أحلام طفولته وتنشئته في رعاية والده الشيخ «أحمد العيسى» الذي فتح عينيه على التراث، وأطلّ من كوّة بيته في قرية «النعيرية» على شبح الفقر والاغتراب، وتعرّف صورًا من الحرمان الذي فجَّر لديه رفض الواقع والدعوة إلى التغيير.

وفي مجموعته (أنا وحلب) تطل صورة شباب الشاعر وتفتحه على الحب بمعناه الشامل، فقد منحه حب الفتاة التي أصبحت شريكة حياته ملاكه وملهمته ثراءً نفسياً، وحبّاً يفيض على ما حوله من الكائنات والناس، وصانت غنائيته الحالمة والمتفجرة من العقد والانغلاق على الذات، وخففت صدمة خيبته من الواقع الفردي والاجتماعي والقومي، ولم تسلبه قوة إرادته في مجاراة حلمه بشعره، حتى غدا الشعر لديه ترجمانًا لكل عاطفة عابرة، ولو في المناسبات التي يمرّ بها، ولم تكن مناسبات عابرة بقدر ماكانت محرّضات على التعبير عن الذات، ولعله أكثر شعراء عصرنا عناية باللحظات الهاربة من عمر الزمن والتي يحرص على تسجيلها.

وفي مجموعته (أنا ودمشق) يتحول الشاعر «سليمان العيسى» إلى الأطفال يبني عليهم أمله بعد خيبة من جيله، فيتحول إلى شاعر للأطفال، يكتب عنهم ولهم، ويبني عقولهم على أسس راسخة من التراث الأدبي والشعري، وفي الأدب الإنساني العالمي في مناهج اللغة العربية وكتبها.

وفي مجموعتيه (أنا واليمن) و(أنا وجزيرتنا العربية) وربما (أنا والمغرب العربي) و(أنا والعالم) لاحقًا، يرسّخ حلمه القومي والإنساني

بالعودة إلى الينابيع، والبحث عن الجذور. ونلاحظ أن مجموعته الأخيرة (أنا وجزيرتنا العربية) أحفلها بالبحث عن الذات وجوهر الانتماء، فالجزيرة العربية أمدت الشاعر بهويته وثقافته التراثية الواسعة، وقيم الصحراء التي أسهمت في تكوينه الثقافي والروحي، عرضها عبر المقروء من التراث، فتحول إلى شاعر جوَّال يحمل قيثارته ليقف تحت شرفة الحبيبة والأم الحاضنة يغني لها آملاً أن تطلّ عليه بما تحمل من جمال الروح والجسد، عاش مع طيفها فلم يعرفها إلاَّ من خلال التراث المقروء.

ولعلها تمنعت أن تفيض بحنانها على عشاقها الذين هجروها، واستسلموا لحسناء وافدة ليس من وراء زينتها إلاَّ الأصباغ والبهرج الزائف.

طاف الشاعر «سليمان العيسى» بأرجاء اليمن ونجد والحجاز وديار عبلة ومضارب الفرسان من عبس... ومرابع الوحي في مكة والمدينة، وعقد صداقات مع البشر والحجر والرمال في شعابها وقراها ومدنها، وحاور الشعراء من أرومته ممن أسلموه فن الشعر وعلموه سحر الكلمة وجمال العربية، وراح يكشف عن المدن المنتصبة عماراتها التي تناطح السحب، وجهها الحضاري المقنّع، وعن البشر والطبيعة ما حملته المدنية الوافدة من ملامح وقسمات باحثًا عن دخيلة وجه جده المهاجر منها، فلم يخدعه ذلك البرقع الزائف الذي جلّل البشر والحجر، وعاد وهو أكثر اطمئنانًا وثقة بأن هذه الأرض التي قدمت الحضارات، وأنجبت الشعراء والمبدعين لن تبدل وجهها، ولن تخون ماضيها، أو تتحول إلى ما شاء لها الطامعون. ستنتصر بتراثها العظيم ولغتها المبدعة وشعرها الخالد، وقيم الحق والحرية والعدالة

والمساواة التي أفرزتها صحراؤها النقية التي تطهر بشمسها الساطعة ووهجها اللافح كل تزوير، يقول الشاعر سليمان عن تراثها الشعري:

صديقي كان.. مذ فتحت عيني على القمم الشواهق والهضاب

لعبنا في ظلال الجوز حينًا وغنينا القصيد على الرباب

وكان معي.. تطوّقني يداه ويزرعني ليالي في كتاب

تغلغل في دمي آيًا وشعرًا وتاريخاً يُضيء بلا حساب

*

وأمام ربعها الخالي، أحسّ أنه منه، وعزف على قيثاره ملاحم الجدود.

أنا في جوارك

أيها الأزل المخيف من الرمال

أنا عند شاطئك الذي

يُغفي ويزدرد الليالي

*

كن حيث شئت وكيف شئت

فنحن منك وأنت منا

نشقى وتسعد بالظما

وتحدث الصحراء عنا

*

وسحره لسان أهلها العربي المبين، وهو الرابط الذي يوحّد بين أهلها في مختلف الأمصار.. يقول:

إذا تقطعت الأرحام بينكم

إذا تراكمت الأسوار والحجب

إذا التمستم من الدنيا هويتكم

وضاع خلف تخوم الغربة النسب

فلا تخافوا لكم صدر يضمكم

ستلتقون على صدري

انا العرب

وما جمدت، ولكن حقبة جمدت

فأطلقوني إلى الآتي، لي الغَلَبُ

*

وفتن بقيم الإسلام الخالدة، وهي عنده تجسيد لقيم الصحراء ومعجزتها الأبدية، وسَحَرَه إعجاز القرآن الذي أنزله الله بلسان عربي مبين، ليجمع الأمة على نصرة هذه القيم ونشرها دعوة حب للعالمين.. يقول:

هتفـةٌ مـن فـم الخلـود تـدوّي بالأهــازيج في سـماء القفــار

فــإذا الــشرق فــورة وانطــلاق وإذا الغــرب رقــصة استبــشار

ظمئ الكون للهدى فلتجلجـل في زوايـــاه صـــيحة المختـــار

أي فجـر مـن الجزيـرة يَنـشقّ ... عـــلى وجهـــه وأي نهـــار
قل لمن يعصرون قلب الـضحايا ... بـــأكف الـــشرور والأوزار
قــد غزونــا مــن قــبلكم هــذه ... الأرض ولكـن بالنبـل والإيثـار
صاحب الوحي، نفحة من سماء ... الوحي رفَّت فأسكرت أشعاري

*

الإسلام في رؤية الشاعر هدية العروبة إلى العالم في الإخاء والتسامح والحرية، لكن بعض أبنائه لم يفهموه ثورة على الجمود والتخلف والعنجهية والظلم، فجمدوا انطلاقته، وخنقوا كل تطلّع فيه للتجدد والحياة، بجهل منهم أو تشجيع من أعدائه الذين حرموا امتيازاتهم بعد انسياحه في الأمصار.

والشاعر سليمان لا يفرّق بين العروبة والإسلام، ولا يُقيم حدودًا بين عربي ومسلم أجنبي اعتنق الإسلام واكتسب قيمه، بما أملت عليه بيئته الإسلامية، كانت تعاليم الدين الحنيف من القوة والقدرة على الإقناع قد صهرت كل العناصر التي امتدَّ سلطانها إليها، فدانت لحضارته بالولاء دون قسر أو إكراه... يقول:

قـــد عرفـــتُ الـــدين إعـــصارًا ســـنيا
وهتافـــاً مـــن فـــم الله ســـخيّا
فجَّـــرَ الـــدنيا ضـــياء عربيّـــا
وشـــهيدًا يرتمـــي إثـــر شـــهيد
ودمًـــا يمتـــد جـــسرًا للخلـــود

*

ويلتمس الشاعر قيم الجزيرة والصحراء العربية في الجاهلية أيضًا، في المروءات التي تحلّى بها فرسان الجاهلية وأعلامها من كرم ونجدة وغوث للملهوف وسماحة وبذل ودفاع عن الضعفاء، فهي النسيج الإنساني الحضاري الذي مازال يسم الإنسان العربي حتى عصرنا، مهما تغلغلت البدع الوافدة والفردية في سلوكه، هي قيم مهّدت للدين الجديد، تحدرت من الماضي العريق الذي لا يمكن محوه بيسر.

لقد جسّد الشاعر هذه القيم في عدد من أعماله الشعرية ولاسيّما مسرحياته (جبلة بن الأيهم، وأبو ذر الغفاري، ومعن بن زائدة)، كما جسّدها في عمله الشعري المتفرد الذي قدَّم فيه شعراء الأمة وأعلامها للأطفال، وفي هذه الأعمال يبرز العمق الإنساني للشخصية العربية، وتقويمه لبعض ما بدر من شخصيات التراث من مواقف سلبية أو إيجابية من منظور القيم المعاصرة، في محاولة لتصفية التراث ومحاكمته.

فهو يمجّد دفاع أبي ذر الغفاري عن الفقراء والمستغلين وتنديده بالطبقة الحاكمة إذ حادت عن قيم العروبة والإسلام، ويعدّه أول ثائر يدعو إلى العدالة الاجتماعية.

وفي مسرحية (إنسان) يبرز كرم الإنسان العبد وسماحته التي تفوق سماحة الأمير «معن» حين يخلي ذلك العبد سبيله مطاردًا من السلطة، ويعرض نفسه لخطرها ومبرهناً على كرمه ونبله الذي يعبر عن غنى الإنسان العامي في أن كرمه أعظم من كرم معن.

وفي مسرحية (جبلة بن الأيهم)، يلوم هذا الملك المعتدّ بملكه لأنه آثر أن يتمسك بغروره وتعاليه، ولا يخضع لعدالة الإسلام التي توحد بين

السيد والمسود، وفضَّل أن يكون تابعاً رخيصاً لقيصرٍ على أن يكون سيد نفسه في وطنه:

ستمضي هناك، تجرّ المرارة

حياة بأنفاسها تؤجر

يمنّ عليك بها قيصر

كأنك في القصر بعض الحِلى

يدب سريعًا إليها البلى

كأنك في خصره مئزر

إذا شاء لمّك باللين ساسك

وإن شاء ألقاك أرضًا، وداسك

*

وفي خواطره الشعرية اللطيفة والذكية، يعلّق على آراء الشعراء القدامى ومواقفهم في أبيات محدودة محاولاً تثبيت ما هو ملائم للحياة ومسايرة التطور، ومحو المواقف السلبية التي تعرّي تصور الشاعر القديم، يعيب على الشاعر العربي تحسّره على فقد شبابه أو رثاءه للحظات العمر الهاربة.

رأيــنَ الغــواني الــشيب لاح بعــارضي

فأعرضْـــنَ عنــــي بالخـــدود النــــواضر

أو قول جميل بثينة:

ألا ليـــت ريعـــان الـــشباب جديـــد

ودهـــــرًا تـــولَّى يـــا بثـــينُ يعـــود

فينكر عليهما البكاء على ما فات، لأن الشاعر ـ في رأيه ـ يقهر الألم ويتحدى الموت ويسترد طفولته وشبابه، ولو كان شيخًا، فهو ابن اللحظة الحاضرة لا يأسى لزوالها فيقول:

امـــلأ اللحظـــة، فجّرهـــا تكـــن

أبـــدًا ريعـــان حـــب وشـــباب

وهو قادر على أن يسترد طفولته ويمارسها في السبعين أما الثمانين:

أمـــدَّ عـــلى الـــسبعين ظـــل عبـــاءتي

وأدرج طفـــلاً في الحـــواكير يلعـــب

ويخاطب الشاعر عمر بن أبي ربيعة قائلاً: [الشعر بهجة وفرح، لا أحب الدمع المتّصل ولا المنفصل].

ويضيف: [شعرك عبث جميل، لكن العبث لا يكفي، إني أبحث عن نبضة حب حقيقي يخترق شغاف قلبي، وتمتلئ به حياتي].

وينكر على شعراء الغزل القدامى ما في شعرهم من يأس مفرط بسبب تمنع المحبوبة، فيرى أن جمال الحب يكمن في هذا الصدّ والممانعة والحرمان، يقول مخاطبًا «كثير» الذي يشبه ضياع أمله من تمنع بثينة بظل الغمامة المتبدد فوق من يطلب المقيل تحتها:

حسبك اللمحة منها

فاقتنص ظل الغمامة

وتزوّد في المقيل

ما يروّي شاعر منه

من السحر هيامه

*

ويلوم امرأ القيس لأنه لجأ إلى الروم يستنجد بهم للثأر في بني قومه الذين قتلوا أباه، فتخلّى عن كرامته في سبيل ملك زائل، مع أنه يملك ماهو أهم من العرش، يملك تاج الشعر الخالد والفروسية:

الملـــك بـــين يـــديك «منجـــرد

قيـــد الأوابـــد» يقـــنص الزمنـــا

وقـــصيدة ســـكرى تـــرود بهـــا

شرف الجزيـــرة، تـــسكب الفِتّنـــا

إنـــا نريـــدك طـــائرًا علقـــت

بـــالنجم قادمتـــاه... لا وثنـــا

*

ويرى في سير بعض الشعراء القدامى ما يمهّد لمظاهر الحياة العصرية، فالشاعران تأبط شرّاً والشنفرى اللذان برزا في العَدْوِ هما العداءان اللذان أسسا لرياضة العدو في الملاعب اليوم، حتى أصبحت عقول الناس في عصرنا في أقدامهم كما يقول ساخرًا، ويقارن بين صور من حياة هؤلاء

الشعراء الماضية والواقع الراهن.. كما يكتب عن دارة جلجل وامرئ القيس، يقول:

لا تسلني

«دارة جُلْجُل» عند تخوم اللدّ مخيم

منذ سنين عذارى الحي يقمن هناك

يغزلن الزمن العربي عباءات لليتم هناك

سُرق البيت، الشعر، الحلم

سرقنا من أهداب العين

*

هذا التناول الواعي والهادف لقراءة التراث الشعري قراءة معاصرة يعلّم الأجيال كيف ينقّونه من سلبياته ويكسرون ما جمد من جليد غطى قيمه المنسية، ويجدد حياة العربي الراكدة اليوم، يقول بلسان امرئ القيس مخاطبًا جماهير الأمة:

منذ انكفأتم في جحوركم

فرس الجنون، بزهوه اغتيلا

عودوا إلى صهوات «منجردي»

هاتوا صهيل النخوة الأولى

*

والنخوة الأولى هي بنت الجزيرة دائمًا، وهي حاضنة النفحات الشعرية النجدية التي جعلت الشعر العربي يدور في فلكها قرونًا، وقدّمت للعالم قيثارة التغني بالجمال في صوره المتعددة.

والشاعر «سليمان العيسى» أحد روّادها المعاصرين، وهذه النفحات النجدية هي التي قدمت للعالم الشعر الأندلسي والغناء، ومهّدت للمدرسة الرومانسية الغربية، ولشعر الحداثة التي يرى الدارسون اليوم أنه ليس في جوهره إلاَّ بضاعتنا الشعرية ردّت إلينا بلسان «باوند، وإليوت »

يقول بلسان «خولة» يردّ على مَنْ أنكر وجودها وعدّها أسطورة:

لِمَ تزرعون الأفق من حولي غمامًا أو ضبابًا؟

أنا ما أزال أنضرّ الصحراء والدنيا شبابا

مَنْ قال إني في بواديكم طلل؟

أنا بينكم... أهبُّ الغناء

وليس تخطئني العيون

إني أجدّد كل فجر سمرتي فوق الطلل

أنا لم أزل

أنا لم أزل

أنا لم أزل

*

لم تكن دعوة الشاعر إلى بعث تراثنا دعوة متعصبة أو متعالية، وقد تجاوزت لديه في تأملاته الشعرية كل تأخير أو تنظير لها، إنها رؤية ثقافية وسياسية، وإنسانية لم تدرس بعد.

واليوم بعد أن انجلى العماء السياسي الذي جهد أن يغرق بين التيارين القومي والإسلامي، ويُقيم حدودًا بينهما، ونجح في إقامة صراعات مفتعلة، تبدد اليوم هذا الوهم، وهذه المعركة المفتعلة مع ارتقاء الوعي.

وتعترف الجزيرة العربية بسليمان العيسى شاعرًا إسلاميًا بقدر ما هو شاعر عربي فهم الإسلام على حقيقته، وقد أذاب بشعره الأوهام التي روّجت لعزل التيارين وإقامة الفرقة بينهما.

وهكذا ينظر شعب الجزيرة إليه، ليثمّن عالياً عطاءه الشعري، ويعترف بصوته حاديًا للقافلة ورائدًا لا يكذب أهله...

يقول لأبناء الجزيرة:

لست سوى حلم عربي يقف أمامكم

وهو في الثمانين من عمره

حلم عربي أمْلى، وما يزال يُملي عليّ

كل كلمة قلتها

وكل نبضة عشتها في حياتي

هذا الحلم الذي يحمله

كل منكم في أعماقه، شاء أم أبى

اعترفَ به أو لم يعترف

هو الذي يجسدني شاعرًا وكاتبًا
وإنسانًا ومصيبًا ومخطئًا، ومفقودًا
وموجودًا، وشيخًا في الثمانين، أو طفلاً
في العاشرة، وأصارحكم بكل بساطة
أني لا أجد لحياتي
معنى بدون حلم
إنها لولاه شجرة يابسة
أو تربة جرداء

*

ما قلته قبل خمسين عامًا
يمكن أن أقوله الآن... ومع ذلك
فإني ما زلت أصرّ
على أن هذه الأمة باقية
وأن الواقع المرّ التعس
الذي نعيشه عارض وطارئ
ولابد أن نطلع من ظلامه الحالك
إلى فجر جديد

*

* * *

الساحل العربي السوري في شعر سليمان العيسى

في المجموعة الشعرية (أنا وساحلنا العربي السوري)، للشاعر «سليمان العيسى» تبدو الذاكرة البصرية والفضاء المكاني الإطار المفضل لديه، حتى في شعره للأطفال إذ يحتل المكان اللوحة الشعرية دائماً، ونلاحظ في شعره الإنساني أنه لم يزر عاصمة أو منتجعاً أو أثراً إلاَّ كان المكان المحرّض له في قول الشعر، بل تجاوزت هذه الظاهرة حدود الفضاء المكاني المعترف به كالمدينة أو القرية إلى أمكنة هامشية مرَّ بها الشاعر فخلّدها في شعره، كان يزور مقهى شعبياً، أو ينبوع ماء أو فندقًا مريحًا.

وربما امتدَّ اهتمامه المكاني إلى قبو سكنه أو سنديانة شامخة متوحّدة في رحلاته بين القرى، يقول: [قرى كثيرة عرفتها وعرفتني أزورها ماشياً على قدميّ، ألقي تعبي وغباري في ظل سنديانة تحرس مشارف القرية، وأغترف بيدي الماء من أول عين يستقي منها أهل القرية، أهلنا البسطاء الطيبون]، (ص ١٦).

هذا التوحّد مع المكان ومع الطبيعة تعويض عن غربة قاسية فُرضت عليه وسلخته من مدارج طفولته في قرية «النُّعيرية» فظل يراها في كل قرية يزورها، لكن «سليمان» يوسع الفضاء المكاني أحيانًا لديه، ويمتد إلى أقصى بقعة في العالم، فهو يتوحد مع جذوره الإنسانية، مع البشر والناس في كل بقعة ومكان.

ويجد في البقاع العربية انتماءه القومي كما يلمس في أرض الله الواسعة انتماءه الإنساني، فلم ينظر إلى الفضاء المكاني تلك النظرة الضيقة التي نجدها عند شعراء آخرين:

يقول سليمان:

رائحة الأرض بعد انهمار الغيمة الأولى

تذكّرك بإلحاح أن خليتك الأولى

من خلية التراب..

وأنّك والأرض شيء واحد

تُقنعك أن الفكرة لم تُقل عبثًا

وأن الأسطورة القديمة من لحم ودم

*

الانتماء عند الشاعر «سليمان» مكاني، لأن جذور الإنسان، وهويته تتجدد بالبيئة المكانية، فقد يغير المغيرون ويحتلّون لكنهم يغادرون أخيراً مادام فوق الأرض إنسانها، فلا يفقد انتماءه إلاَّ حين يتحوّل عنها أو يتنازل عن هويته.

ونلحظ أن الفضاء المكاني في مجموعته الشعرية هو الساحل العربي السوري واللواء السليب وطن الشاعر، وهو امتداد لهذا الساحل وجزء منه، ويشكل جزءًا من ساحل بلاد الشام الذي تمّ قضمه من الشمال والجنوب وتتجدد شهوة الطامعين لقضمه اليوم من الوسط، وهو أرض

الحضارات القديمة حيث قامت عليه مدن عريقة، وتعرض عبر التاريخ للغزو لموقعه، ولم يكن اهتمام الشاعر سليمان منه حنيناً رومانسيًا لبحره وسحر جباله التي تعانق أمواج المتوسط كما نتخيل حين نلمس حنين الشاعر إليه والموقع الذي يحتله من قلبه، والتوحّد به خلال وصف قراه ومدنه ومعالمه الأثرية.

الساحل العربي السوري هو المنطقة التي احتضنتْ شرارة الوعي القومي التي فجّرها الشاعر ورفاقه القادمون من اللواء بعد سلخه من جسد الوطن الأم، فرفع شعلتها فلاحوه:

أحلام زاهية أبدًا

عاشت لهبًا فينا وندى

وتركناها لحنًا غردًا

وحياة ضاقت بالأسر

فمضت لتفجّر ثورتها

في أحضان الجبل الوعر

*

فالتشبث بالأرض أول ردّة فعل لدى الشاعر لوقف هذا النزف، ورسالة الشاعر أن يغرس في نفوس أبنائها حبها ويبرز جمالها:

سنعود إلى النبع الصافي ... ونسير مع الراعي الحافي

بأريج العطر الهفهاف ... لن تُحَطَمَ أغلال الشرّ

*

لم يكن الجبل أو الساحل وحده هدف الشاعر، كانت مساحة حلمه كما يقول: [أكبر في عيوننا، وفي نبضات قلبنا، كانت ذرات الأرض العربية، تتحرك كلها بين جوانحنا، وكنا مقتنعين إلى حد المطلق أننا نحن النداء الذي تنتظره هذه الأرض الراكدة، وأننا لابدّ أن نحرك هذا المستنقع الراكد].

ويحتفي الشاعر بتاريخ المكان [منذ ثورة صالح العلي، في هذه الشعاب الوعرة المهملة.. وعلى هذه الأرض المحرومة البائسة لم يسمع أحد مثل هذه النبرة الجديدة العنيفة الواثقة]، فيتوجه إلى أبناء الجبل يذكرهم بفارسهم المنسي:

يا أيها المقاتل العظيم

عن شرف الأرض

وعن كرامة الأجيال

يا «عمر» المختار والجبال

في الوطن الدامي.. هي الجبال

وشمخةُ الجرح ونبض الدم

ما مات يومًا في العروق الدم

*

ويتكلم بلسان «أوغاريت» فيذكّر أبناء الساحل بإسهام أجدادهم المتميز في بناء الحضارة الإنسانية، فهم الذين اخترعوا الأبجدية، وعلموا العالم القراءة... يقول على لسان أوغاريت:

أنا التي زرعتُ فجر الضوء في المقل

أعطيت هذا العالم الكفيف عينيه

وراح يحملُ الشّعل

هادئة على قصيد الموج

في شاطئنا الساحر

مازلتُ هنا أقيم

أكتبه.. يكتبني بلا ملل

منذ صحا اللحن على الوتر

منذ صحا البشر

*

ولتعزيز ارتباطهم بالأرض يطوف الشاعر معهم بقرى الساحل التي مرَّ بها ورفاقه في مرحلة نشاطه لنشر فكره القومي، ويوفر المكان له فرصة الالتحام الصميم بهم، فيشاركهم أفراحهم رقصًا ودبكة وغناء، وهو تراث يتماثل في ألوانه وتراث قريته النعيرية.

عُقدَتْ كف بكفّ.. وحكت   بالمناديـــل عـــروق ودمـــاءُ

وارتمـى شـال عـلى كوفيـة روعـة العقـد: نُهـودٌ وظبـاءُ

الـصبايا.. همـساتٌ بـضّة والزنود السمر.. زهـو وانتـشاءُ

ويموج «النـاي» في أغـرودة فـإذا الأقـدام رجـع وانتخـاءُ

*

هذا الوجه المفرح للمكان يُنسي الشاعر مأساته، ويرد إليه فردوسه المفقود، ويُنسي الفلاحين شقاءهم، وهو أفضل من بكائيات على المكان أو بكاء له.

ويقترن المكان لدى الشاعر بالجمال، فإذا هو جميل دائمًا، لا يبعث اليأس، بل تبدو الطبيعة ناطقة إنسانًا يشارك الشاعر في إبداع الجمال، يقول:

حسبيَ النبع وحورياته

أنا والنبع هنا.. لن نبرحا

نعصر الشعر المصفّى قبلاً

ومواويل «العتابا» مُلَحا

ها هنا كل حصاةٍ شاعرٌ

كل عنقود قصيد فَصُحا

أنا روح ضاع

لُموا غيمة

تجدوني خلفها

منسرحا

*

تثبيت المكان في الذاكرة الشعبية يبعث على الاعتزاز بالانتماء، فنرى الشاعر يزرع أسماء القرى في ذاكرة الأجيال لتكون كل قرية نعيرية الحلم.. [قرى عديدة، احتضنت غربتي ورعت طفولتي المشرّدة.

لماذا يفصل الزمن بيننا وبين حميم العهود؟

لماذا تنأى عنا أحب الذكريات وأبعدها أثرًا فينا؟

لماذا ننسى ما لا يجوز أن يُنسى؟

حين أفتح كتاب العمر.. وأقلّب صفحاته، تهب عليَّ أنسامك من بعيد، ويلفحني الشوق القديم، وأتمنى لو يُتاح لي مرة واحدة أن أطوف بكِ أيتها القرى الجميلة الأليفة، أن أزورك يا مرابعي الأولى، وأصافح أهلك الطيبين، وأجلس تحت ظل السنديانة القديمة، وأشرب بيدي من نبع القرية، وأجمع من حولي الصبايا والشباب، وأستعيد أزجالنا القديمة.. وأغني معهم]. (ص١٨).

ويرتقي أثر المكان لدى الشاعر من خلال أنسنته وإحيائه، فهو كائن حي يتكلم ويحكي آماله وآلامه، ويكتب بريشته صور الجمال كالفنان المبدع، وهو شاعر يتحدى بأبداعه الشاعر نفسه، وهو مناضل له أحلامه وأمانيه المتحققة والخائبة كالشاعر ذاته وهؤلاء الفلاحين المؤمنين بإرادة الشاعر..

فالرمال الذهبية وهو منتجع في «طرطوس» ترحب بشاعر الأطفال والبحر يدعوه ويلهمه ما يكتب، ويدعو أطفاله الذين لابدَّ أن يتعزز انتماؤهم بالأرض والطبيعة.. يقول:

فتحت ذراعيَّ الخضيبين بالصبا

فيا شاعر الأطفال.. أهلاً ومرحبا

أنا الموجة الزرقاء أرسلت دعوتي

إليكَ، ونمنمت الغروب المذهّبا

ستأتي.. وتنشج فوق ذراعي حلمًا بعيدا

وتكتب شعرًا جديدا

وأملي عليك نشيدا

على «نَفَسي التنباك» أملي قصيدتي

عليكَ، وجرّب أنت أحلى وأعذبا

*

حب الأرض والتشبث بالجذور أمضى سلاح يحمله الشاعر سليمان العيسى ليواجه به فصول المأساة التي بدأت بسلخ وطنه، ويبدو أن الإنسان العربي سيهزمها في معركة وجوده الشرسة، يهزمها بكلمات شاعر أفنى عمره، وهو يردد:

أنـا العـربي، ميراثـي دمـاري — وآت من دمـاري، لا ارتيابـا

وراء جنـائز الـشهداء بــرق — يمـزق عنـك ياغـدنا النقابـا

ذاكرة المكان وتجليات الحلم القومي

في مجموعة «أنا ودمشق»

حين شرع الشاعر القومي «سليمان العيسى» يصدر في السنوات الأخيرة عددًا من المجموعات الشعرية، تضمّ ما جادت به قريحته من شعر يتصل بالعواصم والمدن العربية، ويربط بين هذه النصوص بإضافات نثرية أو شعرية تعزّز لحمتها، تساءل كثير من القراء عن سرّ هذا التحوّل من ذاكرة الزمن التي املت ترتيب ديوانه الشامل الصادر في أربعة أجزاء، والذي يضم دواوينه الشعرية السابقة إلى ذاكرة المكان، ولسان حالهم يقول:

تُرى..! هل وقف إبداع الشاعر مع تقدّم العمر، فعكف على إعادة النظر في ترتيب قصائده، وتقديمها من منظور إطارها المكاني، وليس الزماني، فلكل من هذه العواصم العربية التي احتضنته مقيماً أو زائراً أو دارسًا أو مناضلاً قومياً خصوصية الوسط والتاريخ والرؤية في إطار حلمه القومي، كما تتمايز الأشجار لكنها أخيرًا تشكل غابة واحدة يجمع بينها وحدة النوع والانتماء وإرادة التحدّي في مغالبة الصعاب والعوائق ليستمر وجودها. لكن هذا التعليل مردود، فمازال الشاعر سليمان العيسى مع تجاوز الثمانين يتابع بهمة الشبان إبداعه الشعري، ويطلع على الناس بعطاءات جديدة رائعة بعد أن اكتملت تجربته الفنية، فعطاؤه لم ينضب أو يجف، وهو مصرّ على الكتابة.. يقول:

أنا الذي أمسكتُ بالجمرة

في التاسعة أو العاشرة من عمري

وحاولتُ أن أكون شاعرًا

وعلى امتداد سبعين عامًا

مازلتُ أحاول

نُخفقُ.. نتحطّم شظايا على الطريق

لا بأس... لسنا نهاية الدنيا

سيأتي مَنْ يحمل الجمرة.. (ص١٧٤)

*

وربما ذهب واهم إلى أن الشاعر الكبير تحوّل عن حلمه القومي، وأجهدته النكسات التي تعترض طريقه، فهو يسعى إلى تحقيقه من خلال تطلّع وطني أو إقليمي يكون مدخلاً للوحدة العربية، لا سيما أن الواقع العربي المجزأ استمرّ قرونًا، وفرض نفسه على حياتنا، ثم جاءت المشاريع المشبوهة الغربية لتكدّس التجزئة، وتحرف الهدف الوحدوي عن مساره، وتدعو إلى شرق أوسطي جديد، يفتّت الأجزاء، ويرسّخ كياناته المجزأة على الأرض. فرحلة الشاعر في هذه المجموعات التي اختارها إلى العواصم العربية قد تدفع إلى توهم أن الشاعر يكرّس التجزئة، ويجعل للوطن العربي الواحد الكبير عواصم متعددة تعصف بكيانه، وهو وهم مردود أيضًا، فحين يقرأ المرء هذه المختارات في المدن العربية، يدرك أن هذه القصائد

أبدعها الشاعر في أزمنة متباعدة أملتها تطلعاته القومية والاجتماعية والإنسانية، عبّر فيها الشاعر عن حلمه القومي، وأضاف إليها لاحقًا فصولاً من النثر أو الشعر المنثور، يعزّز تطلّعه إلى نهضة أمته وتوحّدها. فدمشق في مجموعته ليست عاصمة لإقليم بقدر ما هي تاريخ أمة، ونضال شعب عربي سطرت ملاحمه بدماء الشهداء. إنها طموح جيل جديد من أبناء العروبة المناضلين، كان حلمهم القومي أكبر من إمكاناتهم، ويكفي أن تقرأ قصيدته بعنوان: ميّ وسعد والجلاء جلاء المستعمر الفرنسي عن سورية التي نظمها عام ١٩٥٥م، لتدرك الفارق بين تطلعات الشاعر القومي الذي لا تفرحه الانتصارات الصغيرة كجلاء مستعمر معيّن لأن حلمه القومي يتجاوز ذلك إلى تحرير الوطن العربي كله:

لا تُشحْ وجهك.. لن أرقص في عيد الشآم

لا ولن أقنع بالقطرة من صوب الغمام

وطني.. تعرفه يا سعدُ، أنقاض حطام

للمتاهة خِرقٌ صامتة تحت الظلام

أمتي.. حفنة أشباح تلوّى في الخيام

ينهش الداء بقايا الجلْد فيها والعظام

*

ثم يقول:

فإذا ماجت بأرض «الضاد» راياتُ الجلاء

ونفضنا عن نعالِ الشرق ظل «الدخلاء»

واٌمحـــــت مـــــن هــــذه الأرض دمــــوع الفقـــراء
ضُـــمّني يومئـــذٍ، واســـكَرْ عـــلى رجـــع غنـــائي
* (ص٦٥)

*

هنا.. يتجلّى الفارق بين شاعر وطني محدود الطموح وشاعر قومي يعذّبه الهمّ القومي الكبير، ولا تشغله الإنجازات الصغيرة عن حلم الوحدة، وآلام الطريق المضنية إليها، وما أعسر هذا الطريق كما يصوره الشاعر سليمان العيسى وهو يحمل صليبه على درب الجلجلة مع رفاقه المناضلين.

يبدو أن الشاعر أراد من إعادة فرز نصوص ديوانه وفقاً لتجليات المكان أن يلفت نظر القراء الذين فرضت على أقطارهم التجزئة ألاَّ يصرفهم واقعهم القطري عن التطلّع إلى حلمه القومي الذي يتجلَّى في نصوص الديوان الذي أَملتْ تبويبه الذاكرة الزمانية، وهي ذاكرة تستمدّ مخزونها من التاريخ، ومن تسجيل الوقائع والأحداث شعرًا قبل أن تغدو ذكريات عابرة أو جزءًا من ذاكرة تاريخية عفّى عليها الزمن، فالمواطن الذي أَلِفَ انتماءه لوطن قطري لن تسعفه ذاكرته الزمانية أن يتمثل وحدة الوطن العربي التي كانت يومًا حقيقة ماثلة إلاَّ من خلال انتمائه إلى مجتمعه الصغير، فإذا وجه الشاعر هذا الانتماء القطري إلى الوحدة العربية الشاملة، يكون قد عمَّق وعي المواطن القومي، وذكّره بمسؤوليته القومية. وأبطل المخططات المشبوهة التي تسعى إلى أن يتطلع المواطن العربي إلى ما يراه قائمًا وواقعيًا لا إلى ما يحلم به ويتمناه.

ما يلفت النظر في هذا التبويب أن كل عاصمة من العواصم العربية احتلت في شعر سليمان العيسى عددًا من القصائد أهّلها أن تُجمع في ديوان، ذلك يعني غزارة ما كتبه في قومية هذه العواصم، وتنوع أوتار شعره القومي وخصب رؤيته، ومع أن شعراء آخرين كانت لهم وقفات مماثلة، استحثوا من خلالها ذاكرة المدن العربية القومية، لكن محاولاتهم كانت مفردة عابرة.

أشار الشاعر أحمد شوقي مثلاً إلى بُعد دمشق القومي ودورها في المدّ العربي التاريخي (لولا دمشق لما كانت طليطلة) كما يقول: «وتعرّف الشاعر عمر أبو ريشة وجه أجداده في ملامح وجه مرشدته الأندلسية أمام قصر الحمراء، وأشاد «سعيد عقل» بقومية حكم بني أميّة الذين (ألحقوا الدنيا ببستان هشام)، أما الشاعر سليمان العيسى فقد جعل من ذاكرة المدن العربية سِفرًا لحلم قومي طموح، إذ جعلها تستدعيه ويستدعيها، وتحاوره ويحاورها، وكأن الإنسان والحجر يلتقيان معًا في سعيهما المشترك لإثبات الذات، وترسيخ الهوية، وتحدي الغزاة، والصمود أمام المحن بعزّة وشموخ:

يــا ياســمين دمــشق.. عطــرُكَ أبـيض

وتغطرســت أفعــى فعطــرك أحمــرُ

وغــضبتَ، فــالوطن الكبــير عبــاءة

حطّــت عــلى بــردى ونــسرٌ أســمرُ

هــــشّمتَها أســـطورة.. وَذَروْتَهـــا

كــل الغــزاة.. عــلى العبــير تكــسروا

كــل الغــزاة... وظــلّ قنــديل الهــوى

أبـــدًا عـــلى العطـــر المـــدلّل يـــسهرُ

(ص٤٥)

تتعانق جدلية المكان والزمان في المجموعة الشعرية، حيث تغدو دمشق إرثًا تاريخيًا وقوميًا، يشهد على صمودها أمام العاديات، مدينة «تعبق بالمجد والشعر والياسمين»، إنها كما يقول: [حكايتنا العربية الأولى، وأقدم مدينة على وجه الأرض، جديرة بأكثر من شاعر، وأكثر من ديوان، هي قصيدة المبتدأ والمنتهى، يغدو الشاعر أمامها طفلاً يرضع من لبانها، وقصائده فيها ليست إلاَّ وقفة على شاطئ التاريخ الذي مايزال يحمل الشعراء على جناحيه. هي عبق التاريخ وحكاية الأزل، وأنشودة مجدٍ أرضعت مولد الدهر سناها العربي... مَنْ ذا الذي يستطيع أن يتجاوز عاصمة الحب والمجد والضوء إذا أراد أن يقول شعرًا، أو يغني لحنًا..؟].

ينقل الشاعر سليمان العيسى من ذاكرته كيف تواصل مع عاصمة الشام ثقافيًا، حين كان في قريته «النعيرية» طفلاً من خلال عدد من أعداد مجلة «المجمع العلمي العربي»، وقع في يده، فشدّته دراسات أعلامها في المجمع ومنهم: عبد القادر المغربي، وعز الدين التنوخي، وعبد القادر المبارك، وخليل مردم بك.. ثم نزح إليها بعد سلخ اللواء طفلاً مشردًا مع أقرانه، ومع معلمه الكبير «زكي الأرسوزي»، حيث سعوا بتوجيهه إلى تأسيس حزب البعث العربي، ويفرد سليمان لنشأة الحزب وبواكير نضاله القومي فصلاً وافيًا في المجموعة، يُعدّ جزءًا من سيرة حياته النضالية، وجهد

مؤسسي الحزب، ثم يغيب عنها ليتابع دراسته في جامعة بغداد، ثم مدرساً في حلب وشاعرًا يلهب الجماهير بقصائده القومية، دون أن ينقطع عن دمشق، أو يقطع صلته بها، ويسبقه إليها صدى قصائده الذي كان يتردّد قوياً في أوساط الشباب العربي وأبنائها، فإذا هو في نظرهم يعيش بينهم قبل أن يستقر فيها، فلما انتقل إليها موجهًا أول للغة العربية، شعر أنه لم يبدل مقره، فهو بين عشّاق شعره، وحاملي شعلة إبداعه، وقد قصّر في جمع بعض القصائد التي تؤكد حضوره الأدبي في المجتمع الدمشقي قبل استقراره بمدينة دمشق.

ويستقر الشاعر بدمشق في قبوٍ صغير، بـ«حي أبو رمانة» وتعكس قصائده عشق الشاعر لطبيعة دمشق، وولهه بجمالها الفاتن، والطبيعة أعدل من البشر حين تشرك الجميع بخيراتها:

ما أعذب الأنسام.. لو هدّأن فيَّ سعير جمرة

يلمسن وجهي بالعبير فيستحيل هوى وخمرة

ومما يبعث على الإعجاب، ارتياح الشاعر «سليمان العيسى» وانسجامه مع الحياة، واقتناعه بأَنَّ السعادة يوفرها الحب.. حب للكون وما فيه، والتناغم مع الطبيعة وما تحمل من فرح وفرّه عالمه الداخلي الغنيّ، فهو يرى في متع الحياة العابرة سعادة لا يراها الراكضون وراء جمع المال ومطامع الكسب، ومجد الحياة الزائف.. تسعده أغنية لفيروز أو سقوط حمامة على نافذة بيته، أو أضمومة من ياسمين دمشق، أو زقزقة عصافير تغزو حديقة منزله في الصباح، أو لقاء حميم مع طفل بريء، أو خرير نهر بردى يوزع الخير للجميع عند منبعه فيردد بلسانه:

أيار يغمرني بالشمس

يسكبني

في الغوطتين تراتيلاً من الأزل

على سرير دمشق استوي ملكًا

أوزع الحب والنعمى على مهلٍ

أعطي بلا ضجر.. حتى تجفّ يدي

يا آخر الورد.. قطِّرْ آخر القُبل (ص١٣٢)

فالشاعر مثل بردى يعطي ولا يسأل جزاء، ويشجيه همٌّ عامٌ ينغص سكينة روحه. ولدمشق وجهها التاريخي العريق يلتمسه الشاعر في آثارها وأوابدها وأضرحة أعلامها، فيوحي له قبر البطل صلاح الدين الأيوبي، حين يزوره بأبيات يخاطبه فيها، قائلاً:

تحـرّك مـلءَ قـبرك ثـم أومـئ ... إلى طفـل يقاتـل في «جنـين»
إلى بغـداد.. تـسبح في لظاهـا ... وتُحرَق.. وهـي شـامخة الأنـين
وقـل للغـزو والغـازين: إني ... هنـا.. ولألـف حطـينٍ حنينـي

(ص١٩٩)

*

ويستلهم الشاعر بطولات دمشق من قبة مسجدها الأموي، التي تُعرف بقبة النسر، فيرى فيها رمزًا لمدينة دمشق.. قبة الدهر المرفوعة على أعمدة الخطر والتصميم، بل رمزًا لتضحيات عرب فلسطين في التفافهم

حول قبة الأقصى، يدافعون عنها بالدم، ليظل الأقصى وقيمه الروحية صامدًا أمام الغزاة.

ياشـــــام.. في الجنـــــوب لي جنـــــاحْ

في صـــــخرة المعـــــراج لي جنـــــاحْ

ومـــــن دم الأطفـــــال في «قانـــــا»

ســـــأبقى شـــــبحًا يـــــصارع الريـــــاحْ

يحلـــم.. مَـــنْ قـــال بـــأن الحلـــم قـــد ألقـــى

لـــــصمتِ الأبـــــدِ الـــــسلاح

(ص١٣٤) *

أما وجه دمشق الإنساني، فيلتمسه الشاعر في وجوه أطفالها الذين غنّى لهم أروع أغانيه، وعرّفهم بماضي الأمة وأعلامها في الحرب والسلم، وشرح لهم انتماءهم القومي من خلال أسمائهم العربية، وطاف بهم في قطار الوحدة، ينتقل بهم من قطر إلى آخر حتى يصل بهم إلى دمشق، فيستقبلهم من معالمها «جبل قاسيون، ونهر بردى»:

بردى ياعصفورًا يكتب

يكتب شعرًا للأطفال

علّقنا بجناحك واركض

يانهر الأطفال

علقنا بجناح واسحرنا بجناح

بين يديك اليوم صغار

بين يديك غداً أبطال **(ص٢١٦)**

*

أما عن وجه دمشق النضالي، فالشاعر يكتب تاريخ دمشق بعطاء مدارس دمشق التي كانت عبر تاريخها مصانع للرجال، فالتجهيز الأولى أو ثانوية جودة الهاشمي هي التي احتضنت الشاعر ولقّنته دروس النضال في مواجهة الانتداب:

يـا دار.. يـا حجـرات الأمـس.. يـا صـخباً

مــا زال في الـسر، في جنبــيّ يــستعرُ

أنا الهـوى.. فخـذي همـسي.. خـذي عطـشي

لم ينطفــئ بعـــد، لا نــايٌ ولا وتـــر

هنـــا حملنـــا الـــصبا حلـــمًا وعاصـــفة

من بعـض مـا نبتغيـه الـشمس والقمـر

هنـــا بـــدأنا صـــلاة الجمـــر صـــافية

هنـا تحـدّى الغـزاة العطـرُ والزهـر

*

ولعلّ أروع ما يلتمسه الشاعر من وجه دمشق النضالي قوافل شهدائها الأبرار الخالدين في قصيدة متميزة التي تليق بعظمة الشهادة والشهداء على كثرة ما قيل فيهم:

نـــــاداهم الـــــبرقُّ فاجتــــازوه وانهمــــروا

عنـــد الـــشهيدِ تلاقـــى الله والبـــشر

نـــــاداهم المـــــوت فاختـــــاروه أغنيـــــة

خــضراء مــا مــسها عــود ولا وتــر

*

وفيها يقول:

تــشرين.. يــا موعــد الفرســان.. ياقــدرًا

يجثــو عــلى قــدميْ مــيلاده القــدر

دم الــشهيد أعــاد اللــون، لــون دمــي

وارتــدَّ مــلء جفــوني الــضوء والبــصر

يــا شــام مــدّي بــساط الحــب، واحــدة

كــأس العروبــة، وليخــضوضر الــسمر

اسـقي العطـاش، حـديث المجـد رائعـة

مــن الملاحــم يفنــى دونهــا الــسهر

لأننـــا وجـــذور الـــشمس في يـــدنا

نقاتـــل الحلـــم البـــاغي سننتـــصر

*

بهذا البعد الوحدوي القومي، لم يعد لدمشق ولا لسواها من العواصم العربية من التفرّد والتقوقع ما يجعلها كيانًا إقليميًا له وجوده المستقل عن جسد

الأمة، فلا خطر بعد أن يزهو بها ابن الشام من الزاوية الإقليمية الضيقة، فهي كبغداد والقاهرة وصنعاء أجزاء من كيان عربي واحد، يتمرأى للناظر مثلما تقلب الجوهرة تحت شعاع الشمس، فتُريك من ألوان بريقها المتوهج ما يرد الشعاع إلى مصدره.. إلى النبع والجذور، والشاعر «سليمان العيسى» أقدر مَنْ ا ستطاع أن يقرأ ويُقرئ أبناء أمته سفر العروبة من عواصمها المتفرقة، وهو ذلك السنونو الذي حكى قصته للأطفال، طار إلى عواصم العروبة باحثاً عما هو أثمن من الزاد، يحمل فوق جناحيه علم الوحدة، ولم يشعر أنه غريب في هذه العواصم والمدن، احتضنته القرية طفلاً، واستقر في حلب شاعرًا ومناضلاً وعاشقًا، واحتضنته بغداد طالبًا، واليمن باحثًا عن جذوره، وبقية العواصم العربية مبدعًا وصاحب رسالة قومية، واستقرَّ به المطاف في دمشق بعد ارتحال طويل وراء حلم لم يتخلَّ عنه، جاءها بعد نكسة حزيران، وهو أشد إيمانًا بدور الكلمة التي نذر حياته لها، فقدّم عطاءً لأمته دون منٍّ.. فلم يطلب إلاَّ ماكان يطلبه ذلك السنونو الذي يقطع البحار ليعود من رحلته إلى الشام.

في ربــوة الــشام عُــشٌّ   فيــه كنــوزي الفريــدة
لــو تعرفــون حنينــي   إلى كنــوزي الفريــدة
طفــولتي.. ورفــاقي   وذكريــاتي الــسعيدة

(ص ٢٠٥)

وأخيرًا.. حَسْبُ الشاعر سليمان العيسى أن له في كل قلب من قلوب أبناء العروبة زاوية لا يحتلها إلاَّ أصحاب الرسالات العظيمة المنزّهة عن كل مطمع.. وستظلّ قيثارته ربابة العربي يطوف بها في مضارب خيام العروبة إلى أن يتجسد الحلم.

حلب في ذاكرة سليمان العيسى

لم يكن ما كتبه الشاعر «سليمان العيسى» في كتابه «أنا وحلب» مجرد خواطر وذكريات عابرة، ولم يكن جزءاً من سيرة ذاتية لشاعر يريد أن يجسّد حياته على الورق، فمن وراء هذه الذكريات والخواطر تطلع إلى الثقافة العربية وإظهار لسماتها الإنسانية والقومية وغناها الروحي، واعتزاز بتراث هذه المدينة الخالدة التي احتضنت سيف الدولة، السيف العربي المدافع عن حياض الأمة في الشمال السوري، وشاعره الكبير المتنبي الذي سار بشعره الدهر.

مدينة «حلب» ذروة الثقافة والإبداع، وإذا أتيح لها فيما بعد شعراء يخلدون ذكرها بعد المتنبي.. منهم عمر أبو ريشة وسليمان العيسى، فهي مازالت تحلم بسيف دولة معاصر، لتمارس دورها القومي في قيادة معركة التحرير، وقد حملت هذا الحلم الكبير عبر العصور، ومازالت تقدم الكثير للإنسانية والتاريخ...

ترى.. ماذا أعطت مدينة حلب للشاعر سليمان العيسى.. يقول: [حلب.. التي أملت عليَّ نصف شعري، وأعطتني أسرتي الصغيرة، وأولادي الثلاثة، وقبل هذا وذاك... أعطتني رفيقة العمر وشريكة الكفاح التي ملأت ـ وما تزال ـ حياة شاعر، وكانت القصيدة الأولى التي ما أزال عاجزًا عن كتابتها].

على رباها عرفت الشعر والعربا

تباركـــــت صـــــخرة بيـــــضاء يابـــــسة

تُعطـــي العبـــاقر.. ســـمّاها الهـــوى: حلـــب

*

بين الشاعر سليمان ومدينة حلب أكثر من صلة، فقد جاء إليها بعد غربة وكفاح طويل، فوفّرت له الاستقرار والدفء، والتأمت فيها جراح غربته، وجد في رحابها أهلاً وعشيرًا، وكان يتطلع إلى تاريخها العربي المشرق عاصمة وثغراً من الثغور الشمالية، كانت تنطلق منها كل عام غزوات عربية إسلامية منذ زمن الخليفة هارون الرشيد، وحتى أيام سيف الدولة، فلا يجرؤ الروم على انتهاك حرمة تراب الوطن العربي.

ومن هذا الثغر العربي العريق كان «سليمان» يتطلع إلى ثورة عربية تسترد بها حلب دورها التاريخي القومي، فينشط في إعداد الأجيال ثقافيًا وتربويًا، وينجح مع رفاقه في تأسيس أول خلية بعثية فيها، ويسخّر موهبته الشعرية لهدفه القومي فيحيي أمسيات شعرية في دار الكتب الوطنية التي كان يديرها الشاعر عمر أبو ريشة، وهو صنو سليمان في الهم القومي.

*

مدينة حلب هي التي ألهمت الشاعر نصف شعره، وفيها أصدر باكورة دواوينه الشعرية «مع الفجر» وما كان له أن ينشط لولا ما وفرت له حلب من إرث ثقافي ونزعة قومية ترسخت في أبنائها على مرّ العصور، فكان وسطًا ملائمًا للبذرة العربية التي زرعها اللوائيون النازحون.

يتحدث «سليمان العيسى» من خلال ذكرياته عن السمات الثقافية لمدينة حلب في الخمسينيات من القرن الماضي بصورة غير مباشرة،وأول سمات هذه الثقافة: التسامح والتوحد، فيجد نفسه محاطاً بأكبر عدد من المثقفين، لا تفرق بينهم المذاهب والحدود الضيّقة.. ومن رجال أدب وعلم ودين عرفت حلب كيف تلمّهم في رابطة من الإخاء والتسامح والتعايش المشترك الذي جمع العربي والكردي والأرمني في مدينة فتحت صدرها للجميع، وخاب مسعى الأعداء في تأريث النزعات العنصرية والطائفية التي تطل برأسها اليوم على الوطن العربي في قمة ضعفه وتشرذمه.

ويتحدث الشاعر سليمان عن سمة ثانية من سمات ثقافة حلب العربية الإسلامية.. إنها ثقافة الحب الذي يتجلى بأحلى مظاهره في علاقة الشاعر بالناس وبطلابه في ثانوية المأمون التي كتب عنها، [فيها سأقضي بضعة عشر عاماً بين زملاء أحباء وأوفياء، فيهم الأديب والشاعر والرياضي والموسيقي وطلاب من ذلك الجيل الذي اشتعل في الخمسينيات وكاد يشعل الوطن العربي كله عروبة وأحلاماً وتطلعاً إلى غد عربي].

كانت الصلة بينه وبين طلابه أكثر من صلة معلم بتلميذ، كان واحداً منهم، ويعدون أنفسهم جزءاً منه، هذا الحب الإنساني العظيم الذي يصل بين الأجيال، ويحصّن الأمة من بذور التفرقة وما يزرعه الحقد والتعصب الأعمى من أدواء قاتلة تعصف بوحدة الأمة، وهو حب لم يكن مجرّد عاطفة إنسانية لا تجد طريقها إلى التطبيق، هو حب يترجم إلى ثقافة العمل والإخلاص، ويشير الشاعر إلى حرصه على إفادة طلابه في التدريس، والتماس أيسر الطرق لتحبيبهم اللغة العربية، كما يترجم ميوله الأدبية

وتطلعاته القومية إلى نشاط عملي يقوده إلى السجن دون أن يتراجع عن هدفه، وما أحوجنا اليوم إلى هذه الثقافة التي تقرن القول بالعمل وتستجيب لمتطلبات المرحلة الراهنة.

ولعلّ أروع ما يتحدث عنه الشاعر من خلال ذكرياته مايمكن أن نسميه ثقافة السلم بحلب في الخمسينيات، فالمدن العربية لم تكن مدنًا متخلفة ثقافياً وفنياً.. وكانت حلب مدينة راقية.. أبناؤها يتبادلون المناقشات الفكرية، ويستمعون إلى الموسيقا العربية والعالمية، ولا يحول عملهم بينهم وبين التمتع بالشعر والموسيقا والغناء، ففي غرفة الشاعر المتواضعة بحلب يقيم رفاقه حفلات بريئة يتخللها الغناء.

كانت المدن في سورية قبل النكبة تمارس ثقافة السلم بعيدة من تربية الإرهاب.. ولم تكن تتعاطى ثقافة الحرب إلاَّ بعد أن دفعها الإرهاب الصهيوني إلى المواجهة، مما أفسد جمال حياتها الوادعة الهانئة بما ارتكبه من مجازر دمرت البيئة الثقافية. ويزعم أعداء الأمة أن المرأة العربية مهانة وممتهنة، وماهم إلا قراءة ما كتبه الشاعر سليمان عن صلته بزوجته وأسرتها في صفحات مؤثرة، فهذا الأب النبيل المتسامح يسمح لابنته أن تسافر إلى بلاد الغرب للدراسة الجامعية، والزوج المؤمن بحق المرأة في التعليم يدفع زوجته إلى السفر يومياً لبيروت لتحضير شهادة الماجستير وما في غيابها عن البيت من مشقة وعبء في رعاية الأولاد.

في الكتاب قصائد مختارة للشاعر في حلب، وما أوحى جمالها وسحرها الطبيعي من مشاعر اقترنت بتجربة أول حب له كان مسرحه حدائق حلب الغناء ورياضها وشوارعها الدافئة بالبعد الإنساني، ومدارسها التي قضى

فيها الشاعر شطرًا من حياته، والغرفة المتواضعة التي احتضنته قرب المكتبة الوطنية، والقبو الذي كان يفيض بالماء، ويغرق بالطوفان، وما أغزر مطر حلب... يقول في ثانوية المأمون:

إذا رمـــى بـــك درب بالـــصبا عبـــقٌ
إلى مـــدارج صـــلينا بهـــا لهبـــا
إلى محاريـــب قـــدّمنا الفنـــاء بهـــا
ولا أقـــول الكفـــاح المـــرّ والتعبـــا
إذا انتهيـــتَ إلى «غـــبراء» مـــشرقة
بالقهقهـات، ودار الـشاي واصـطخبا
فـاترك عـلى رشـفات الـصحب لي قـدحاً
معطّـــراً بحنـــين العمـــر مختـــضبا
يـــا موقـــد النـــار.. مـــن أَسْـــآر جمرتنـــا
ماتحمـــل النـــار حتـــى تُطعـــم الحِقبـــا

*

ويشبه الشاعر حلب دائمًا بالصخرة، ويستمد هذا الشبه من طبيعة المدينة وصلابة إرادة أهلها في التماس الحرية والكرامة... وتبدو هذه الصخرة في غزلياته مسرحًا لحب دافق للأرض والمحبوبة يقول:

الـــصخرة الغرقـــى بأحلامهـــا   تُحـــسّ مـــثلي وحـــدة قاتلـــة
هـــذي خُطانـــا لم يـــزل وقعهـــا   وشوشـــة في ســـمعها ماثلـــة

تــسألني الــصخرة يــاطفلتي		عنــكِ.. وترتــدّ معــي ذاهلــة
ألم تكــن نرســو عــلى شــطها		طفلــين مثــلَ الــنغم الــشارد
في قبلـــة حالمـــة إن أضـــع		وإن تــضيعي فعــلى ســاعدي
تبــارك الحــب فكــم أرعــشت		يمنــاه قلــب الحجــر الهامــد

***

نلاحظ في كتاب «أنا وحلب» للشاعر سليمان العيسى العفوية والصدق والوضوح والقدرة على التعبير عن أعمق مكنون النفس بأيسر أساليب التعبير بعيدًا عن العقد النفسية والفذلكات الثقافية المعقدة التي نلمسها في كتابة السير والخواطر..

ويحق لمدينة حلب أن تزهو بالشاعر المتنبي وإن لم ينتم إليها مولدًا، كما يحق لها أن تعتز بانتماء الشاعر «سليمان العيسى» إليها، ومولده في جوارها في أعظم مدينة تاريخية حملت ثقافة الأمم وصهرتها، إنها إنطاكية جارة حلب والعاصمة التاريخية للسماء، وهما يلتقيان معاً على الاحتفاء بالشاعر سليمان رحمه الله.

* * *

فلسطين في شعر سليمان العيسى

مما لا ريب فيه أن «سليمان العيسى» تربع على عرش الشعر القومي خمسين عامًا، فلم تفتر له عزيمة، ولا توقف له قلم في هذا المجال الذي نذر له حياته وقلبه، حتى ليمكن القول إنه كان يحتل مكان الصدارة بين شعراء العروبة منذ الخمسينيات.. وظلَّ وفيّاً لرسالته في بعث الأمة العربية، وتحرير أجزائها المغتصبة، وتوحيد شملها المشتت على الرغم من بواعث اليأس والمثبطات التي كانت تحبط عزائم أصحاب الرسالات العظيمة من أمثاله. وقد سقط كثير منهم على دروب النضال أمام المغريات أو المنغصات، ولم يثبت إلاَّ نفر قليل كان الشاعر واحدًا منهم، بل أبرزهم جميعاً.

لقد تهيأت لـ «سليمان العيسى» عوامل فردية واجتماعية عصمته من التردي والسقوط، فعلى الصعيد الفردي نشأ الشاعر في بيت يحتفي بالقيم السامية، ويعلي المثل النبيلة في الحياة، كان والده رجل دين وعلم، وآثر أن ينشئ ولده على مكارم الأخلاق والطموح والمكرمات، ويعصمه عن مغريات الحياة في مجتمع يدلف باستمرار نحو القيم المادية، ولاقت هذه التربية استعدادًا في شخصية الشاعر، فهو إنساني النزعة يشهد له كل من عايشه بالتمسك بمبادئ خلقية لا يحيد عنها، يحب الناس، ويعيش بينهم في عالم من الغيرية والإيثار، وينشد في حياته كل ما يغذي روحه وفنه دون التفات إلى أعراض الدنيا المغرية كالمناصب والجاه، فقد رأى مجده وجاهه في فنه وفكره وأتيحت له ظروف أهلته لتسنم أرفع المناصب لو شاء، لكنه

أشاح بوجهه عنها لأنه رآها دون مكانته الفنية رفعة، وآمن أنها ستصرفه عن أقدس رسالة نذر نفسه لها.. شأنه شأن أصحاب الرسالات النبيلة من الملهمين والمبدعين.

بعض النقاد يرى أن انتماءه السياسي كان عاملاً من عوامل شهرته، بالقياس إلى أقرانه من الشعراء الذين لم يكن لهم حزب يدعمهم أو يروج لشعرهم وهو تفسير ساذج لمكانة الشاعر وسيرورة شعره. لقد قدم «سليمان» لعقيدته القومية ومنحها ظهورًا جماهيريًا يتجاوز بمراحل ما أفاد منها، فكان شعره عاملاً أساسيًا من عوامل انتشار عقيدة القومية العربية بين الناس، وجذب الجماهير العريضة إليها، ذلك أن الشعر في حياة الإنسان العربي كان منذ الجاهلية لسان الجماعة المعبر، وسبيلاً إلى الدفاع عن العقائد والمذاهب والدعوة إليها.

ونلاحظ أن عظمة شعر سليمان العيسى تتجلى في صدقه، وللقراء بصيرة دقيقة في تمييز الكلمة الصادقة، فقد لمسوا في شعره تعبيرًا صادقًا عن المعاناة القومية والاجتماعية، وتعبيرًا أميناً عن التوحد المطلق بجسد الأمة، كما يتوحد الصوفي بحب الله.. فكان يجترئ على تقريع أبناء أمته لأنه يرى مصيره في مصيرها، دون أن يفرق بين ذاته وذات الجماعة:

يا أمة أدللتُ أمس ببأسها ورفعتُ هامي

ملَّ الخنوع لفرط ما مرغت روحك في الرّغامِ

أنا إن قذفتكِ بالجحيمِ بكل بركاني وناري

فلأنني أحياكِ في أعماق صمتي وانفجاري

وأحـس أن دمـاركِ المحتـوم لـيس سـوى دمـاري
مـا كـان ثـأرك يـا بـلادي مـن عـدوكِ غـير ثـاري

هذا التوحد الصوفي جعل قضية الأمة قضية ذاتية بالنسبة إليه، وكان يراها قضية كل فرد عربي، ويجيز لنفسه أن يلوم الجماهير الغافلة عن حقها بقسوة تذكر بصيحات روّاد النهضة القومية، ولم تكن قسوته على أعداء الأمة في الداخل والخارج أقل عنفًا وإنذارًا.

لقد ملك الشاعر وعيًا قوميّاً مبكرّاً بسبب الظروف التي تعرض لها وطنه السليب «اسكندرون» وأدرك من خلال المأساة وتشريد أهله كيف تؤثر المحنة الوطنية على حياة الإنسان، فخرج من بيته طفلاً مشردًا إلى سورية، ليلمح في الأفق السياسي بوادر اقتطاع أرض فلسطين من جسد الأمة العربية، وكان بين المأساتين وجوه تماثل ونسب، فكلتاهما ذهب نتيجة صفقات مشبوهة تمت بين عملاء الداخل والخارج يقول فيهم سليمان:

أوليــت أمــرك خــادعين ... يمزقونــك كيــف شــاؤوا
هـــم داؤك الفتـــاكُ ... لا البؤس الملحُّ ولا الـشقاءُ
بـدمارك افترشـوا النعـيم ... ومــاج حــولهمُ الثــراء
بــدم الجيــاعِ ودمعهــم ... شيدت قـصورهم الوضـاءُ
مهــلاً ســينهتك الــستارُ ... إذا تكلمــت الــدماءُ

وفي الخمسينيات كان الشاعر في الخامسة والعشرين من عمره، وقد زودته محنة «اسكندرون» بوعي مبكر دفعه إلى اختيار مسار حياته داعية قوميّاً بعد أن تخرج في دار المعلمين العالية ببغداد وعين مدرسًا للغة العربية

في مدينة حلب، وكانت قضية فلسطين قد بلغت حدة تأزمها في تلك الفترة فخصَّها بثلث ديوانه وراح يحدو المناضلين دون الحق الفلسطيني ويشحذ العزائم الراكدة.

أسمعه يخاطب أمته قائلاً:

شدي جراحك من جديد ... وامشي على ومض الرعودِ
وتكلمي لكنْ بألسنة اللهيـ ... ـب وبالحديد

وفيها يحمل حملة شعواء على «تيجان العروبة» التي كانت ضائعة في المؤامرة منذ قدوم الهجرات الصهيونية إلى أرض فلسطين.. يقول:

قالوا فلسطين فقلنا ... دونها وَخْزُ القتادِ
أرأيتِ «تيجان العروبة» ... وهي مهزلةُ العباد؟
أشهدتِ هام عروشنا ... تُحْنَى جسورًا للأعادي؟
أين الجهاد؟ وأين أبوا ... ق البطولة يا بلادي
لفظت فلسطين الحياةِ ... ومجرموك على الحيادِ!!

**

وأيُّ حياد كان حياد هؤلاء الملوك؟.. إنه أشبه بحياد حكام العرب من مأساة سلخ لواء اسكندرون التي تمت على مرأى منهم.

وتستقبل سورية وفود المهجرين من فلسطين كما استقبلت مهجري اسكندرون من قبل، فيهز الشاعر مرأى قوافلهم، وخيامهم المنصوبة مع كل ريح، ويرى فيها صورة نزوحه، فيثيره منظر بؤسهم ويتذكر مأساة تشرده من اللواء.. يقول:

للـــريح لـــسعٌ كالـــسياطِ		ولـلـــــدجى زأرٌ مخيـــــفُ

**

في الـــسيلِ.. تحـــت الزمهريـــرِ وبـــين لعلعـــة الريـــاحِ
راحـــت تـــشقُّ الكتلـــة الـــسوداءَ حـــشرجةُ النـــواح
وتـــدق ســـمع الليـــل والأفـــلاك مُثْخَنـــة الجـــراح
وتزحزحـــت «خـــرقٌ» ممزقـــةٌ عـــلى جـــسد مبـــاح
وتململـــل الجـــسد الطـــريح عـــلى خيـــال مـــن «ســـماح»
ولمحتـــه، المـــوتُ.. والجـــوعُ المـــروِّعُ، في كفـــاح

*

أيكـــون أفجـــع أو أشـــدَّ تعاســـةً.. تحـــت الـــسماء
شـــيخٌ وأربعـــة مـــن الفِلَـــذ الـــصغار عـــلى العَـــراءِ
نـــاموا يلفهـــمُ الرصـــيفُ كـــأنهم بعـــض الغُثـــاءِ
الزمهريـــرُ غطـــاؤهم قنعـــوا بـــذاكَ مـــن الغِطـــاءِ
وســـمعت عـــشر تتنهـــدات أرجفـــت قلـــب الـــسماءِ

ويرى الشاعر في هذه الخرق والأسمال فلول شعب مشرد، وكرامة إنسانية مهدورة، فيخاطب النازح الذي يذكِّر بمأساته:

عفـــوًا أبـــا الفِلَـــذِ العـــراة		إذا نكـــأت بـــك المـــصابا
ولمـــستُ جرحـــك بالنـــشيد		فـــضجَّ في شـــفتي التهابـــا
أنـــا مثلـــك اســـتلبوا		ملاعـــب فجـــري الأولى اســـتلابا

أنا مثلك اغتصبوا تراب طفولتي الحلـــــو اغتـــــصابا
أنا لـــيس لي وطـــن ولا دارُ أُوَشْوِشُـــــهُ العتابـــا
وأطـــير تحـــت ســـمائه حـــرًا وأقتـــنص الـــشبابا
أنظـــر، أتبـــصر فوقـــه إلاَّ الأراقـــم والـــذئابا؟

*

لم يكن شعر «سليمان العيسى» في هذه المرحلة شعر مناسبات عابرة، كانت مأساة فلسطين هاجسه الدائم، فشبحها ماثل أمام عينيه يقض مضجعه.. وهو لا يني يحرض ويحث على النضال، ويصور الواقع المأساوي منذ الخمسينيات، فنلمح في شعره الفلسطيني غنائية ومباشرة ودفقًا وجدانيًا يلفّعه الانفعال، ويعكس عمق المأساة في نفسه، ولجوءًا إلى المجاز، وتواترًا يكشف عن المشاعر الصادقة.. فما كان للشاعر سليمان أن يخاطب الشعب بالرمز والتلميح الغامض، وهو يدرك أن الفئة التي يعول عليها في تفجير الثورة هي صفوة الفقراء من أبناء الأمة، وأبناء فلسطين الذين لم تتح لهم ظروفهم البائسة امتلاك ثقافة عميقة، كانت الخطابية شرطًا أساسيًا.. والوضوح والصراحة لديه أيسر طريق لمفاتحة الجماهير بما يحاك لها من مؤامرات، ولو سلك غير هذا المسلك الفني لما كان لشعره تلك السيرورة أو التأثير في المد الجماهيري الذي شهده العالم في الخمسينيات... حيث كانت قصائد سليمان العيسى تنسخ وتتداول وتتسرب إلى الأكواخ والخيام. ومن الملاحظ أن النقاد يطيب لهم أن يفرقوا بين شعر فلسطين داخل الأرض المحتلة وشعر فلسطين خارجها في تلك الفترة، وفاتهم أنه في مرحلة التشرد والتهجير لم يبق إلاَّ أصوات هؤلاء الشعراء من غير أبناء فلسطين ومن

خارجها تنبري للمقاومة والرفض، وهي وحدها التي تحملت عبء التعبير عن مقاومة الاحتلال في السنوات التي سبقت حركة المقاومة الفلسطينية، وأولئك النقاد الذين اتهموا شعر هذه المرحلة بالبكائية التي تجلت في شعر «سليمان العيسى» وأقرانه بتصوير البؤس والتشرد واليأس لم يكونوا منصفين في حكمهم، فقد اتخذ ذلك التصوير من الشعراء سلاحًا لشحذ العزائم، وطريقًا إلى العمليات الفدائية من خارج الأرض المحتلة التي كان وقودها أطفال الخيام المشردون أنفسهم، وهؤلاء هم أصحاب المصلحة الحقيقية في العودة، الذين لمسوا في شعر تلك المرحلة تبصيرهم بمأساتهم:

ألـــوفٌ مـــن الخـــرق الباليـــات	**تُبَعثَـــر في الأرض أو تُحـــشَدُ**
ألـــوفٌ يـــسمونها اللاجئـــين	**عـــلى كـــل منعطـــف ترقـــدُ**
ألـــوف سننـــضمُّ يومًـــا أنـــا	**وأنـــت إلـــيهم، أتـــستبعدُ؟**

* * *

كان الهدف من التهجير صرف هؤلاء عن قضية الوطن، وإشغالهم بلقمة العيش والمأوى عن تحرير الأرض، وما كان من سبيل إلى توعيتهم إلاَّ بذلك الشعر المتفجر كالحمم لإحباط المؤامرة، والدفاع عن هؤلاء الذين استهدفوا من النكبة. والشاعر سليمان يرافقهم في ضياعهم، يتحدث عن الفلسطينية ابنة العشرين التي جنحت في سبيل لقمة العيش، فقيدت إلى زنزانة في جواره يوم سجن في دمشق عام ١٩٥٤م بسبب مواقفه الثورية، ولا يرى في فعلتها جريمة نكراء إذا قيست بجرائم أولئك الذين سلموا وطنها للصهاينة:

على بؤسكِ ارتفع المجرمون | علـى عـاركِ اتَّـشحوا بـالقممْ

**

أريـنــي أميـنــاً عــلى حرمــةٍ | وأشـــلاؤنا نهبــةُ الناهـــبِ
وأطـــراف أرضيَ مبتـــورةٌ | وثــارات قــومي بــلا طالــبِ

**

كان الشاعر «سليمان العيسى» يتمسك بحلمه معوِّلاً على أجيال المستقبل من أبناء فلسطين، والجماهير العربية، وقد شبَّه نفسه في قصيدته، شاعر ولاجئ، بالحالم السادر الملقى على خشبة النظارة، لكن فكره حرٌّ طليقٌ ينتقل كالشعاع من قطر إلى آخر يداوي جراحاته، ويتحدى جلاديه بالبسمة الساخرة، ويقيم المفارقات المضحكة، لأنه لا يريد الاستسلام لليأس:

لا.. لــن أقطِّــبَ حــاجبيَّ | ولا أنـــا بـــالفجر كـــافرْ
إن الغــد العــربي يــا حــوراء | مثـــل الـــصبح ســـافر
غـــدُ أُمتـــي رغـــم النظــارة | واســـعٌ كـــالكون ســـاحر

لكن الغد لم يطلع عليه إلاَّ بألم الخيبات، فقد كانت المؤامرة أقوى من كل حلم متخيل، كانت قادرة على أن تصادر الحلم والواقع، وتحبط الرجاء الذي علقته الأمة على العمليات الفدائية التي شقت طريقًا قويًا عقدًا من الزمن من خارج الأرض المحتلة من منظمات فلسطينية اختلط فيها الحابل بالنابل، ولغمت من داخل أقدس الشعارات، وجرت تصفية كل جهد قومي أو تطلع واعد، فيتساقط شهداء المقاومة.. ويبكيهم الشاعر بدموع حرَّى، وبملاحم يكتبها بمناسبة سقوط أي منارة من منارات المقاومة، حتى

ليحتل شعر المقاومة الفدائية أكثر من نصف ديوانه، فإذا لم تمده الأحداث بدافع التعبير، اختلق دافعًا له من نفسه وتأملاته.. فيكتب..

مسرحية «الشاعر والأصوات»، و«رسائل إلى لاجئة»، وهي إحدى وعشرون رسالة.. ويحدو للعمل الفدائي الذي رأى فيه أمل الأمة في استرجاع كرامتها، ولم شملها.. يقول:

صليتُ للوحدةِ الكبرى كتبتُ دمي
شعرًا جعلتُ وجودي من منابره
إذا تنهدتُ عن بيت أفيء لهُ
تلقف الحزنُ آهاتي بباتره
رثيتُ للموكب المشلول في بلدي
أشبعتُ مقهوره دمعاً كقاهره
في ظلمة القبر والمحتلُّ يسفحنا
على الثرى قهقهات من حناجره
وأمتي كلها في الدرب لاجئة
ولا حق السيل محتوم كغابره
وقيل: دق فدائي بقبضته
باب الحياة على أنقاض دائرهِ
صوت تَفَتَّحُ أبواب النهار له
وتستضيءُ بخيط من ضفائرهِ
يا خطوةً في ظلام الموت واثقةً
أنت الطريق فشقّيه لعابره

وتتوالى قوافل شهداء العمل الفدائي فيمجد «سليمان العيسى» عملهم البطولي ويرثيهم رموزًا لمقاومة المحتل... ويبدو أنه كان أكثر شعراء المقاومة عطاءً في تلك الفترة، وأطولهم نفسًا، لقد كان يعلق آمالاً كبيرة على العمل الفدائي:

يا أيها الطائر من دمٍ إلى دمٍ

خميرةً في رحم الترابْ

حتى إذا تشقق الضبابْ

حينئذٍ تكون أنت الرعد والمطر

والخصب والثمرْ

حينئذٍ تفجر الربيع

تعود بالجميع

* * *

طوال عشرين عامًا رافق «سليمان العيسى» حركة الفداء الفلسطيني، يغني لقوافلها مستميتًا ويبعث في النفوس الأمل بالتحرير. وكان في عطائه يترسم خطا شعراء المقاومة العالميين، أمثال: لوركا... وبول إيلوار.. فقد ظل شعره مرتبطًا بالغنائية ارتباطًا وثيقًا، متدفقًا كالينبوع، رهيفًا كنصل سيف، يعكس قلق روحه والتزامه.

وجاء الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م، لتصفية مد العمل الفدائي، ومحاولة إخماده، لكن المقاومة تتفجر من داخل الأرض المحتلة، وفات العدو أن

الثورة كالينابيع إن رجمت بالحجارة فإن ماءها سيلتمس له منفذًا آخر. وبدت المقاومة لدى أطفال الحجارة أكثر إثارة، وقبولاً من العالم، لأنها تفصح عن رموز فلسطينية غنية، عن إنسانية الثورة الفلسطينية وتجاوز العنف وقوة التعبير عن الظلم. وتسلم الأطفال راية الكفاح، لكن بالحجر والاحتجاج السلمي بدل السلاح، فرأى «سليمان العيسى» في هذه الثورة هوية الشعب الفلسطيني وانتماءه وتاريخه ومستقبله المشرق حيث تهيء القدس الجريح لأبنائها ثوبها المطرز بالأرجوان، وتستعد لعرسها العربي، رأى فيها ثمار غرسه الذي غرسه حين كتب للأطفال أناشيد ومسرحيات تحث على المقاومة:

هذا زمان النابتين من الرمادِ

زمانُ أطفالي

الذين طوتهمُ الأنقاضُ

في بيروت.. في صبرا وشاتيلا

زمان القادمين على جواد المستحيلِ

يلقّمون البرق صعقته وناره

ويخص الشاعر «سليمان العيسى» أطفال الحجارة بأكثر من قصيدة بالإضافة إلى أعماله في الأدب الطفولي الذي خص فلسطين منه بأناشيد ومسرحيات عديدة... وكأنه في شعر الأطفال الذي نظمه كان يمهد لثورة أطفال الحجارة، ولعل فكرة إشراك الطفل الفلسطيني في العمل الفدائي والمقاومة قد استمدت أصلاً من شعر شاعرنا للأطفال، ففيه يحمِّل أطفال الوطن العربي وأبناء فلسطين مسؤولية المشاركة في تحرير الأرض، ويُعدّهم

لمستقبل نضالي، لإيمانه بدور التربية القومية وخشيته من أن تنسى الأجيال القادمة وطنها، وما حارب من أجله الآباء، وما مات في سبيله الشهداء.

لقد أتعبت ثورة أطفال الحجارة المحتل، وفضحت عدوانيته ووحشيته، كما كسبت الثورة الفلسطينية تأييداً عالمياً، وكان لأناشيد «سليمان العيسى» المدرسية خير زادٍ لإعداد جيل الثورة:

لكـــي تخـضرَّ يــا بلــدي   وتخفـــق رايـــة العـــربِ
عــلى الأرض التــي عاشـت   بــساطَ هــوىً ومهـد نبـي
لكـــي لا تُطْفَــأَ البــسماتُ   كنـــا موجـــة الغـــضبِ
وقاتلْنـــا وتحـــت بيـــارق   الـــــشهداء مـــــات أبي

**

ولا ننسى النشيد الذي ردده أبطال المقاومة، وهم صغار على مقاعد الدراسة:

فلـــــــسطين داري   ودرب انتـــــــصاري
تظـــــلُّ بـــــلادي   هـــــوىً في فـــــؤادي
ولحنًـــــا أبيـــــاً   عـــــلى شـــــفتيا
وجـــــوه غريبـــــة   بـــــأرضي الـــــسليبة
تبيـــــعُ ثـــــماري   وتحتـــــــلُّ داري
وأعـــــــرفُ دربي   ويرجـــــعُ شـــــعبي
إلى بيـــــت جـــــدي   إلى دفـءِ مهـــــــدي

بهذه التربية النضالية، غرس الشاعر «سليمان العيسى» حب فلسطين في قلوب الأطفال قبل أن تقوم ثورة الحجارة بسنوات، فرأى فيها المحتل وأعوانه في الداخل ماهو أخطر من الجيوش.

لقد تضافرت قوى البغي من الخارج والداخل لتصفية ثورة الحجارة، وإجهاض أي نفسٍ للمقاومة، لكن ينابيعها المرجومة بالحجارة ستلتمس لها منفذًا آخر للعطاء. حقيقة مطلقة آمن بها شاعرنا، وسخر من الذين يريدون أن يطفئوا بركان الثورة المتفجر، ويحولوا بين الأجيال والراية العربية التي تسلمتها من يد إلى يد أخرى عبر التاريخ:

يا خافقةً أبدًا في الشمس

لا بدَّ من الفجر الأنضرْ

لا بدَّ من الوطنِ الأكبرْ

يا رايتنا الشماءْ

يا أغنية الشهداء

الليلُ الأسودُ يلتهبُ

والقادم بالنصر العربُ

* * *

بهذه الأنفاس الملتهبة.. يخاطب الشاعر «سليمان العيسى» الأطفال، فيدلل أنه أبرز شعراء الأمة العربية إيماناً بالمستقبل العربي، وأكثرهم تمسكاً بحق فلسطين في الحياة الحرة، مهما طال ليل الظلم، وتضافرت قوى البغي والعدوان.

* * *

القدس في شعر سليمان العيسى

آثر شاعر العروبة «سليمان العيسى» أن يعيد ترتيب شعره القومي الذي ورد في ودواوينه الشعرية التي سبقت نشر ديوانه الشعري الشامل في إطار جديد، حيث ضمت هذه المختارات ما أبدعته قريحته من شعر يعزّز مسيرة الأقطار العربية في تطلعها إلى الحرية والوحدة والعدالة الاجتماعية، بحكم أن لكل قطر خصوصيته على صعيد النضال القومي وتاريخه المستقل في مواجهة أعداء الشعب والأمة.

لم تكن هذه الرحلة بين العواصم العربية تحمل أي طابع إقليمي أو تجزيئي، لكنها بحكم تعدد مساراتها ومشاركة الشاعر الشاملة في تحفيز الجماهير في كل بقعة من الوطن العربي، فرضت عليه أن يتوجّه لكل إقليم بشعره ويواكب انتفاضاته المتلاحقة في حدود الزمان والمكان، لكن رسالته الشعرية في جوهرها ظلت دعوة قومية ترفض التجزئة والحدود المصطنعة، وتدعو إلى الوحدة في بعدها القومي والاجتماعي والإنساني.

يقول الشاعر «سليمان العيسى» في مقدمة هذه المختارات:

[أن تكتب للقدس.. فهذا يعني بكل بساطة أن تكتب لفلسطين كلها، أن تكتب لكل بقعة اقتطعت من هذا الجسد العربي الكبير، وأصبحت محتلة، وحين أمسك بالقلم، وأجرّب أن أكتب شعرًا أو نثرًا عن هذا الوطن الممزق، الرائع، الكبير، الذي سميته على امتداد العمر وطني، فإنني لا

أستطيع أن أميّز بين بقعة وبقعة، أو مدينة ومدينة، كلّه «في شهقة الجرح وطن»، كما قلت في إحدى قصائدي.. كلنا في معركة البقاء قصيدة واحدة، ترفض الموت وتصرّ على حقها في الحياة..].

فرضت التجزئة إذن أن يكون لكل قطر تاريخه النضالي المستقلّ، واضطر الشاعر أن يواكب بشعره القومي مسيرة هذا النضال، ناطقًا بلسان الجماهير العربية كلها، وما من شاعر قبل سليمان العيسى نذر نفسه كليًا لحلم حرية الشعب العربي ووحدته والدفاع عن حقوقه المسلوبة، وهو الذي اكتوى بنار التشرد عن وطنه الصغير اللواء يافعًا، وصهرته المحنة بنارها، فأدرك معنى أن ينتزع الإنسان من وطنه، وهيأت له التجربة أن يدرك أبعاد المؤامرة وحجمها، ورموزها في الخارج والداخل، وما يعوق الجسد العربي عن النهوض من أدواء أخطرها التجزئة والتفرقة العنصرية والطبقية والمذهبية التي مازال أعداء الأمة يؤرثون نارها، فراح يدرأ ذلك كله بشعر ملتزم لاهب، ولا سلاح له إلاّ إيمانه الذي لا يتزحزح بحلم الوحدة والتحرير، على ضعف ما يملكه الشعب من مقوّمات النهوض إلاّ إرادته وتصميمه:

تفـــتح الـــشمس كـــوّة في ضـــبابي
فأنـــادي يـــشق صـــوتي محـــاري
أتحـــدّى ظـــلي ومـــن ســـلخوني
عنـــه، أبكـــي عـــلى الـــصقيع قـــراري
لـــيس لي في جحـــيم هـــذي المهـــاوي
لـــيس لي غـــير كـــوة مـــن نهـــارِ

لــــيس لي غيرهـــا هــــي العبــق البـــاقي

بهـــــذا المهـــــــشم المتـــــــواري

هـــي غيمــــي الــــذي يخبـــئ برقـــــي

ورعــــــودي.. وغيثـــــي المـــــدرار

فتحــت جرحنـــا العظـــيم فلـــسطين

وقالـــت: بـــدء البـــدايات.. ثـــاري

تلمـــع القـــدس شــــهقة في حريقـــــي

وتظـــــل انتفاضــــــة في انتظـــــاري

*

ويسعد الشاعر أن تتحقق بعض المكاسب من هذا المدّ الجماهيري فتستقل بعض الأقطار العربية، ويطوي جناحيه عن التحليق في عوالم هذه الانتفاضات والثورات القطرية التي غنّى لها، لكن قلقه لا يسكّن ثورة روحه، فالانتصارات القطرية التي أفضت إلى استقلال الأقطار العربية لم تكن إلاَّ مرحلة من الحلم الكبير، ولم تفضِ إلاَّ إلى لون هش من الاستقلال ظاهره الحرية وباطنه القيد، هي حرية يسهل على أعداء الأمة مصادرتها في كل لحظة، وهو استقلال كرّس الإقليمية والتجزئة، وأقام دويلات يتولّى أمرها مَنْ تشغلهم مصالحهم الخاصة ونزعاتهم الذاتية عن التفكير ببعث الأمّة من مرقدها، وتمليكها أسباب القوة بالتنازل عن المكاسب الرخيصة، والمجد الزائف:

أنـــــت بالمأســـــاة أدرى فاروهـــــا
وأزح عـــــن «مجرميهـــــا» الحجبـــــا
في فـــؤاد القـــدس جـــرحٌ صـــارخٌ
لم يـــزلْ يـــشكو العـــدو الأقربـــا
الوجـــوه الـــسود.. لا يُخجلهـــا
وطـــن ضـــاع، وحـــق غُـــصبا
إن للثـــــأر ليومـــــاً أحمـــــرا
يفـــرج الخطـــب، ويجلـــو الكربـــا

*

وقد شغلت مواجهة الاستعمار الشعب العربي ثلاثة عقود من الزمن، بل أراد له الاستعمار بخبث أن يحوّل طاقاته كلها لنيل حريته السياسية واستقلاله، وفي غمرة هذه المواجهة كان يهيئ بالتعاون مع الصهيونية لخلق كيان زائف في قلب فلسطين من خلال اختلاف تاريخ وهمي للصهيونية فيها، وطمس تاريخها الحقيقي، وأفاق الشعب العربي في مختلف أقطار العروبة على الخطر الداهم. فهذا الكيان الذي يخفي وراءه مؤامرة اجتثاث الأمة من جذورها، هو أخطر من كل أشكال الاستعمار التي واجهها الشعب العربي بما يحمل من نزعة عنصرية متطرفة، ومطامع سياسية توسعية وأهداف اقتصادية تتطلع إلى احتياز طاقات الأمة ومواردها، ورأى الشاعر في هذا الكيان منذ الأربعينيات من القرن المنصرم أكبر محنة تواجه الأمة،

فقضية فلسطين هي محور القضايا القومية الهامشية الأخرى، تحريرها هو تحرير للأمة كلها، وهي المحنة التي سترغم العرب على تفرّقهم وانشغالهم بخلافاتهم الضيقة على التوحّد،وتجاوز مشكلاتهم الإقليمية الخاصة، حلم قوي طموح لم يتحول عنه الشاعر سليمان العيسى منذ أن قرزم الشعر، وقد ربط أمله بجماهير أمته:

كـالموج مـن قلـب المحـيط ... يـدق رأس الـصخر دقـا
لا يـستريح، ولا يمـلّ ... وكالـضحى كالليـل يبقـى
كـالموج نحـن الظـامئين ... إلى غـد أسـمى وأنقـى
جيـل يمـوت، وآخـر ... حطبًـا لنـار الظلـم يُلقـى
كـالموج نحـن.. جـذور هـذي ... الأرض.. مثل الأرض نبقى

**

ويدرك الشاعر أن المواجهة طويلة وممتدة عبر الزمان والمكان، لكنه لا ييأس أبداً، بل يدرك أن درب الآلام مخضب بالدماء والتضحيات، لكن الهدف العظيم جدير بالدماء:

كـالبحر نحـن وصـدقيني ... أننـا أبقـى ثباتـا
مـاذا؟! إذا متنـا، إذا ... مـا الجيـل والجـيلان ماتـا
مَـنْ قـال: إن الأرض ... أرض المجد لا تُـسقى رفاتـا
من قلـب هـذا الجـدب هـذا ... المـوت.. أنتظـر الحيـاةَ..

*

مع الشاعر «سليمان العيسى» بدأ شعر المقاومة العربية، وكان الشعر الوطني والقومي قبله صدىً لأحداث ومناسبات عابرة، فبفضله أمسى رسالة تحرير والتزام، ربما لم ينجح شاعر قبله مثلما نجح في تحريك الجماهير العربية وبخاصة في بلدة سورية، وحشد طاقاتها للمعركة، ومع نفاد صبره أحيانًا من تنوير جماهيره. وعسر الدرب ومشقاته عليه شاعرًا للعروبة وواجهة لسهام المغرضين والمتآمرين والعملاء، وعلى الجماهير المرهقة استغلالاً، وظلمًا إلاَّ أنه يُعد بحق الماهد لأدب المقاومة الفلسطينية، فهذا التمنع القومي والحصانة والوعي الذي تميز به الشعب العربي في سورية، لم يكن إرثًا تاريخياً فحسب، أكسبته الشخصية السورية عبر تاريخها الطويل من المواجهات، بل كان ثمرة جهد تنويري قاده «سليمان العيسى» شاعرًا ومربيًا ومناضلاً تجاوز نتاجه من حيث الحجم والتأثير نتاج سلفه من الشعراء لإصراره على الهدف:

المحيط الميت باق

وأنا ملاّحه المهزوم باق

وستنهار، ستنهار الجزيرة

عندما تصحو عظامي المستجيرة

ومن الذل الذي يسحقني

عربيًا سوف أبقى

شاعرًا للنور، إنسانًا سأبقى

كجذور السنديان

كالصحارى كالزمان

سوف أبقى... سوف أبقى

*

سمّه ما شئت، عنادًا أو مكابرة أو تحديّاً، هذا هو شأن أصحاب الرسالات ممن يؤمنون بأهدافهم، ولا يتحولون عنها على ما يتعرضون له من إرهاب وسجن وتشريد.

بدت قضية فلسطين محور التزام الشاعر، وشغله الشاغل، لم يعن كثيرًا بتسفيه حق الصهيونية المزعوم بالأرض في شعره، ولا شغله الجدل العقيم حول أسطورة إرث الأرض المزعوم، ولا صدر في دفاعه عن الحق العربي فيها من نزعة عنصرية، فالتزوير باطل مهما أوتي من قوة، وهو يتناول قضيتها من زاوية إنسانية خالصة، وهو ما أكسب شعره مصداقية الطرح والعلاج...

[إن مدينة السلام ـ أي القدس ـ لا يمكن أن تكون إلاَّ مدينة الحب والسلام والشعر والجمال للجميع]، وهو بذلك يعكس إرثًا من الإخاء والتسامح تميزت به الحضارة العربية الإسلامية حين فسحت للجميع في مسيرتها التعايش والإخاء والمحبة، واحتضنت الجميع في قلبها الرحيب، وما ساعد على سيرورة شعره أيضًا النقلة الفنية التي حققها بابتعاده عن المباشرة، واعتماده أساليب فنية في تناول جوانب القضية الفلسطينية، ترتكز على أسس من الواقعية الحديثة في مضامينها، وتخاطب بأسلوب رومانسي عواطف القارئ ووجدانه.

ومن أبرز هذه الأساليب استغلاله مناسبات الحياة العابرة وصوغها بقالب حكاية لتكون إطاراً لشعره الذي اتسم بنبرة تبشيرية.

تهزه قصة اللاجئة التي تمّ توقيفها في النظارة بدمشق، لأنها اضطرت وهي الحرة أن تبيع جسدها حين جاعت:

وتُلقي بعشرين من عمرها لظلمة درب بلا آخر
لكل يد.. لوّحت بالرغيف بمأوى، بأي جَداً عابر

*

فيدافع عنها مندّداً بعدالة المدافعين عن الفضيلة وهم أشد جرمًا:

على بؤسك ارتفع المجرمون على عارك اتشحوا بالقمم
فما كان باري الوجود العظيم لينقم من عدم في عدم

*

ويستغل واقعة توقيفه والتحقيق معه، وغطرسة المحقق الذي تجاهله، إذ سأله مَنْ يكون، فيسخر منه قائلاً:

أنا شاعر، ومدرس يُرضي البلاغة حيث صالا
أنا شهقة المتضورين طوى.. وأنات الثكالى
أعرفت من أنا؟ واقفًا أبدو بزاويتي خيالا

وقد تأخذ القصيدة طابع رسالة يوجهها الشاعر إلى اللاجئ الفلسطيني، أو يستثيره مرور نعش فدائي عربي يمر في أحد شوارع دمشق، فيصف المشهد الذي لا يحرك القائمين على شؤون الأمة.. يقول:

مرّ النعش

وسرى رعش

لم يزرع في دمنا نظرة

ماذا تُجدي في مقبرة الذل النظرة؟

اعتدنا، منذ تجرعنا خطوات المحتل، السوطا

ومضينا نمضغ ما قلنا

صدأ الكلمات المنخورة

تتمطّى لعلعةً وصدى

لا تخدش، لا تؤذي أحدا

*

وقد يتخذ لشعره طابعًا إنسانيًا تمليه مناسبة دولية، كقصيدته في مهرجان الشباب العاشر في «برلين» التي نقل فيها إلى المشاركين من شبان العالم فيه آلام أمته.. يقول:

حملت إلى شباب الأرض قصتنا

وغصتنا

ومن غضب الملايين العطاش حملت حصتنا

حملت عباءتي، والشعر ملء عباءتي أبدا

حملت سبية العرب

ضفائرها من اللهب

حملتك يا فلسطين

وما جدّفتُ بالتاريخ، بعض أجنّة التاريخ حطين

ويا أسوار عكا.. تصمد الأسوار

ولو سقطت، وتنبت في الرماد النار

وليست أول الغزوات.. تحفظ رايتي الحِقبا

وتعرف في ثراكِ الباقين... القدسَ والعربا

*

ويطل الشاعر على الأدب العالمي المقاوم، فيستعير اسم مسرحية للشاعر «لوركا» بعنوان: «القمر المقاتل» ليطلقه عنوانًا لقصيدته عن أطفال الحجارة.. الطفل الفلسطيني:

يالـلــــصغار.. تعـــــالى الـــــصامد الحجـــــر

هتفـــــت باســـــمهم لحنًـــــا عــــلى وتــــري

فاخـــــضر بـــــين يــــديّ العــــود والـــــوتر

يــــا أرض.. يــــا أرضــــنا العطـــشى إلى قمــــر

طفـــــل يقاتـــــل، هاقـــــد أُشـــعلَ القمـــــر

ضـــــمي إلى صـــــدرك الـــــدامي ذوائبــــــه

فرســـــانك الـــــسُّمر مـــــالانوا ولا قهـــــروا

لهـــم عــــلى شرفـــات القــــدس أغنيــــة

ورايـــــة، بثيـــاب العــــرس تنتظـــــرُ

*

وتحتل القدس وفلسطين حيّزاً بارزًا في شعر الأطفال الذي توجّه إليه الشاعر بهدف تربية الجيل الجديد تربية قومية إنسانية، وقد اختار ثماني مقطوعات من الشعر أو الشعر المسرحي أو الأناشيد ضمتها مختاراته، ليعلم الأطفال حب الأرض والتشبث بها، فالبقاء للأطفال فوق تراب القدس.. يقول:

باقية فوق ترابي أنا

باقية.. وليرحل الطارئون

كل غزاتي.. زبد طارئون

القدس.. كم من غارة أطبقت

يوماً على هذا الثرى الأطيب

حتى إذا ما نفضت كربها

عادت إلينا في جناحَيْ نبي

*

فالقدس مدينة الحب والسلام، والحجر بيد الطفل ماكان أداة إرهاب. إنه رمز للاحتجاج والرفض، لكن وقاحة المحتل نظرت إليه على أنه سلاح، وهو في الواقع تعبير طفولي لجيل يطلب الحياة الحرة الكريمة، ولا يصح أن

يقابل بعتاد المحتل الحربي، لأنه بذلك يفضح حرجه في نظر العالم، يقول الأطفال:

جـيلاً عـلى أثـر جيـل   نجـيء مثـل المطـر

نـروض المـستحيل   وفي يـدينا حجـر

سـلام عـلى الـصامدين   سـلامٌ عـلى أهلنـا

يـضيئون في العـالمين   يـضيئون فجـراً لنـا

سننـسى عـذاب الـسنين   ونرفـع راياتنـا

لنـا القـدس.. للعائـدين   لنـا كـل شـبر، لنـا

*

وقد يطل الشاعر خلال مسرح الأطفال الشعري على التاريخ العربي، فيذكرهم بالبطولات والمعارك والتضحيات التي بذلت ليظل ثرى القدس عربيًا، يرفع راية العروبة الواحدة، فيغني للأطفال في مسرحية غنائية بعنوان: **(**الأطفال يحملون الراية العربية الواحدة**):**

يا رائعة الأنوار

يا أغنية الثوار

يا من نسجت خيطًا خيطًا من أعيننا

يا خافقة أبدًا في الشمس وفي دمنا

لا بدَّ من الفجر الأنضر

لا بد من الوطن الأكبر

يارايتنا الشماء

يا أغنية الشهداء

الليل الأسود يلتهب

والقادم بالنصر العرب

*

وقد يطوف الشاعر بالأطفال في قطار متخيل اسمه «القطار الأخضر» يعرّفهم بأقطار الوطن العربي، وهو يرمز إلى مسعى يأمله من الأطفال لتحقيق الوحدة العربية، ويتوقف بهم في مدينة «القدس» ويحثّهم على تحريرها:

الثوار نداء القدس

وصيحتنا شعب وقضية

يا صوت الثوار القادم

في الأرض انشرنا

في البر انشرنا

في البحر انشرنا

هيّا حررنا

*

ولا يخفى أن الشاعر في ديوانه **(أنا والقدس)** يريد أن يؤكد ثقافة المقاومة والتحرير، إذ لا معنى لأيّ ثقافة رسّختها القدس عبر تاريخها، مهما علا شأنها، ما لم تكن سبيلاً لخلاصها من نير الاحتلال الذي داس بقدمه الوحشية أرفع ما قدمته القدس للإنسانية من حضارة وثقافة ومبادئ وقيم دينية وروحية تلفظ كل المراهنين على قوة البغي وجبروته..

أجل.. سينتصر صوت الشاعر سليمان العيسى ولو بعد حين، ولو كره أعداء المحبة والإنسانية، وسيتحقق حلمه الكبير مهما كانت العقبات وعسر الطريق.

سليمان العيسى والكتابة للأطفال

مدفوعًا بحبه للطفولة، وعاكسًا مأساة تشرده عن وطنه وهو طفل لما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، معبرًا عن خيبة أمله بجيله من الكبار الذين لم يكونوا في مستوى المحنة القومية التي تعرّض لها الشعب العربي، اتجه الشاعر «سليمان العيسى» إلى الكتابة للأطفال بعد أن ناهز الخمسين من عمره. وقد أثار تحوّله آنذاك استغراب النقاد، وراحوا يلتمسون الدوافع له، فذهب الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح الذي درس نتاجه إلى أن تحوّله كان نابعًا (من إحساسه بقسوة الهزيمة، ورغبته في خلق جيل متين نقي)، وذهب آخرون إلى أن اتجاهه كان وليد الحاجة الملحّة إلى شعر حقيقي يخاطب الأطفال بعد أن لمس الشاعر فراغًا كبيرًا في هذا اللون من الأدب على الساحة التربوية.

وإذا كان الشاعر أحمد شوقي قد قام بدور الممهد لأدب الأطفال فنحا منحى الشاعر الفرنسي /لافونتين/ في تقديم قصص وعظية تعلّم الأخلاق القويمة، وتطرح قيمًا تربوية تتجاوز أحيانًا اهتمام الصغار وعالمهم الحقيقي، فإن «سليمان العيسى» أكمل الطريق للوصول إلى أدب حقيقي للأطفال أقرب إلى عالمهم واهتماماتهم.

فالطفل بحكم تركيزه الشديد على الذات يضيق بالأوامر والنواهي ويخلق من خياله عوالم يفيء إليها ليتخلص من سيطرة المؤسسة الاجتماعية

ورقابتها عليه،وهو لم يستعدّ بعد لتقبل منظومة القيم التي يؤمن بها المجتمع. وإذا كان لا بدَّ من تعليمه السلوك الاجتماعي السليم، فيجب أن يترك له وحده أن يكتشف من خلال ممارساته وفي إطار طفولته ما يُعرف في مصطلح الكبار بالخير والشر والحسن والقبح. والأديب ا لذي يتصدى للكتابة إلى الأطفال عليه أن يفهم ويعي جيدًا عالم الصغار ونزوعهم إلى الحرية.

وسليمان العيسى يمتلك نزعة إنسانية عميقة تقرّبه من كبار الشعراء العالميين الذين آمنوا بالطفولة، وكتبوا عنها. إن إيمانه بالطفولة يشبه إيمان «طاغور» بها، ولا تفترق دعوته للاهتمام بالصغار عن جمهورية طاغور الطفولية التي نادى بها لتربية الصغار في حضن الطبيعة، فهي خير معلّم للبراءة والنقاء. وإنه ليحذو حذو «روسو» في الدعوى إلى تربية الأطفال في عالم الطبيعة الخيّر فيهمس في أذن الصغار، وهو يتحدث عن العطلة الصيفية:

وغادرت العصافيرُ

محابسها

وأعني ـ بيننا ـ أعني مدارسها

فالمدرسة عنده في وصفها الحالي أشبه بسجن يفر من الأطفال إلى الطبيعة صيفًا، حيث يتعلمون منها ما لا تقدمه الكتب من معارف:

ماذا يقول النهر في السهولْ؟

يقول: مائي شجرُ

وخضرةٌ وثمرُ

ومن الطبيعة يتعلّمون قيم الخير والجمال:

مــن جنبــات الــسفح الأســمر

يولـــد شـــلال مـــن عنـــبر

وقوله في وصف الربيع:

الربيـــع الحلـــو عائـــد

والعــــصافير قـــــصائد

وقوله يصف، رمل الشاطئ وموج البحر:

يــا رمــلُ.. يــا أنعــمَ مــن حريــرْ

يــا مــوج.. يــا أزرقُ، يــا مثــيرْ

والطبيعة في أناشيده، ليست جامدة ساكنة، إنها حية متحركة تحادث الأطفال وتشاركهم رغباتهم، وهو ينقل للصغار صورًا من طفولته التي حُرمها على ضفاف العاصي.

ويستثير حب الطبيعة في نفس الطفل من خلال لعبه وهواياته:

أنـــا صـــيادُ اللـــونِ الـــساحر

أرضُ بـــلادي كنـــزُ منـــاظر

دعنـــي أرســـمُ ضـــوءَ الـــنجمِ

دعنـــي أرســـمُ لـــون الكـــرمِ

أكتـــــب شـــــعراً بـــــالألوانْ

أحيـــــا حـــــرًا أنـــــا فنـــــانْ

وهو يركز كثيرًا على لعب الأطفال، ويساير اهتمامهم بأنواعه سواء أكان لعبًا تخييليًّاً أم تمثيليًا، أو لعبًا مخططًا منظمًا، ويعنى في وصف ألعاب الأطفال بمهارات التواصل اللغوي انطلاقًا من رأيه الذي عبر عنه بقوله:

لكي يحبَّ الأطفال لغتهم،

لكي يحبوا وطنهم،

لكي يحبوا الناس، والزهر والربيع والحياة

علّموهم الأناشيد الحلوة.

اكتبوا لهم شعراً جميلاً

شعراً حقيقيًا.

لم يكتب «سليمان العيسى» مجموعاته الشعرية لأعمار معينة بالضبط، ولم يراعِ أن يخاطب الأطفال وفق مراحل نموهم، وباستثناء أناشيد كتبها لأطفال مدارس الرياض، فإن شعره موجّه للطفل عامة، وقد ترك للمربين أن يختاروا لكل سن مايلائم من أناشيد وهنا نتساءل.. ما أبعاد نظريته التربوية؟..

طرح الشاعر نظريته في الكتابة للأطفال في أكثر من مناسبة.. وخلاصتها أن شاعر الأطفال يجب أن يقدم لهم شعرًا يحافظ على مستواه الفني، ويخدم أغراض التربية الهادفة السليمة في الوقت ذاته.. وحرص «سليمان العيسى» أن يتوافر في شعره:

١ ـ الصورة الشعرية الجميلة التي تبقى زادًا للطفل.

٢ ـ اللفظة الرشيقة الموحية الخفيفة الظل.

٣ ـ الفكرة النبيلة الخيرة.

٤ ـ الوزن الموسيقي الخفيف الرشيق.

٥ ـ المزج بين عالم الواقع الحسي، وعالم الحلم والخيال.

ويظل السؤال الكبير الذي يطرح نفسه: هل كتب «سليمان العيسى» للأطفال أو كتب عنهم، فالكتابة للطفل ليست بالأمر اليسير إنها تستلزم من الأديب ثقافة تربوية ونفسية عميقة وإلمامًا بمراحل الطفولة المختلفة، ومعايشة للأطفال وإدراكًا لاهتماماتهم، ومن هذا المنطلق فإن كاتب الأطفال يجب أن يتمتع بثقافة تربوية واسعة إلى جانب موهبته. وقد وفق «سليمان العيسى» أيما توفيق في تناول القيم التربوية المرتبطة بحياة الطفل كالقيم الترويحية وحب الطبيعة والاعتزاز بالمدرسة، والقيم الأسرية، وما يتصل بالتعبير الذاتي المبدع من لعب وتواصل ورسم.. يصوغها بلغة رشيقة محاولاً تبسيط المفاهيم وتقريبها بالصور الحسية كما في النشيد الآتي الذي يتناول حب التعليم:

ألفٌ باءٌ تاءٌ ثاءُ

هيّا نقرأ يا هيفاءُ

ألفٌ أبني

باءٌ بلدي

بيدي بيدي.. أبني بلدي

تاءٌ تعدو

نحوي دعدُ

قالت: ماذا يأتي بعدُ

ثاءٌ: ثَمَرُ

طابَ الثَّمَرُ

جيمٌ حاءْ خاءٌ دالْ

هيا نُنشدْ يا أطفالْ

جيمٌ: جَبَلُ

حاءٌ: حَمَلُ

خاءٌ: خالي

رَجُلُ فِعَالِ

جاء الدَالْ

يا أطفال

قال: سلاما

ردَّت ماما

ذالٌ راءٌ، زايٌ سينْ

سوف نكون المنتصرينْ

إذا استثنينا كلمة «فِعال» وهي كلمة مجردة، يحرص الشاعر على تقديمها للطفل، ليدرك بالحس معناها لا بالفكر، فإن الأبيات تعدّ شعرًا طفوليًا مثاليًا بقواعده الفنية والتربوية من خلال تسريب القيم التربوية والقومية، والمزج بين الحوار والحركة واللعب، والاعتزاز بالأسرة.

وقد يعلِّم الصغار لغتهم بصورة غير مباشرة:

أيعرف معنى أُسامَةْ أَحَدْ؟

أسامةُ يا ميّ تعني الأَسَدْ

يضمن الشاعر هذه القيم في أناشيده بأسلوب مباشر أو غير مباشر، وقد يوردها بلسان وسيط يكون طفلاً أو طيراً أو حيوانًا أو مظهراً من مظاهر الطبيعة.

وللشاعر تقنيات فنية يستخدمها فيعزز المفاهيم والقيم التي ينادي بها بمفردات تحمل شحنات انفعالية وتتكرر أكثر من مرة بأسلوب تعليمي:

أحـــب معلمـــي الغـــالي   أحبـــك يـــا معلمتـــــي

أحبـــكَ يـــا وطـــن الأنبيـــاءْ

أحـــب الـــترابَ أحـــب الـــسماءْ

وهو يبسط الأفكار والمفاهيم المجردة بصورة حسية تقوم على التشخيص:

أبي حدّادْ

تقول سعادْ

وترفع رأسها تيها

بغرفتها وبانيها

وهو يختار البحور الخفيفة، ويعمد إلى اجتزاء التفعيلات بهدف الوصول إلى إيقاع متميز.

يُحْكَى أنَّ العصفورهْ

قالت يوماً للأولادْ

فعلن فعلن فعلن فعـ..

وقد ينوِّع الإيقاع ويغنيه ليصل إلى ألحان متحركة بعيدة عن الرتابة، مثلما ينوِّع في قوافي مقطوعاته بقدرة فائقة على تطويع الأوزان، أما صوره فترقى إلى مستوى فني رفيع وتكون حينًا عائقًا في طريق استيعاب الطفل، وأحيانًا تكون من البساطة إلى حد أنها تقرب المفاهيم.. فمن النوع الثاني قوله:

ورشا الحلوة

البحر وزرقته وُلِدا

في عينيها

ومن النوع الأول المحلّق قوله:

قالوا: لمى، وزغردت في الأفق نجمتان

تمنتا لو باليد الحلوة تُقْطَفانْ

أو قوله:

لكـــــل طفـــــلٍ جميـــــلٍ في القلـــب أرجوحتـــــانِ

عطـــــر البنفـــسج منـــــه ورفّـــــةُ الأقحـــــوانِ

وهي صور مجنحة تثير المشاعر، وتكون زادًا للطفل، وإن لم يفهمها بوضوح، حتى إذا كبر تبدت له أ بعادها برأي الشاعر. إن الذين درسوا شعر «سليمان العيسى» للأطفال أخذوا عليه غموض الصور وعدم مراعاة سهولة قراءة بعض تراكيبه بسبب توالي الحروف المتباينة المخارج أحياناً في النظم أو المتقاربة، مثلما أخذوا عليه أيضًا تجاوزه أحيانًا اهتمامات الطفولة ومدارك الأطفال في بعض شعره الذي ضمنه طموحاته القومية فأرهق الصغار في مفاهيم مجردة لم يستعدوا بعد لتمثلها وكان من الملائم تسريبها إلى عقولهم بالمثل والحكاية، فمن طموحه البعيد دعوته العربية إلى وطن موحّد كان من قبل وطن الأجداد والأمجاد وموطن الأنبياء، وهو الذي «ضاء وحرر في الحقب»، وهو وطن الأطفال الآتين، أو الوطن الوعد الذي يفتح ذراعيه للصغار ويعدل فيهم ويوزع خيره عليهم، ينعمون بخيراته ويبنونه بسواعدهم.

إن هذه المفاهيم المجردة تصلح لمرحلة من الطفولة تتجاوز الحلقة الأولى من المرحلة الابتدائية على الأقل، وكان من المناسب في رأيهم تبسيط

القيم الاجتماعية والوطنية المجردة... كما فعل في منظومات كثيرة.. كقوله في الفلاح:

الحقـــــلُ الأخــــضرُ صـــــنعُ يــــدي
وأنــــــا فــــــلاحٌ يــــــا بلــــــدي
فــــــلاحٌ يــــــا بلــــــدَ النـــــورِ
أســـــتيقظُ قبــــل العـــــصفورِ
جــــــرّاري أحــــــدث جــــــرارٍ
أعلــــــوهُ عنــــــد الأســــــحارِ

والحداثة عند «سليمان العيسى» اي تغيير المجتمع ليلتحق بركب التطور الحديث هي هاجسه الدائم، وهي ميزة تحقق لشعره تفوقًا لأنه يخدم أهداف التربية المنشودة في التطور والتغيير مع الحفاظ على التراث والشخصية القومية والاعتزاز بهما:

أتعلَّـــــمُ مـــــاذا؟ أتعلَّــــمْ
أتعلَّــــــمُ أني عـــــــربيٌّ
تـــــاريخٌ غطَّـــــى المعمـــــورة
ببطـــــولاتٍ كالأســـــطورة

إن محاولة الشاعر «سليمان العيسى» في الكتابة للأطفال تعدُّ لِبنةً جديدة في بناء أدب الأطفال الذي مهد له الشاعر أحمد شوقي وغيره من الرواد، وهي محاولة جدية مبدعة دفعت بشعر الأطفال إلى آفاق جديدة في

الوزن والبناء والمضامين، وقامت على تصور نظري يوازن بين معطيات الفن وحاجات التربية ومسايرة العصر، ومقتضيات الواقع القومي والاجتماعي لأمتنا، بالرغم من وعورة الطريق. وستظل جهود «سليمان العيسى» جديرة بكل تقدير، وحسبه أنه حرّك الأقلام التي كانت تأنف أن تلج عالم الصغار، فنحن نشهد اليوم سيلاً من أدب الأطفال تدفع به المطابع بعضه جدير بالتقدير وبعضه محاولات قد تذهب بها الأيام إذا أخضعت للدراسة الجادة.

ومازال الشاعر «سليمان العيسى» يجهد في تقديم مادة ملائمة للجيل الجديد ويسعى إلى أن يقبض على فانوس علاء الدين السحري.

* * *

أراجيح الشاعر سليمان العيسى تغني للأطفال

تميّزت تجربة الشاعر سليمان العيسى ببعدها القومي والوطني، واقترابها من عالم الطفل ومراعاة خصائص الطفولة وأحلامها، ومسايرة ميوله واهتماماته في اللعب والمرح والغناء، والامتداد في عالم الخيال والأحلام **(دعوا الطفل يغني بل غنوا معه أيها الكبار).** مثلما تميّزت في تحريك مشاعر الطفل من خلال حرارة التعبير ورشاقته وجماله واختيار لغة شعرية تجمع بين خصائص الشعر الجمالية وحلاوة الإيقاع، والمزاوجة بين الحلم والواقع في محاولة منه للمواءمة بين عمليتي المطابقة والتمثيل التي يمرّ بها الطفل عادة أي رغبته في إخضاع الحياة لما يريد وتطلع المجتمع إلى إخضاعه للواقع ومواضعاته**...**

وقد ساعدت عوامل مختلفة على نجاح الشاعر سليمان العيسى في هذه المحاولة من أبرزها صلته بعالم الطفولة، وقد مرّ به في بيئة ريفية ببلدته «النعيرية» بأنطاكية، وما وسمها من ارتباط بالطبيعة على ضفاف «العاصي»، ثم حرمانه من الطفولة بعد انتزاعه من هذا العالم المحبب إليه قبل أن يبلغ ليواجه العالم بقسوته محروماً من حنان الأم والأب، ثم تجددت صلته بالطفولة بعد زواجه والاحتكاك بعالم الطفل أبا ثم جدّاً احتكاك مراقب ومتأمل لحياة الأطفال ولعبهم وأحلامهم، إضافة إلى أن اتجاهه للطفولة في شعره دفعه إلى متابعة تجارب شعر الأطفال في العالم ليحقق لمشروعه لوناً من الكمال الفني والتقني في الشكل والمحتوى، وبالمقابل فإن

محاولته الجادّة استقطبت اهتمام الشعراء والكتّاب، فتابع خطاه جيل من الأدباء تفرّغوا للكتابة للطفل في مستوى النشيد والقصة والمسرحية والحوار والسير والتراجم.

وقد رصد الشاعر سليمان العيسى في مجموعته الشعرية الموسومة (أراجيح تغني للأطفال) القيم التربوية والإنسانية، وأنماط السلوك الإيجابي التي يجب ترسيخها في أدب الطفل، وحرص على أن يقدّمها للصغار بأسلوب غير مباشر. ومن خلال اللعب والحركة والنشاط والتمتع بالطبيعة والتواصل والانفتاح على الآخر والكائنات المحيطة به من حيوان وطير ونبات وإقامة جسور من الأخذ والعطاء في حياة الطفل بينه وبين ما يحيط به من مناظر الطبيعة... وتردّ المربية الدكتورة «ملكة أبيض» نجاح الشاعر سليمان العيسى في تجربته إلى جهده في توخّي الكمال الشعري حين يكتب للطفل، على ما في هذه المحاولة من عسر، ومراقبته الأطفال في حركتهم ولعبهم، ووعيه التربوي وهو المربي بالفكرة النبيلة الخيّرة التي يجب أن تغرس في الطفل. ثم اختيار الأوزان القصيرة ذات الإيقاع المحبب الملائم للغناء، وهم مولعون به. والشعر العربي منذ نشأته لم يتحرر من الغناء والحداء، ويستخدم التراث لأداء الشاعر كلمة «أنشد»... وقد فطن الشاعر «سليمان» إلى أهمية الغناء في حياة الطفل منذ بداية تجربته، فقدّم أناشيده ملحّنة مع السلالم الموسيقية لكل منها...

ويبرز الأديب «سيف محمد المرّي» اهتمام الشاعر بالطفولة واحتفاءه بعالمها في شعره بعد «أحمد شوقي» حتى ليُعدّ جهده خمسين عاماً في هذا

المجال على عسر الكتابة للطفل أجمل تراث يقدمه لأبناء الأمة العربية، ويثري المكتبة العربية بباب هي أحوج ما تكون إليه.

ولن أكرر وأعيد ما كُتب حول تقنيات العمل الفني لدى الشاعر فقد تناولته الدراسات الأكاديمية والميدانية، وإنما أكتفي بالإشارة إلى بعض ما أضافه الشاعر في مجموعته الشعرية ومن أبرز مضامين المجموعة التربوية:

ـ ربط الطفل بالبيئة وعالمها وكائناتها في أنواعها المختلفة الجبلية والسهلية والبحرية ومنها الأناشيد التالية:

(الأزهار تغني لهاني) وقد جعلها تنطق وتغني وتفصح**...**

إنها خلقت للطفل ليتمتع بجمالها ورائحتها:

لكل طفل جميل

في القلب أرجوحتان

عطر البنفسج منه

وبسمة الأقحوان

لولا الصغار نسينا

سحر الرياض الحسان

*

ويقدم لهم معلومات علمية عن نمو النبات ومراحل حياته، كما في نشيده «الحديقة الخاصة»:

مرحبـــاً بـالبــــراعمِ		مــــن طـــريّ ونـــاعمِ
حيــث مـــدت رؤوســـها		رفَّ عطـــر النياســـمِ

***

بَرْعِمِـــي برعمـــي هنـــا		واملئـــي لي حـــديقتي
أنـــا والـــشمس والنـــدى		للفــــروع الرقيقـــةِ

***

ويحثهم على زراعة النبات والعناية به، لنفع الإنسان والإسهام في العطاء، كما في نشيد «ازرعْ ليأكلوا»:

ازرع ليــــأكلوا		وانــسج ليلبــسوا
يبقى لنــا مــا نفعــل

وينهاهم عن الإساءة للطبـيعة، وتجنب قطف الأزهار في نشيد «الأولاد في الغابة»:

أن نحرم البرّية
زينتها البهية؟
وينتهي الجمال للذبول
تُرى، أيرضى الغاب والحقول؟

*

وتحتل صداقة الطفل للحيوان والطير حيّزاً كبـيراً من الأناشيد، حيث يتناول فيها تعرّف الروح الجماعية لدى الحيوان «نشيد القطيع» وتقديم

بعض حيوانات البيئة بصفاتها وتصرفاتها كما في نشيد «الضفدع الصغير برّاق» و«الحمل الصغير». يقول في وصف الضفدع:

الشمس لي والنهر لي

وزينة الحِمى أنا

بلحنيَ المفضّل

أرطبُ الدنيا هنا

على الضفاف انطلقْ

حلو غنائي: نِقْ... نِقْ

*

وقد يؤنسن الحيوان، فيجعل الظبي الصغير يكتب رسالة اعتذار لعفراء الطفلة عن التهامه أوراق نبتتها:

سـهواً قـضمت الـشجرة هـل تقبلـين المعـذرة؟

نحـن عـلى الأوراق والأعـشاب

نعـيشُ يـا عفـراءْ

ويُبرز صورة طفولة الفيلة، ولو بدا صغارها أضخم حجماً، فيعلمهم الفروق الخلقية بين الكائنات، ويلفت نظرهم إلى ميل الفيل الصغير للنظافة والاغتسال بالماء. فيقول بلسان الفيل الصغير:

بالمـاء البـارد رُشّـينا رُشـينا.. يـا أختـاه

شيء عـذب يمـشي فينـا يُحْيينـا.. يـا أختـاهُ

ويعرّفهم بحيوان «الأَيِّل» وطوافه في الحقول، ويحثّهم على رعاية الحيوان والطير في نشيدي «لمياء والحمل، والطائر الجريح» إذ يجعل الطائر الجريح يكتب رسالة شكر «للدارم» لأنه اعتنى به ورعاه حين جُرح، ويرسم لهم سلوك السلحفاة البطيئة والحكيمة، والخلد ذلك الحفّار البارع في التراب:

أَغْطِسُ تحت الأرض وأمشي

كالسر المدفون

أبحثُ عن رزقي وطعامي

حيث الرزق يكون

الحفّار البارع لقبـي

ماذا تنتظرون؟

*

ويعنى كثيراً بالألوان وهي ما تثير اهتمام الطفل من خلال وصفه للحِرْذَوْن:

عينان.. لؤلؤتان لامعتان

ذيلٌ... كسحبة نغمةٍ

صدحت بقوس كمان

جلدٌ.. كنمنمة السحاب التائه

والبرتقال اختارني لعطائه

يوماً... بأحلى ما لديه حباني

في قاع جسمي بقعة من لونه

يا حسنَها.. خلابةَ اللمعانِ!

*

ويؤكد الشاعر في أناشيده باستمرار على السمات المميزة للكائن. وربما منحه اسماً محبباً، وصفة تلصق به، ففراخ البط بحّارة الأزل، وعوامون ورثوا ركوب الماء عن آبائهم، فيربط الفروع بالأصول:

آباؤنـــا يامـــاءُ عوّامـــونْ	**وإننـــا إليـــكَ قـــادمونْ**
مـنهـــم مـــن الآبـــاء	**ســـتعرف الأبنـــاءْ**
مراكبـــاً تطفـــو عـــلى الميـــاه	**في نـــشوة تـــستوطن الميـــاهْ**

*

ويصحح للصغار ما شاع في وسطهم عن قيم يتعاملون بها مع الكائنات، فيدافع عن الحمار ومايتهم به من غباء، وعن القرد وما ينسب إليه من مكر ودهاء، ويشجع الصغار على إطعام الحيوان والطير:

قوافلٌ بـين شحرور ودوري

صنعتُ لهن مائدة الطيورِ

تعالي يا عصافيري تعالي

طعامك جاهز منذ البكورِ

*

وتحتلّ مظاهر الطبيعة مكاناً من اهتمام الشاعر، فيقدمها للأطفال لجمالها أو نفعها ومنها الحجر والندى... وفي الأناشيد عدد من القيم التربوية والإنسانية والترويحية التي يهدف «سليمان العيسى» إلى غرسها، منها الانفتاح على الآخر، وتحرير الطفل من الأثرة والعزلة والأنانية، ومن الخوف والانطواء، وتدريبه على مواقف الشجاعة والمشاركة الاجتماعية، وممارسة المرح وبهجة الحياة، والتعلم من الطبيعة على طريقة «روسو» فهي خير معلم في نظره، وحفّزه إلى الحركة واللعب والسباحة والرياضة والتنزه، وممارسة هوايات تتصل بعالمه كالرسم والغناء وحب المطالعة وتعرّف الأشياء، واجتناب الغرور والعدوانية، وتسخير ذكائه لحلّ المشكلات واكتشاف المجهول، وتقدير الحب والصداقة والجمال والتعاون والإيثار، وبعض هذه القيم ترد من خلال الأناشيد التي تتناول مظاهر البيئة وما فيها من عوامل، ويفرد لها الشاعر أناشيد مستقلة، وهي أكثر جوانب المجموعة تواتراً، من ذلك أناشيده: المرآة، يعجبني الجريء، الحب هو الأقوى، أحلام الصغار، نبيلة الصغيرة، تاج الذهب، الغرور، مدّ عينيك، البلبل يفتتح الغناء.

وكثيراً ما يقدم الشاعر هذه الأناشيد في إطار من الخيال الذي يعشقه الطفل، من ذلك نشيد «قارب أميمة الجديد»:

أطوف حول العالمِ

أدور حول العالمِ

في قاربي الجميلْ

من دجلةٍ للنيلْ

إلى بحار العالمِ
يا زورقي الذي شَرَدْ
فوق المياه الصافيةْ
لا تبتعد... لا تبتعدْ
أخاف أن تنسانيهْ

*

وقد يجمع في النشيد الواحد بين الواقع والخيال، كما في نشيد «لعبة الظلال» الذي يشجع الأطفال على الرسم نقلاً عن الواقع (رسم الطفل صورته وصورة أبيه) والظل الذي يرافق الرسم في المستويين الحسّي (خيال الإنسان) والمعنوي أي صورته المتخيلة لدى الآخرين:

في لعبـــــــة الظـــــــلال	أقـــضي بـــــلا مَـــــلالْ
وقتـــــاً طـــــويلاً غارقـــــاً	في لعبـــــة الظِّـــــلال

*

رســـــمتُ ظـــــلي صـــــورة	جميلـــــــة أنيقـــــــةْ
أعطيتُهـــــا لـــــوني أنـــــا	أعطيتهـــــا الحقيقـــــةْ

*

يالعبـــــــة الظـــــــلالْ	تمـــــــوج بالـــــــصورْ
يـــــا قـــــصتي أنـــــا	يـــــا قـــــصة البـــــشرْ

*

ويركز الشاعر سليمان العيسى كثيراً في أناشيده على الأحلام والأماني، بحكم أن مشروعه في الكتابة للطفل يقوم على أمنية قومية يأمل تحققها في

مستقبل الأيام بسعي هؤلاء حين ينشدون، ويبرز أهمية الخيال وتخييل الأطفال:

خيـــــــال الطفولـــــــةْ	دعـــــــوه يطـــــــوفْ
لـــــــه العـــــالم الرحـــــبُ	داني القطـــــــــوفْ
لـــــــه كـــــلُّ حلـــــم	لـــــه كـــــل صـــــعبٍ
لـــــــه المـــــستحيلُ	قريـــــــبُ المنـــــالْ

*

ويجعل الشاعر سليمان العيسى الحلم والتخيل قريناً للعب كما في أناشيده «طيارة الورق» وما توحي حركتها للطفل من انطلاق إلى عوالم مجهولة، و«كوخ ليلى» وما فيه من عوالم سحرية.

و«الثوب البديع» وما تبعث ألوانه من ظلال، و«الفقاعة الجميلة» وما في ألوانها من أطياف... وقد يقرن بين الخيال والسحر لكونهما وجهان للعالم المتخيل غير المرئي حيث الجنيات والسحرة كائنات تتوالى ترويض المستحيل وغير الممكن، ورواد الفضاء وما تثيره رحلتهم من اكتشاف المجهول، والقصص السحرية المستمدة من التراث العالمي مثل قصة «سندريلا» وبعض قصص «السندباد البحري»في ألف ليلة وليلة، وبعض أساطير الخيال مثل «الكرسي الطائر»، وبساط الريح، وما تبوح به كائنات الطبيعة. وهي تتحدث عن عوالمها مثل«الريح والشمس» و«الأرجوحة».

يقول في وصف طائرة الورق:

لُغَتي أَنّي أطيرْ

في السماوات أطيرْ

أتملَّى أروعَ الأشياء تحتي

كل شيء ساحر المنظر تحتي

إنني أهوى الصغارْ

حين يأتيني الصغارْ

ويطيرون معي في الحُلُمِ

آه.. ما أجمل دنيا الحُلُمِ

وإذا كنت وحيدةْ

أقرأ الغيمَ سعيدةْ

يا صغاري فوق إحدى الهضباتْ

فدعوني.. لست ملكاً للهواةْ

أتركوني حرة في الأفقِ

إنني طائرة من ورقِ

*

ويدخل في عملية التخييل حثّ الطفل على الابتكار، وتحقيق أمنياته باللعب الذي من خلاله يقلد الكبار ويحاكي تطلعاتهم في العمل والإنجاز، ففي نشيد «بـيت بقلب الشجرة» تبني الطفلة بقلب شجرة كبـيرة بـيتاً لها، وتدعو رفيقاتها إلى حفلة شاي فيه لتدشين هذا الإنجاز وتغني:

صـار لي بـيت بقلـب الـشجرةْ
مـن رأى بـيتي بقلـب الـشجرةْ؟
صرت كالـدوريِّ فيـه أختبـي
الغـصون الخـضر صـارت ملعبـي
آه يـا بـيتي، الـذي لا يوصـف
قـال بابـا: هـو حلـم مـترفُ
قالـت الماما: لقـد صـار لنـا
عُـشٌّ عـصفورٍ وعـصفورٌ هنـا

*

وإذا قارنا بـين بدايات شعر الأطفال لدى الشاعر سليمان العيسى وخواتمه في هذه المجموعة، يمكن أن نلاحظ تطويراً في تجربته.. فقد ظل حريصاً على أسس التقنيات في العمل الشعري... ومنها: أنسنة الكائنات غير الإنسانية، والتحدث بلسان الطفل أو الشاعر بلا وسيط، واعتماد الحوار أحياناً، ويتجلى نضج تجربة الشاعر في محاولة الاقتراب أكثر من عالم الطفل لاعتماد البنى اللغوية البسيطة والأوزان القصيرة والبحور الشعرية المجردة وبخاصة البسيط والرمل والرجز، ومن حيث المضامين الالتفات إلى المخترعات العصرية وآفاقها كرحلات روّاد الفضاء والحاسوب:

العالـمُ الرحيبْ
كم فيه من أسرارْ
مجهولةِ الأغوار

العالم الرحيب

نريد أن نراهْ

ما أجمل الحياةْ

إذا انطلقنا في المدى الرحيبْ

إذا كشفنا الغامض العجيبْ

*

ونلاحظ أن هذه الأناشيد تلبـي حاجة الأطفال في عمر الخامسة حتى السابعة، وهي المرحلة التي لا يكون فيها الطفل يعرف القراءة بعد، وكانت اللغة العربـية الفصيحة تفتقر إلى مثل هذه الأناشيد، فيستعيض عنها المعلمون في الحضانة والصفوف الأولى بأناشيد عامية تكاد تخلو من القيم والتوجيه، أو تفتقر إلى الأسلوب التربوي السليم في الإرشاد، وتدور في تلك الزواجر والأوامر...

وأخيراً... الوطن العربـي واللغة العربـية مدينة للشاعر سليمان العيسى ودوره في رعاية الطفولة والإخلاص لها، فهي أمل المستقبل وعدّة الوطن للتقدم والحرية واسترداد حقوق الأمة السليبة...

* * *

*** أراجيح تغني للأطفال.. للشاعر: سليمان العيسى... منشورات: كتاب دبـي الثقافي رقم ٢٦، يوليو، عام ٢٠٠٩م، في (١٨٩) صفحة، من القطع المتوسط..**

شعراؤنا.. يقدمون أنفسهم للأطفال

ضمن السلاسل الأدبية التي يشرف على إصدارها الدكتور سهيل إدريس صدر كتاب حديث بعنوان «شعراؤنا... يقدمون أنفسهم للأطفال»، بأسلوب مشوق جذب إليه مشاعر الكبار والصغار. والكتاب من تأليف الشاعر «سليمان العيسى» الذي يزود بين حين وآخر المكتبة العربية بمؤلف جديد، لا سيما بعد أن وطّن نتاجه للأطفال، فقدم إلى الطفل العربي أكثر مما يحتاج إليه من تلمس الجمال والاستمتاع بمآثر حضارة الأجداد، حتى نال الشاعر «العيسى» حب الأطفال وثقتهم به، وإخلاصهم للكلمة المتدفقة من ينابيع القلب.

لن أتحدث عن الشاعر «العيسى» ومآثره الأدبية والثقافية ونتاجه الشعري، فالقارئ العربي يعرفه جيداً بعدما عشق معاني قصائده إذ لامست شغاف قلوب أبناء الأمة العربية حيث انطلقت الجماهير يرددون أشعاره ويتغنون بقصائده ويترنمون على حداء موسيقا القوافل السائرة..

أما الدافع لتأليف كتابه هذا فهو الإحساس العميق بحاجة أطفال الوطن العربي إلى أن يتعرفوا شعراءنا الخالدين.. ويلمح «سليمان العيسى» في مقدمة الكتاب إلى اللحظات التي أوحت إليه بالتأليف. بينما كان في صباح يوم من أيام الربيع جالسًا في الحديقة العامة قريبًا من تمثال أبي فراس الحمداني بمدينة حلب، يقرأ في ديوان هذا الشاعر الفارس، لمح بلبلاً مزركشًا، وقد حط على طرف المقعد الخشبي الأخضر إلى جواره... فلاحظ

أن البلبل لم يكن يريد طعامًا، كانت عيناه الصغيرتان عالقتين بصفحة الكتاب الذي بين يدي الشاعر، بأبيات القصيدة التي كان يقرؤها.. وهكذا توطدت الصداقة بينهما.. وامتد الحديث.. فيخاطبه البلبل:

(إننا نحب الشعر والموسيقا، كما نحب الحدائق والأطفال، ونحن نغرد ونغني لكم ـ معشر البشر ـ منذ أقدم العصور ونمتعكم بسقسقاتنا وأصواتنا العذبة منذ خيوط الفجر الأولى، حتى نأوي إلى عشاشنا مع آخر شعاع من أشعة الغروب، ولكنكم لم تعلمونا بيتًا واحدًا من الشعر حتى الآن، نحن الطيور نعرف جيدًا أن لديكم في هذا البلد ثروة من الشعر الجميل الخالد الذي يأخذ إنشاده بالألباب، وتستهوي معانيه العقول، ولقد حدثنا القدماء من أجدادنا البلابل أن الشعر العربي يملك من الموسيقا والنغم ما لا تحلم به حناجر الطيور الموهوبة، وأصواتها المطربة، لماذا لا تعطوننا كما نعطيكم..؟؟ وتمتعوننا كما نمتعكم..؟

وتمثل الشاعر «العيسى» مواكب الأطفال تترى أمامه.. وهي تتساءل بصوت هامس رقيق: لماذا لا تعطوننا نماذج من الشعر العربي الجميل بأسلوب نفهمه ونحبه نحن الصغار..؟؟

وهكذا كان شعار الشاعر في كل نتاجه للأطفال: (دعوا الطفل يغني، بل غنوا معه أيها الكبار)، ثم قرر أن يقدم للأطفال سلسلة من الشعراء البارزين في الأدب العربي، انتقاهم (من أجود المواهب وأعمقها تأثيراً في الأجيال القديمة والحديثة على السواء).

ووقع اختياره على شعراء من عصور أدبية مختلفة، وزعهم إلى عشرة أجزاء.. وأبرز هؤلاء الشعراء:

١ ـ أبو تمام.

٢ ـ البحتري.

٣ ـ أبو الطيب المتنبي.

٤ ـ أبو فراس الحمداني.

٥ ـ الشريف الرضي.

٦ ـ أبو العلاء المعري.

٧ـ ابن زيدون.

٨ ـ الفرزدق.

٩ ـ جرير.

١٠ ـ الأخطل.

١١ـ مالك بن الريب.

١٢ ـ حطان بن المعلّى.

١٣ ـ قطري بن الفجاءة.

١٤ ـ الحطيئة.

١٥ ـ الخنساء.

١٦ ـ حسان بن ثابت.

١٧ ـ كعب بن زهير.

١٨ ـ طرفة بن العبد.

١٩ ـ عمرو بن كلثوم.

٢٠ ـ عنترة بن شداد.

٢١ ـ المهلهل.

٢٢ ـ زهير بن أبي سلمى.

٢٣ ـ امرؤ القيس.

٢٤ ـ النابغة الذبياني.

٢٥ ـ حاتم الطائي.

٢٦ ـ السموءل.

٢٧ ـ عروة بن الورد.

وبأسلوب شاعر أصيل، متمكن من الكلمة الصافية والمعنى القديم وبأنفاس ناعمة تبعث النشوة في خيال الأطفال ينفذ الأستاذ الشاعر «سليمان العيسى» بمشاعره إلى أعماق الصغار، فيداعب أوتار القلوب، ويهز أحاسيسهم برقة ورشاقة، فيستهل الحديث بنبذة عن عصر الشاعر وحياته على لسانه، بكلمات بسيطة مفهومة لدى الطفل، يقرؤها بسهولة، ولا يحتاج إلى مرجع أدبي أو معجم لغوي لتعرف المضمون وتفهم المقصود. ثم يختار بعضًا من أبيات الشاعر التي يستطيع الطفل إدراكها وتقبلها بلا تعقيد في الألفاظ.

فعندما يقدم شاعر المعرة نفسه مثلاً، نشعر بأنه يحدثك بطريقة مبسطة ممتعة.. فيقول:

(حين تمرون في بلدتي التي أحببتها كثيرًا، أعني مدينة المعرة الصغيرة القريبة من «حلب» ستشاهدون قبري مايزال ماثلاً فيها. وقد ارتفعت عليه هذه (الشاهدة) التي تحمل بيت الشعر المشهور الذي أوصيت أن ينقش على قبري وهو:

هـــــذا، جنـــــاهُ أبي عــــــليَّ
ومــــا جنيـــتُ عـــلى أحـــدْ

سمعتُ أنهم جددوا بناء ضريحي، وجعلوا إلى جانبه مكتبة يطالع فيها الناس، ولقد أثلج هذا النبأ صدري، لأني لا أعرف شيئًا أثمن من الكتاب.

ولدت في هذه البلدة الخضراء «المعرة» من أسرة عرفت بالثقافة والأدب، وكانت ولادتي في عام ٣٦٣ للهجرة.

تلقيت تحصيلي الأول على يدي والدي ولكني أصبت منذ طفولتي بهذا المرض اللعين (الجُدَري)، ففقدت بصري وأنا ما أكاد أبلغ الرابعة من عمري، وهكذا قدر لي أن أعيش مكفوف البصر طوال حياتي. استعضت ببصيرتي عن البصر، ورأيت بفكري الكثير ممالا يراه الذي يبصر بعينه فقط.

زرت في مطلع شبابي عدداً من المدن السورية التي كانت عامرة بالمكتبات الضخمة وكنت ألتهم كل ما تصل إليه يدي من أدب وفكر وفلسفة.

لزمت داري لا أفارقها أبدًا، منقطعاً إلى التدريس والتأليف وكان طلاب العلم يأتون إليَّ من سائر أنحاء البلاد العربية والإسلامية يتحلقون حولي في داري المتواضعة، وأنا أملي عليهم الدروس وأشرح لهم الكتب.

أنفقت حياتي كلها هكذا، وسميت نفسي (رهين المَحْبِسيْن) أعني محبس العمى، ومحبس المنزل. وكان هذا هو اللقب الوحيد الذي اخترته أنا لنفسي.

تركتُ للأجيال العربية كتبًا كثيرة من الشعر والنثر من أهم دواويني الشعرية (اللزوميات) ومن أهم كتبي النثرية (رسالة الغفران).

وبعد أن يقدم الشاعر أبو العلاء المعري نفسه بأسلوب الشاعر «العيسى» يقرأ بعض الأبيات من قصيدة قالها في أيام الشباب، ويتمنى أن يظفر بإعجاب الصغار.

وبذلك استطاع الشاعر «سليمان العيسى» أن يحقق ما يصبو إليه من تقديم المتعة والمعرفة للأطفال، وأن يثير نسمات عطرة من الرياض المزدهرة بقصائد الشاعر المعرّي.

كتاب «شعراؤنا... يقدمون أنفسهم للأطفال» أنيق الإخراج واضح الطباعة.. فالكلمات مشكولة تساعد الطفل على القراءة الصحيحة، والأحرف واضحة يرتاح إليها النظر، وهو مزدان بالرسوم الجميلة المتخيلة للشعراء الذين يقدمون أنفسهم للأطفال[1].

* * *

---

(١) وقد حدثني الشاعر الصديق سليمان العيسى أنه كان يهم بتأليف الجزء الثاني من (شعراؤنا يقدمون أنفسهم للأطفال)، وأن المؤلف الجديد كان سيضم بين دفتيه أبرز شعراء العرب المعاصرين ولكن ظروفًا خاصة حالت بينه وبين إنجاز هذا المشروع الذي ما يزال يأمل في إنجازه ذات يوم.

فن الإضحاك.. عند سليمان العيسى

ليس الأدب الساخر فنًا طارئًا... فهو عريق في آداب المجتمعات كلها منذ أن كان الأدب. ولا يقل عراقة في الأدب العربي قديمه وحديثه، إلاَّ أن ذلك اللون من الأدب أسيء استخدامه حين تم توجيهه للهجاء، فتحوّل إلى سلاح للذم والتشهير، واتجه الأدب في عصرنا إلى إبعاده عن دائرة الأدب الجاد.

إلاّ أن الشعر المرح الجاد الذي نترك فيه الريشة تتكلم على سجيتها، وتكتب وتغني وتضحك، كما يقول الشاعر سليمان العيسى في مقدمة «ديوانه الضاحك» يتجاوز حدود التشهير والذم الذي يستهدف كرامة الإنسان أو المجتمعات إلى آفاق من الذوق والفن التي تستهدف معالجة مشكلاتنا الفردية والقومية والاجتماعية.

هذا اللون من الأدب لا يصح أن نصنفه نقيضاً للأدب الرصين الجاد أو نستبعده من دائرة الأدب، لأنه في جوهره لا يقل جدية عن أي أدب، ولا يُجحد دوره في البناء والتوجيه عن أي أدب رصين، ذلك أن الضحك من أنجع الوسائل التي يلجأ إليها الإنسان، وكذلك المجتمعات، لمواجهة الأزمات والتغلب عليها، وهو أفعل في حياتنا كسلاح للدفاع عن النفس، ومعالجة الخلل والتصلب والاضطرابات التي تعترض مسيرة الفرد والجماعة في تطلعهما إلى الأمن والسلام والحياة الحرة الكريمة.

وعلى الرغم من الهم القومي الذي يعكس شعر «سليمان العيسى»، وهو همٌّ يثير الشجن، ويضعنا أمام ثقل الرسالة التي ينادي بها، وضخامة

مسؤولياتها، وما يعترض بناء المجتمع العربي الموحد الذي يحلم به الشاعر من صعوبات، وما يتهدد الأمة العربية من أخطار، على الرغم من ذلك التجهم الذي تفرضه طبيعة الأدب القومي، وتنعكس على قصائده الرصينة.. فإن للشاعر وجهًا آخر في التعبير عن هذه المسائل الجادة، بروح من الفكاهة العذبة، والتهكم الحاد والساخر، يستمد وجوده من طبيعته المتفائلة المرهفة، ونظرته إلى الحياة وثقته وإيمانه بالإنسان عامة والعربي خاصة، وحتمية انتصاره على قوى الشر والتحديات مهما كانت عظيمة.

هذا الجانب من شخصية الشاعر لا يعرفه إلاَّ الذين لازموه في حياته، وأنسوا بمجالسه التي لا تفارقها ابتسامته الدائمة، ونكتته الحادة، لكن الطيبة والبراءة تلازمها دائمًا. فقلب الشاعر قلب طفل، قد يثور ويغضب لكنه لا يعرف الحقد، ولا يسعى إلى امتهان كرامة إنسان حتى ولو أساء إليه، ولا يتخذ من الهجاء الساخر سلاحًا للتشهير.

ورغم براءة الضحك لدى «سليمان العيسى»، فإنه يغدو من خلال فن الإضحاك وتقنيات هذا الفن التي تميز بها، أداة فعّالة... إنه كما يقول: (إضحاك جاد ومسؤول على الرغم من كل مافيه من تحرر ودعابة وانطلاق).

ولا أبالغ إذا قلت إن هذا الشعر الذي أطلق عليه الشاعر ورفاقه «الحلمنتيشي» مستعيرين التسمية من إحدى المجلات المصرية هو شعر قد يكون أكثر قدرة على التأثير، ونفاذًا إلى الجماهير، وأثبت ديمومة من شعر الشاعر الجاد الذي يمثِّل زخمه الثوري، ويعكس انفعاله وهيجانه في مواجهة القضايا المصيرية، لأنه يلائم طبيعة التفكير الشعبي.. وأسلوب الشعب في

تحدي العوائق التي يبدو أمامها الإنسان عاجزاً عن التصرف، فلا يجد إلاَّ الفكاهة والنادرة سبيلاً للتحدي والتنفيس عن الكرب.

قد نتساءل لماذا اختار الشاعر هذا اللون من الشعر في ديوان مستقل، ولم يدرجه في ثنايا مجموعاته الشعرية؟.. ولعله أول شاعر يقوم بهذا الفصل مع إيمانه أن هذا اللون من الشعر لا يقل أهمية وتأثيراً عن شعره الجاد، وأعتقد أن هناك سببين دفعاه إلى هذا المنحى، أولهما تحلّل الشاعر من التزام لغة فصيحة صارمة، واعتماده بعض التراكيب العامية ليكون أقرب إلى الفطرة. وأساليب التعبير الشعبية، الأمر الذي يمنحه انفعالاً عفويًا وواقعية، ومرونة، وانطلاقاً في الإضحاك.

وثانيهما إنه شعر مناسبات، ينطلق من وقائع ترتبط بحياته الخاصة، وإن كان يصب في هموم الوطن والأمة، وقد دفعته تلك الخصوصية إلى استبعاده من شعره العام القومي والاجتماعي.

في شعره الضاحك، يريد الشاعر أن يبرهن على مقولة مهمة في حياتنا لا نفطن إليها كثيرًا في سلوكنا، فالوقائع الحياتية التي يمر بها كل منا تدفعنا إلى التوهم، أنها معزولة عن الواقع العام الذي نعيش فيه، وقد تكون وقائع تافهة وحوادث عابرة في مستوى الحدث، لكن إذا تمعنا جيدًا فحواها، بدا لنا أنها ترتبط بالتحديات الكبرى في حياتنا، فإن فرح الشاعر بالدشداشة التي سيرسلها له ولده من الخليج، يعكس حرمانًا اجتماعيًا يذكره بطفولته المحرومة في قريته، كذلك المنغصات التي تحملها إليه سكناه في قبو تحت الأرض يسميه «القبر» هي تعبير عن تحدٍ لمنغص عام هو الفقر وشظف العيش اللذان يكتنفان حياة الطبقة الفقيرة في المجتمع العربي.

وهكذا تغدو الحادثة العابرة ذات دلالة قومية واجتماعية كبيرة لا تقل أهمية عن أحداث جسام كالاحتلال والتجزئة.

على أن تلك الحوادث الصغيرة لا قيمة لها مالم تتجسد فنياً، فالشعر هو الذي يمنحها شرعية الحديث عنها، ويرقى بها إلى عالم الحلم المشروع، فمن خلال الإبداع الأدبي، وما يضفي عليها من روائع فكره وثقافته، أو من بعد سياسي واجتماعي، تغدو الحادثة العابرة قضية هامة تستحق التخليد.. يقول: «النكتة في حد ذاتها فن، فكيف إذا تحولت إلى شعر؟»، إنه شعر للتسلية ولكنه لا ينفصل عن هموم الشاعر وأمته، فهو أكثر من أنه شعر دعابة وتسلية.

وإن ما تتميز به قصائد «الديوان الضاحك» عن الشعر الساخر في التراث العربي، ذلك النفس الملحمي الهزلي الذي يمنح بعدًا دراميّاً لموضوع التهكم، فالشعراء القدامى أبدعوا لوحات ساخرة، لكنها لم تكن تتعدى الصورة الكاريكاتورية المكثفة.. كقول المتنبي في كافور:

وتعجبني رجلاك في النعلِ إنني
رأيتك ذا نعلٍ إذا كنت حافيا

أو قول بشار في بخيل:

تَمْركم يا سهيلُ درٌّ وهل
يُطْمَعُ بالدر من يدي مُتَعَتِّ؟
فاحْبُني يا سهيلُ من ذلك
التمر نواة تكون قُرْطًا لبنتي

أو قول ابن الرومي في رجل مقفع:

وكـــأنما صـــفعت قفـــاه مـــرة

وأحـــسَّ ثانيـــةً بهـــا فتجمَّعـــا

هذا النفس الدرامي الفكاهي الطويل، يربط بين قصائد الدشداشة ويؤلف منها وحدة فكاهية مترابطة، يفتق فيها الشاعر المعاني الطريفة والصور المبدعة التي تقوم على المبالغة والتهويل، فالشاعر يصفها كحلم مشتهى:

حلمـت بهـا وقـد جـاءت بلـــون الرمـــل عفـــراءَ

يمـوج بهـا اصـفرارٌ شـفَّ حتـــى صـــار لألاءَ

وتـسرق مـن نقـاء الفجـر رونقَهـــا الـــذي ضـــاءَ

وهي لباس العرب القومي على الرغم من تعدد تسمياتها في أقطار العروبة:

وذاك لباسُـــنا القـــومي حـــاضرةً وبيـــداءَ

بهـــا يتميـــز العـــربي مـــن أبنـــاء حـــواءَ

* *

حلمت، ورحـتُ منتظـرًا ومـرَّ الوقـت إبطـاء

ولم يتحقـــق الحلـــم الـــذي عـــشناه نَعْـــماءَ

فبـــادر يـــا بُنـــيَّ بهـــا وأوفِ الوعـــد إيفـــاءَ

وتشتدُّ أصداء حلم الشاعر في دنيا الخليج، فتشغل خياطي الخليج كلهم ـ كما يقول «معن» في جوابه الشعري ـ ويندب لإنجازها شيخ الخياطين في الإمارات. إلاّ أن الشاعر يطوّر حلمه الذي يغدو اشتهاءً وتوقًا هو أقرب لتوق الصوفيين إلى الاندماج بالخالق، فيستعير من «ابن الفارض» مطلع قصيدته الصوفية المعروفة «سائق الأظعان» وقافيتها:

سـائق الأظعـانِ يطـوي البيـد طَـيّْ
قـف ترجَّـل عنـد أطـراف دُبَيّ
وادخـل البلـدةَ.. مـا أجملَهـا!
بلـدة قامـت حـديثًا.. يـا أُخـيّْ
وتأمَّـل في الحوانيـت التـي
يجـد الميـسور فيهـا كـل شيْ
فـإذا مـا لمعـت «رائعـة»
تفـتن الطّـرفَ، وتلـوي العقـل ليّْ
فَتَمـلَّ الـضوءَ في خيطانهـا
وتلمَّـسْ سِـحرها مـن دون كـيّْ

وهكذا يغدو الشوق إلى الدشداشة محجة صوفية تثير الضحك بسبب ذلك التناقض بين شوق الشاعر إلى ذلك الشيء المادي الصغير مقابل تشوق ابن الفارض إلى الهدف الروحي السامي، بل يتغزل بها الشاعر كالشعراء القدامى بمي وهند إلى أن تتحول الدشداشة بعد أن لبست إلى ثوب الفن، وكانت قبل ذلك لباسًا يشتهى:

لم تعـــد دشداشـــةً تلـــك التـــي

فجَّــرت أحــلى الأمــاني يــا بُنَــيّ

أصـــبحت أنـــشودة، طـــارت عـــلى

شـــفة الـــصحراء مـــن حـــيّ لحـــيّ

لم تـــزل حُلـــما.. فـــماذا لـــو غـــدتْ

واقعًـــا أمـــلأُ منـــه نـــاظرَيّ؟

ويدرك الشاعر أن الفن يجعل اللا شيء شيئًا، فالشاعر صانع الجمال يشكله من المادة الخام مهما تفهت ويرقى به إلى دنيا السحر الحلال:

نخلـــع الحـــسن عـــلى عالمنـــا

فـــإذا الـــشيء الـــذي لـــيس بـــشيّ

ينتهـــي الإنـــسان في رأيـــي إذا

مـــا انتهـــى لحـــن عـــلى الأوتـــار حـــيّ

ويشعر الشاعر بلذة تخليد الدشداشة بفنه، فيود لو استبطأ ابنه في إرسالها ليستمر في لعبة الفن تلك:

نـــشوتي أن تكـــون دشداشـــة الـــشا

عـــر لحنًـــا عـــلى شـــفاه الخلـــيج

فتمهَّـــل مـــا شـــئت فيهـــا.. فـــإني

للقـــوافي جعلتُهـــا والأريـــج

قــل لهــا.. قــد خلقتهــا ألــف لــون

في خيــالي.. هيــا عــلى الـسحر عــوجي!

حَـــــسْبُهُا الآن أن تـــــروح نــــشيدًا

يترامــــى بينــــي وبـــين الخلــــيجِ

* *

وأخيرًا تصل دشداشة الشاعر بعد لأي في عيد الميلاد، فيسترسل في الحلم، ويتمثل نفسه وقد لبسها، فأشرقت بها طلعته بين المهنئين وزوجته المعجبة:

مرحبًـــــا جـــاءت عــــلى طلبــــي

مرحبًـــــا دشداشــــــةَ العــــربِ

كـــــل خـــــيط مـــــن قماشـــــتها

صـــــار ملـــــكَ الفــــن والأدبِ

ولبـــــسناها فــــما تركـــــت

ســـــاحة للخـــــزِّ والقـــــصبِ

صـــــاح جــــيراني: مباركـــــةٌ

قـــم وتِـــهْ فيهـــا عـــلى الـــسُّحُبِ

أيـــــن «كـــــاردان» وصـــــنعته

كـــــل مـــــا ســـــوّاه شـــــغل غبــــي

«مَلَـــــكٌ» لم تخـــــف بهجتهـــــا

بهجـــــةٌ ليـــــست بـــــلا ســـــبب

حلفـــــت بـــــالله جارتُنـــــا
أننـــي فيهـــا بكـــسم نبـــي!
ربـــما كانـــــت مبالغـــــةً
شـــــعبنا في الانفعـــــال رَبي
رجعـــــت بي حـــين صرتُ بهـــا
فجـــأة للطفـــل واللعـــبِ
فجـــأة أحســـست ضـــيعتنا
وأمـــام البيـــت ظـــلٌّ صـــبي
كيف أنساها..
وُلدتُ بها
إنها ثوبي وثوبُ أبي

ويختم الشاعر القصيدة بالالتفاتة الرائعة التي تربط بين الدشداشة وجذوره العربية:

كـــل غـــصنٍ لا جـــذورَ لـــه
صـــائرٌ حـــتمًا إلى حطـــب
لـــتعش فينـــا طفولتنـــا
إن تحفَّزنـــــــــا إلى أربِ
الينـــابيعُ التـــي نُـــسيت
هـــي درب الثـــائر العـــربي

هي عندي

دربُ وحدتنا

واسألوا دشداشتي.. تُجِبِ

وإذا كان حلم الشاعر بالدشداشة يعكس حلم الجماهير العربية بالحياة الكريمة، فإن قصائد «القبو» توحد بين الشاعر وجماهيره في المعاناة، وتلك «الأقبية» التي يختارها لرخص أجرتها ليست إلاَّ صورة صادقة عن بيوت الطبقة البائسة من أبناء الشعب العربي، فالمعاناة واحدة، يسكن الشاعر أول قبو في حلب كراءً لمدة خمس عشرة سنة، فيدهم قبوه المطر الغزير الذي عرفت به حلب الشهباء، ويراجع المسؤولين بلا شكوى فيستنجد بالشعر تعبيرًا عن شكواه:

باختصارٍ.. سُكناي قبو عميق

مثل آلام أمتي العربية

كلما جادت السماء بسيلٍ

أصبح البيت «بركة فَنّية»!

«المجاري».. وذكرها لا يثير

الشعر، لو لم يكن أخوك الضحية

تتخطَّى الحدود، فالقبو طوفان

و«أغراضنا» زوارق حيَّة

لو تراني وفي يمينيَ دلْوٌ

أنزحُ الماء بكرةً وعشية

لـــو تـــراني، عرفـــت كيـــف يكـــون

الــشِّعر فحــلاً، صُــلْبَ البيــان، قوِيَّــهْ

ويرضى الشاعر بقدره، لو كان ذلك القدر يخفف آلام أمته، يرضى بقدره ولو أن أعيان بلده البورجوازيين يتمتعون بسكنى الطوابق المشمسة ذوات الشرف الباذخة، فالشاعر يملك العبقرية وهي أثمن من كل بهارج الدنيا:

أنـــــا بالطوفـــــان راضٍ فـــــرحٌ

إن يُــزِحْ عــن أمتــي بعــض البليــة

يــــا حِمــــى الأعيـــان.. يـــا شـــاعرنا

يــا أبــا أحــلى «البلاكــين» العليــة

لـــــستُ بالـــــدنيا.. ولا بهرجهـــــا

طامعـــاً.. فـــالكون مُلْـــكُ العبقريـــة

أَفَنقـــــضي الليـــــل في معركـــــة

كلـــما دقَّـــت مزاريـــبُ العـــشية؟

كِـــدت أشـــكو صـــارخًا.. لكننـــي

خـــائفٌ إقـــلاقَ نـــوم البلديـــة

لنلاحظ التفات الشاعر البارع على موضوع شكواه من قصور البلدية بأسلوب ساخر لطيف غير مباشر، لكنه لاذع وحاد يجرح بلا مدية، فالإضحاك هنا مبطن وخفي، لكنه أنفذ نقدًا مما لو كان مباشرًا.

وفي سعيه الدائب عن قبو مناسب يسكنه بدمشق بعد انتقاله إليها، يعكس الشاعر أزمة السكن التي يعانيها فقراء الشعب في المدن، ومرارة الشعور بالتشرد والقلق، وهو المشرد عن وطنه «الإسكندرون» السليب في الأصل:

مـــا ظفرنـــا بـــالقبو في الـــشام حتـــى
أكلـــت نـــصفَ أخمَـــصَيْنا الـــدروبُ
حملـــة البحـــث.. قادهـــا عـــسكريو..
ن غيـــارى.. مـــلازم ونقيـــبُ
لـــو تنطعـــتُ للمهمـــة وحـــدي
كنـــت في الـــشام مـــا أزال ألـــوبُ

لكنَّ الشاعر لا يتطامن لوضعه البائس، بل يتعزى بأبيات شعره التي تطاول كل بيت من الحجر والإسمنت:

أنـــا أبنـــي بيتًـــا بلمحـــة عـــين
يهـــرم الـــدهرُ قبلـــهُ ويـــشيبُ
يـــسكن المتعبـــون أبيـــات شـــعري
نبـــضاتٌ حيطانُهـــا.. وقلـــوبُ
يـــا قـــصور الفيحـــاء، حـــسبيَ قبـــوٌ
ضـــيِّقٌ لا يهمنـــي، أو رحيـــبُ

* * *

وهذا التحدي من الشاعر لبؤسه، هو صورة عن كفاح الشعب المستمر للبقاء رغم الاستغلال والإذلال، ففي قبوه بدمشق يتحدى المنغصات وأقلها هدير السيارات المتواصل فوقه، ورطوبة الصيف والشتاء، وطوفان السيول والدلف المتواصل من السقف الذي:

إذا سـجا الليـل يـا عينـي لـه نَغَـمٌ
عـلى الـبلاط تُطـير النـومَ نجـواه
أخـاف دعـوة ضـيف ربـما انـسكبت
في رأسـه دفقـةٌ وابتـلَّ جنبـاهُ

* *

يضاف إلى ذلك مضايقات الجيران وتصرفاتهم المزعجة، لكنه يتقبل اعتذارهم بالحب والإخاء. وهناك أيضًا سقوطه المفاجئ، وهو يغلق النافذة الذي سبب له كسورًا في أضلاعه، لكنه يظل أقوى من التحديات:

لا أهـاب الأيـامَ تَهْـشمني هـشما
وأبقـى أنـشودةً للـصراعِ
أنـا طفـل والطفـل أقـوى مـن
الأحداث.. أقـوى مـن الـسنين الجيـاعِ
مـا عرفـت الغـرور لكـنْ دعـوني
أتحـدى الكـسور في أضـلاعي

* *

بهذا التحدي تغيب الابتسامة التي رسمتها على الشفاه مناسبة القصيدة لنقف بإجلال أمام شجاعة الشاعر، وتتحول الفكاهة إلى عبرة جادة نتعلم منها الصلابة والثبات في مواجهة المحن والمصاعب، لكن الابتسامة تتحول إلى ضحكة عريضة، ونحن نقرأ في نهاية القصيدة أبياتًا عن خور بعض عُوَّاد الشاعر الذين رأوا صورة كصوره الشعاعية فتلمسوا جنوبهم هلعاً:

بعـــضهم جـــسَّ جنبـــه وتمـــلاّني
طـــويلاً في وجمـــة وارتيـــاعِ
خـــاف - لا قـــدَّر المقـــدِّر - أن يُعـــدى
بكـــسر أو ينثنـــي بـــانخلاعِ
لا تخـــف، ربـــما تكـــسَّرت الأضـــ
ـــلاع خوفًـــا مـــن دون أي انـــدفاعِ

*** ***

الإضحاك في الصورة يعتمد على الاستبطان الداخلي للشاعر الذي ينفذ بدقة ملاحظته إلى أعماق زائريه، فيصورهم نفسيًا ببراعة، ثم يعلق على حالتهم معتذرًا لهم:

وقعـــةٌ مثـــل وقعتـــي تـــؤلم الإنـــ
ـــسان، تُـــؤذي حتـــى وزيـــرَ الـــدفاعِ
سرني، عنـــدما تحسَّـــسْتُ ظهـــري
ولمـــستُ الـــصدوع في الأصـــقاعِ

سرني أن يكـــــون جـــــزء ســـــليم

لم يـــــزل فيَّ صـــــالحًا للـــــضياعِ

يَعــــذُبُ الجـــرح في العــــراكِ، ورأيــــي

في ســـوى ذاك مالـــــه مـــــن داعِ!..

* *

ويعمد الشاعر إلى تصوير حركة سقوطه بآلية سريعة تثير الضحك، ولعله وجد فيه علاجًا لآلامه، فالعلاج بالضحك كان شائعاً منذ القرن الثالث عشر والشاعر يعالج فيه روحه المتألمة، كما يعالج فينا مخاوفنا وآلامنا.

وحركة السقوط التي يصفها الشاعر تشعر بذلك التصلب والآلية والاختلال في التوازن الذي يعده الفيلسوف «برغسون» في كتابه عن الضحك أساسًا لردود أفعالنا تجاه كل ما يحدث اضطرابًا سليم العواقب في الحياة. إن السقوط خروج عن النظام المألوف لكياننا الجسدي وكوننا الخارجي:

وصـــــفقتُ الـــــشباكَ فاختـــــلَّ وزني

وتـــــدعبلتُ صرةً في القـــــاعِ

صـــار رأسي مكـــان جـــسمي، ورجـــلي

أخـــذت فجـــأةً مكـــان ذراعـــي

* *

وهذا السقوط لابدَّ أن يثير في ذهنه سقوط المعتدي على أمة الشاعر الذي ما فتئ يقارعه وهو متمسك بثباته:

يــــسقط المعتـــدي، ولـــو مـــلأ الـــدنيا

ضـــــجيجاً، بنــــــصره الخــــــدّاع

والتضاد هنا أو المقابلة بين سقوطه ولم يجن ذنبًا، وثبات ذلك المعتدي على عدوانه، وقد حق له أن يعاقب، والشاعر يسمّي ذلك التداعي متهكمًا بفلسفة السقوط.

التضاد أو المقابلة أو المفارقة نفسها يقيمها في قصيدته عن نبتة الصبّار الشوكية التي أحبها ورعاها، وشاء القدر أن تموت بسبب سقوط خرطوم ماء الجيران عليها من الطابق الرابع. كان موتها البريء كسقوط الضحايا في بلده بلا ذنب جنوه:

صــبَّارةَ القبــوِ! شيءٌ أنــتِ مــن بلــدي

تمــــوت فيـــه الـــضحايا دون إنـــذارِ

وفي قصيدة عن سهرة طرب في نادي الصيد ببغداد يثير الضحك طويلاً نقده للغناء العربي الصاخب الذي يقرع الرأس، فيقول:

ســـمَّوه فنّـــاً أو غنـــاءً، وهـــو قرقعـــة الأواني

في مطــبخ.. لا أكــل فيــه، ولا طبــيخٌ صــدقاني

أو نـــوحُ بـــاكٍ لم تـــزر عينيـــه يومًـــا دمعتـــان

يبكــي، وينتــف شــعره ألمًــا، وتجهــلُ مــا يُعــاني

* *

ويربط الشاعر بين هذا الغناء المزعج، وعادة التدخين الضارة، وتعليق الإذاعات العربية الصاخبة المجعجعة:

يكفـي، لكـي يُجتـاح رأسي بالـصداع، لُفافَتـان
أو أيُّ تعليـق عـلى الأنبـاءِ يـصهل كالحـصانِ

*   *

ولعل أطرف مواقف الإضحاك هجاء الشاعر لذاكرته المتعبة، فهو ينسى وجود أصدقائه الذين لازمهم زمنًا، بل يتجاوز نسيانه حدّ المعقول حين يربت على كتف إحدى السيدات وهو يحسبها زوجته «أم معن» ونهجه في هجاء الذات يذكرني بالحطيئة... ونلمس كيف يسوّغ تشتت ذهنه باستغراقه في عالم الشعر:

ماضـــاع منـــي أبـــدًا صـــاحبٌ
ولا أخ.. كـــلٌّ بـــصدري مقـــيمْ
إني أرى الـــدنيا رؤىً حلـــوة
وأحمـــل الحـــب العمـــيم العمـــيمْ
وكـــلُّ مـــن أحببـــتهم صـــغتهم
قـــصائدًا تبقـــى ولحنًـــا يهـــيمْ

*   *

وربما كانت قصيدته التي وجهها إلى صديق متصوف استهان بأعماله الشعرية وقلّل من شأنها، فاستثاره، حتى تحولت حادثة طلب استرجاع دواوينه التي لا يملك سوى نسخة منها إلى موقف قومي وإنساني غاضب لا يقل جدية عن أشعاره القومية:

ومـــــا أحببـــــتُ رجعيـــــاً
ولا متـــــــصوفًا يزهـــــــدْ
كفـــــى وطنـــــي «تكايـــــاه»
وليـــــلٌ فيـــــه لا ينفـــــدْ
أنـــــا العطـــــش الـــــذي غنَّـــــى
وعـــــاش الكـــــلَّ في المفـــــرد
ومـــــا أُعجبـــــت إلا بالـــــضحـ
ـــــى وضـــــيائه الـــــسَّرمَدْ
وبالعقـــــل الـــــذي يـــــتقحم
المجهـــــول والموصَـــــدْ
ولـــــستُ بـــــشاعرٍ.. إني
مواجـــــعُ أمـــــةٍ تولَـــــدْ
تحـــــدَّى نعـــــشُها الناعين
والرُصّـــــادَ، والمرصَـــــدْ
صـــــبور.. تـــــدفن الجـــــلاد
وهـــــي بـــــسوطه تُجلَـــــدْ
وكـــــل ابـــــن لهـــــا في القلـــــب
حنّـــــا كـــــان أو أحمـــــد

* *

والمفارقة في البيت الرابع بين ذوبان الصوفي الخالق في إشراقاته العُلْوية الهائمة، وذوبان الشاعر في كل أمته. هذه الأبيات في اعتقادي من

أقوى ما كتبه الشاعر في بعث أمته، ورسم أهدافها في الوحدة والتحرر، فإذا تجاوزنا تلك الشكوى المرة إلى القصائد الضاحكة التي تقوم على مداعبات يوجهها إلى الأصدقاء، أو يشكو فيها غبنًا لحق به، وهو يستنفر أصحاب الشأن من أصدقائه لنجدته، ومنها تغريمه ضريبة الهاتف مرتين، وسرقة دراجة الدائرة التي كان يرأسها في حلب، ومخاطبته التاريخ بنفس ساخر يستعرض فيه التفريط بنفط الأمة وانحراف الثوار عن مبادئهم، وسقوطهم في بؤرة استغلال مناصبهم للكسب المادي فإننا نرى في كل هذا وجوهًا للسخرية التي تخفي وراء النكتة الكثير من المرارة والألم. في كل تلك المداعبات العابرة، يبدو الشاعر جادًا من وراء تهكمه، يضحك من المفارقات التي تعيش فيها أمته والتي تسيء إلى تاريخها ماضيًا ومستقبلاً.

قد نصل إلى الحقيقة التي لا مراء فيها، وهي أن الشاعر «سليمان العيسى» رائد هذا اللون من الأدب الملحمي الضاحك الذي لا يخفي نزعته الدرامية حيث يسخِّر الضحك للنقد الاجتماعي والقومي، وهو لون من الشعر يبدو فيه الإضحاك فنًا رائعًا ورسالة هادفة جادة، تعلي القيم التي يريد أن يغرسها فينا، وتعلمنا ونحن في غمرة انهماكنا بأغراض الدنيا أن وراء السعي لحياتنا المتعبة مُثُلاً يجدر أن يلتفت إليها الإنسان العربي ليستعيد مكانته تحت الشمس[1].

* * *

(١) اقتصرت الدراسة على «الديوان الضاحك» الذي صدر عن «دار الشورى» في بيروت، مرة بخط الشاعر،ومرة بحروف الطباعة نحو عام ١٩٧٨م، وقد علمت أن للشاعر ديواناً جديداً بعنوان: الضاحكات الجديدة)، وكتبه عام ٢٠٠٠م، ولم يطبع بعد – المؤلف.

المسرح الشعري عند سليمان العيسى

إذا استثنينا القصة الشعرية «ثائر من غفار» التي نظمها الشاعر «سليمان العيسى» سنة ١٩٥٥م، فإن نشاط الشاعر المسرحي استؤنف من جديد مابين سنتي (١٩٦٤م – ١٩٧٤م)، فأصدر في تلك الحقبة أربع مسرحيات للكبار، استمد وقائعها من التاريخ العربي الإسلامي، مستلهمًا قيمه النبيلة، محاولاً أن يسقط أحداثها على واقع أمته المعاصر، بهدف توعية الجماهير وتهذيبها، وترسيخ المبادئ التي نادى بها، أو الدفاع عن الإنسانية المعذبة وإبراز قيمها.

١ – **ثائر من غفار:** قصة شعرية أشبه بملحمة صغيرة تتألف من سبع عشرة قصيدة يستعرض الشاعر فيها نضال الصحابي أبي ذر الغفاري وثورته المشهورة في سبيل العدالة الاجتماعية، والتنديد بالظلم الاجتماعي الذي لا يرضى به الإسلام. وقد نفي أبو ذر ومات بالربذة في عزلة موحشة، مات وكلمة الحق على شفتيه.

٢ – **إنسان:** مسرحية، قدمها الشاعر إلى صديقه الأسود الدكتور (ك)، وقد التقاه في مؤتمر هلسنكي سنة ١٩٦٥م، موضوعها مستمد من كتاب الأغاني، وهي تروي قصة رجل أسود يعمل حارسًا بسيطًا في جند الخليفة، ألقى القبض على «معن بن زائدة الشيباني»، وكان الخليفة العباسي المنصور قد جد في طلبه، فحاول معن أن يرشوه بعقد ثمين مقابل إطلاق سراحه. ولكن الرجل الأسود الذي سمع عن جود معن وسخائه آثر أن

يظهر له أنه أكرم منه، إذ يجود له بالحياة، فيطلق سراحه دون أن يقبل عطاءه، وهكذا يلقنه درسًا رائعًا بالكرم. يقول لمعن بلسان الشاعر:

هيَّا انطلقْ لمحَ البصَرْ

هيَّا، توارَ عن النظرْ

في الناس أجودُ منك

لا يشمَخْ على الطين القمرْ

مازالت الصحراء أظمأ ما تكونُ إلى المَطرْ

مازال في الواحات مُتَّسعٍ لعبَّاقِ الزَّهَرْ

هذه المسرحية تصور إيمان الشاعر بالبؤساء وقيمهم الأصيلة التي هي من مبادئ الفقراء عبر التاريخ، فنفوسهم ينابيع لا تنضب للخير والعطاء.

٣ – الفارس الضائع: في هذه المسرحية رسم الشاعر شخصية شاعر عربي أحبه هو أبو محجن الثقفي الذي انطلق وراء غرائزه فأدمن شرب الخمرة، فسجن بسبب إدمانه، لكنه لم يتقاعس عن التكفير عن ذنبه حين سمع بحرب القادسية، ففر من سجنه، وامتطى فرس سعد بن أبي وقاص، والتحق بالمقاتلين، ولم يعرف مصيره بعد المعركة، قيل إنه قتل فيها، وقيل: وجد ضريحه في نواحي جرجان. ويقحم الشاعر العيسى ذاته في ختام المسرحية، فيدور حوار بينه وبين أطفاله، يعلق فيه على المسرحية، كأنه يريد أن يحث أطفال العرب على قراءة سير البطولات التي قام بها الآباء والأجداد.

٤ – مسرحية ابن الأيهم أو الإزار الجريح: وهي عرض لحياة الملك الغساني جبلة بن الأيهم، آخر ملوك الغساسنة في بلاد الشام، الذي أعلن إسلامه بعد هزيمة حلفائه من الروم في معركة اليرموك، فرحب الخليفة عمر (رضي الله عنه) بدخوله الإسلام واصطحبه معه إلى الحج، وفيما هو يطوف حول الكعبة، داس رجل فزاري إزاره، فغضب، ولم تكن سماحة الإسلام قد تسربت إلى نفسه، فلطم الفزاري حتى هشم وجهه. وقضى الخليفة عمر حين سمع شكوى الفزاري أن يقتص هذا البدوي من جبلة، فيهشم أنفه، وحين اعترض الملك، قال له الخليفة عمر: إن الإسلام سوَّى بينكما.

فاستمهل الملك جبلة الخليفة عمر.. وارتحل ليلاً إلى بلاد الروم ومعه حاشيته.

يندد الشاعر العيسى بجبلة، وينكرْ عليه هذا الموقف الذي جعله يؤثر الارتماء في أحضان الأجنبي، متخليًا عن جذوره تحت تأثير غرور فارغ فيخاطبه قائلاً:

جنـــــــونٌ جنـــــــونْ
تلفـــــــــــــــت وراءكْ

أضــــــعتَ ســــــماءكْ
قطعـــــــت جـــــــذوركْ
وفي قعـــر دار حـــزين الـــصخورْ
عليهـــا بقايـــا مجـــانين مـــروا
بقايـــا عظـــام، رميـــتَ مـــصيركْ

٥ – ميسون: في هذه المسرحية يروي «سليمان العيسى» حكاية تلك الفتاة الدمشقية التي استمد قصتها من كتب التاريخ العربي، ففي معارك الغزو الصليبي عاشت هذه الفتاة، ونكبت بمصرع بعض أخوتها على يد الغزاة الطامعين، فأمضها الحدث وفكرت بوسيلة تحث بها قومها على محاربة الصليبيين والانتقام لأخوتها والدفاع عن وطنها المهدد، فجزت خصلات شعرها الجميل، وصنعت منه رباطًا لخيول المقاتلين، ثم طافت على الحرائر في دمشق تحثهن على أن يفعلن مثلما فعلت، وأرسلت هذه الضفائر إلى خطيب مسجد بني أمية الكبير في دمشق آنذاك سبط بن الجوزي، الذي وقف في الناس خطيبًا في المسجد، وكلمهم من على منبره قائلاً:

(هذه والله ضفائر المخدرات قطعنها في سبيل الله والوطن، فإذا لم تقدروا على الخيل تقيدونها بها، فاجعلوها ذوائب لكم، وضفائر، إنها من شعور النساء، ألم يبق في نفوسكم شعور؟**!..** وتتحرك الهمم الساكنة**...**

وتهب الشام تدافع عن كرامتها، ويندحر الصليبيون، وتنتقم ميسون لوطنها ولأخيها.

نظم الشاعر هذه المسرحية ليسقط مغزاها على واقعنا العربي في مواجهة الغزو الصهيوني، وكأنه يريد أن يستنهض همم العرب للثأر، ويظهر دور المرأة العربية المؤثر في حفز النفوس التي استمرأت العيش الهاني للدفاع عن الوطن المهدد.

خصائص المسرح الشعري:

المسرح عند الشاعر «سليمان العيسى» تهذيب وإرشاد وتربية، يحاول فيه أن يستكمل رسالته الشعرية في بناء شخصية الإنسان العربي على قيم

الآباء الوطنية والإنسانية والخلقية، وهو على ما يبدو لم يكتب مسرحياته الشعرية لِتمثَّل، فقد تجاوز في مسرحية (الإزار الجريح) التقسيمات التقليدية لفصول المسرحية، واستبدل بالمشاهد والفصول لمحات قائمة بذاتها، والحوار في مسرحياته يطغى على الحدث، والمسرحية تدور حول مغزى إنساني أو قومي يتمثل بسلوك بطلها الذي يتضح من خلال الحوار المسرحي أكثر مما يتضح من خلال الحدث المسرحي، وكثيرًا ما تتكلم شخصيات المسرحية بكلام الشاعر ذاته دون أن يكون الحوار مما يقع في الحياة الحقيقية، وقد يتسع الحوار ويغرق في نزعة غنائية تتجاوز حدود الموقف دون أن تساعد على رسم الشخصيات من الداخل.

وأغلب مسرحياته مستمد من وقائع التاريخ الإسلامي، أو من مواقف يحسن الشاعر انتقاءها، لتكون قدوة أو عظة للأجيال، وهي تلتقي ونظرة الشاعر الوطنية وتخدمها.

وأشخاص مسرحياته ملوك أو أفراد من عامة الشعب، إلى جانب الشخصيات، يحشد الشاعر وسطاء ثانويين أو أصواتًا يسخرها لإبراز أفكاره متأثرًا بالشاعر الإنكليزي شكسبير وغيره... كأصوات الحداة في الصحراء، ولا يتقيد الشاعر كثيرًا بالحقائق التاريخية، ففي مسرحية «الإزار الجريح» ينقل حاضر الغساسنة من حوران إلى دمشق لأسباب فنية وطنية وقومية.

ومسرح سليمان العيسى من نوع الدراما، تختلط فيها المواقف المفرحة والمحزنة، وقد تنتهي نهاية سعيدة كما في مسرحية «ميسون» أو تؤول إلى نهاية محزنة كما في الإزار الجريح وثائر من غفار.

أما فنه الشعري فيها فيتجلى في تطويع الشعر للحوار دون أن يجور ذلك على فنية الشعر أو يفسده، واستغلاله الذكي للأوزان معتمدًا فيه التفعيلة غالبًا أو البيت، أو الجملة التي تتألف من تفعيلات تشكل جزءًا من بيت.

مسرح الشاعر «سليمان العيسى» قراءة جديدة واعية لتاريخنا العربي الإسلامي صنعت بأسلوب جميل، وارتقى فيها الفن إلى مستوى نبالة الفكرة التي يعبر بها.

السَّفر الجميل

ثمالة الثمالات الخمس في شعر سليمان العيسى

آثرت زوجة الشاعر سليمان العيسى الدكتورة ملكة أبيض ألا تحرم القارئ العربي من الاطلاع على تجربة الشاعر سليمان العيسى في اليمن، والتطور الذي طرأ على شعره بعد عودته للكتابة للكبار، فكانت ثمالاته استصفاء لإبحار طويل في مسيرته الشعرية، وانعطافاً نحو الينابيع الإنسانية العميقة التي رسمت ثمالاته، وتحوّلاً من الخطابية والشعر التحريضي المجلجل إلى التأمل الذاتي المجرّد والهادف الذي يعكس ثقة الشاعر بالإنسان عامة وبالإنسان العربي خاصة، وتفاؤله الثوري بانتصار الإنسان على أعداء الإنسانية وقوى الاستغلال والقهر التي تهدد الوجود العربي خاصة والإنسانية عامة، في معركة شرسة وغير متكافئة، لكن الإرادة الحرّة للشعوب ستنتصر في نهاية المطاف.

والثمالات، لغة، هي ما يترسّب في الكأس من بقايا الشراب، وكأن الشاعر سليمان العيسى في السنوات الأخيرة يختار خلاصة تجربته الشعرية، متشبثاً بحلمه الشعري الذي لم يتخلّ عنه لحظة واحدة، وهو حلم طموح ومثاليّ بدا للشاعر أنه يجسّد الواقع ولا يستمد مشروعيته من الخيال.

وثمالة هذه الثمالات جاءت في مختارات تحت عنوان (السفر الجميل) اختارها الشاعر وزوجته لتكون صفوة ثمالاته الشعرية تمثل ما في تجربة

الشاعر الشعرية الأخيرة من تركيز وتكثيف واختزال لمسيرته الطويلة، وتعبر عن صفوة هذه التجربة ودلالاتها الأكثر عمقاً. ولا شك أن عملية اختيار نصوص الشاعر من الثمالات وضعت الشاعر وزوجته أمام صعوبة كبيرة. فالقصائد التي حوتها الثمالات تتوازى من حيث قيمتها الفنية، وتفرّد كل منها في التعبير عن إحساس متفرّد للشاعر يرتبط بالزمان والمكان والواقع، حيث يعدّ إسقاط أيّ منها خسارة فنية لا تعوّض إلا بالعودة إلى الثمالات ودواوينها الخمس، ليكوّن الدارس فكرة واضحة عن تطور المسار الشعري للشاعر " العيسى" واهتماماته ومواقفه النفسية، وردود فعله تجاه الأحداث الوطنية والقومية التي عاصرها. والملفت للنظر أن الشاعر في الثمالات لا يجعل من شعره تابعاً للأحداث، وإنما يستغلّ كلّ مناسبة ليعزز رؤيته القومية والإنسانية، فيعلّق على ما يقرأ من نصوص تراثية، أو يوجّه خطابه لشاعر عالمي، أو يستفيد من مناسبة اجتماعية عابرة ليعزّز حلمه الشعري، حيث يبدو شعره تعليقاً واعياً وتوجيهاً إيديولوجياً للفكر والفن والثقافة من منطلق وعيه الإنساني والقومي لما يجب أن يكون عليه الفكر والفن والثقافة لخدمة الإنسان. فالكتابة في نظره تعبير عن الوجود بل هي كما يرى الوجود نفسه، وهو يستعير مقولة " ديكارت": **(أنا أفكر فأنا إذاً موجود)**

فيحرفها تحت شعار: أنا أكتب فأنا موجود. فالكتابة وعي ومسؤولية، وهي " سَفَر جميل" مع الكلمة لنقول شيئاً، يجعلنا نحس وجودنا على هذه الأرض إذا قلناه، نجحنا في ذلك أم أخفقنا.

الفكرة التي لا تتحول إلى تحقق كتابي تظل دفينة في عقل مبدعها، كاللؤلؤة في المحار، لكنها حين تتحقق تغدو وسيلة وعي وتعبيراً عن

إحساس بالمسؤولية، وتفتح طريقاً للبقاء، ويمتد فيها الوجود الذاتي، ويصبّ في نهر الوجود الإنساني العام.

من هذا المنطق يبدو الشاعر في مختاراته من ثمالات (١) محاوراً ومعلّقاً ومجادلاً مؤيداً أو معارضاً لكل ما أفرزه الفكر والثقافة من حقائق وتأملات. ففي زيارة يقوم بها للحجاز، يمرّ بدار عبلة، فيرى فيها جذوره العربية التي يسعى أعداء الأمة إلى تقطيع أوصالها:

يـــا دار عبلـــة رُدِّينـــي إلى وتـــري
تقطعَّـــتْ بيننـــا يـــا حلـــوتي، الـــسُبُلُ
في بـــاب خيمتِـــكِ الزرقـــاء متكئـــي
وليرحلـــوا... إننـــا التـــاريخُ والأزلُ

*

ويعلّق على كلمة للباحث الدكتور " هشام شرابي" يقول فيها:

(ليكن الشعار تفاؤل الإرادة لا تشاؤم العقل) ويرى فيها تحقيقاً لتطلعاته وتفاؤله الثوري، فيؤكد أن النسغ حين يجري في قلب الشجرة لا يراه الورق الأصفر الذي شاخ، ولا تدري " قيادات اللحاء" ما يجري في خفاء الأغصان والجذور، فالشاعر وحده هو الذي يغني للنسغ الذي يبعث الحياة في الشجرة التي تبدو يابسة:

لم أزل منذ عرفتُ الضوءَ
للنُّسغ أُغنّي

قائلاً للغصن المَيْتِ

لسلطان اللحاء

طارئٌ أنتَ

وشيءٌ آخرُ عمرُ الشجرْ

*

ويتذكر الشاعر جسر الرصافة ببغداد يوم كان طالباً في جامعتها، وما خلَّده في الشعر العربي من قصص الحب فوق هذا الجسر، ثم ينفذ إلى حال الجسر الراهنة بعد أن أصبح مسرحاً للحرب والموت في محنة العراق.. فيقول:

كان جسرُ الحب والشعر ينامْ

في سلامْ

فجأة.. روَّعَتِ الليلَ، ودوَّت قنبلةْ

وتلتها قنبلةْ

وتهاوتْ كلُّ أحلام الصبايا

مِزقاً حُمراً.. وسودا

منذ ذاك الليل

مازال الحنانْ

في العيونِ السودِ مذبوحاً

ومازال الأمانْ

*****

ويعرّج الشاعر على أطفال **(قانا الجليل)** والمذبحة التي مارسها الصهاينة فيها دون أن تستحق ولو كلمة استنكار من الضمير العالمي.. فيقول:

أطفالُ قانا

عُشبٌ برّي

ليسوا من لحمٍ ودمْ

ولا يَحزنُ لموتِهم أبٌ ولا أُم

فقد دفنتِ القذائفُ

أباءَهم وأمهاتِهم معهم

أطفالُ قانا

لا يستحقون نهدةً ولا دمعة

ولا تتعب الجريدةُ نفسُها

بذكر أسمائهم

إنهم يُقصفون

ويموتون

أمرٌ جدُّ طبيعي في عُرف المذبحة

عزاؤنا أن العُشْبَ البري الذي احترقْ
لابدّ أن ينبت ذاتَ يوم
لابدّ أن يعودْ

*

ويسأله أحد الصحفيين الشبان في مقابلة أن يعرّف نفسه فيعلق على السؤال بقصيدة يقول فيها:

أنـــا إليـــاذةُ البكـــاءِ عـــلى الرَّمْـــلِ
ولم تـــسمَعِ الطلـــولُ أنينـــي
التمـــسني في كـــل بـــسمةِ طفـــلٍ
واســترِحْ مــن مــواجعي وشــجوني

*

ومع أن الشاعر لم يقحم نفسه في المعركة التي دارت بين أنصار الشعر المقفى والشعر الحر في قصيدة النثر، إلا أنه في " الثمالات" يقدّم وجهة نظره بلسان القافية الشعرية، فهي تقول للخارجين عليها:

قَيَّدتُكُمْ دهراً بسحرِ رنيني
ارموا وراءَكُمُ إذاً
زهوي ـ كما شاء الهوى ـ وفُتوني
وامضوا بلا دربٍ.. على

كل الدروبِ، وجربوا

كلَّ المعارجِ.. واضربوا

في كل فجٍّ

بانتظار اللاهثين وراء وَهْمٍ ساحرٍ

تجدوني..

*

وللشاعر رأي آخر في معيار الشعر، وهو أن يعبّر عن رغبات الجماهير، فيقول:

حين يحملكَ الفقراءُ على أكتافِهِمْ

وأنت تغني جوعَهمْ

قصائدَ ملتهبة

فسوف تكونُ

في صميمِ الشعر

الشعرُ.. جوعٌ يتكلمُ، يغني

ثم يأتي تَرَفُ الأحاجي

وتلوينُ الغيوم

*

ويقدم الشاعر قصيدته (كنا نحلم) لكل الحالمين الذين يتصورون أنهم سوف يهزون الشمس، فتسقط في أرض الفقراء بيادر قمح وغلال. وفي النص خيبة أمل من الحلم، فهو محال حين يصطدم بصخرة الواقع، وقد تعلم الشاعر ألا يسترسل بعيداً وراء الأمل، فالدرب طويل والمعاناة أكبر مما كان يتصوّر، وهاهو العمر قد صوّح، فليس له إلا أن يرتشف ثمالة الكوب، ويتحول إلى صديق للفراشات والندى، فلا يخدعه الحلم ببريقه.

ويسجل هذا عام ١٩٦٧م بعد حوادث مأساوية عصفت بالوطن العربي. ومما يزيد خيبته أنه لا يجد صدى لعقود من الزمن نذر فيها شعره لإيقاظ أمته وتوعيتها.

لكنه مع ثمالات (٢) ينفض عن روحه القنوط، لأنه ـ كما يقول ـ وُهِبَ لهباً داخلياً لا يخمد بل يزيده وقدة واشتعالاً:

وهبتني نفخةٌ مجهولةٌ

وقدةً

لمّا تَزَلْ تشتَعِلُ

ذات يومٍ تنطفي.. ما همَّني؟

واقفٌ؟

إني إذن أشتعلُ

*

وبعد كل إحباط يجدد الشاعر عزيمته في بدايات بواكر، مثلما تجدد الحياة نهرها، وينبعث من رماده كلما احترق، غير أنه يوسّع في شعره دائرة

اهتمامه، فالقصيدة تأخذ طابعها الإنساني بتنوع موضوعها والمواقف التي تثيرها، تسكب عطرها مع كل لون وغناء وسكرة قبلة وغدائر امرأة ووقفة شموخ وإباء، مع جنون الحب، قرب نيران مدفأة، ومع تأمل غيمة ترحل ولا تعود.. يقول:

بلا تخومٍ سَفَري كانَ

بلا حدودْ

وليس لي شكلٌ ولا إطارْ

يسجنني فيه " المنظِّرونْ"

فلا تُسمُّوني.. ستتعبونْ

حيث يكونُ مبدعٌ أكونْ

*

من هذا المنطلق تستثيره المواقف التي نراها عابرة، فيجعلها مصدراً لشعر إنساني عميق، مثل موت الشاعر الراحل المبدع " نزار قباني " فيقول في وداعه:

لا تموت الكَلِمهْ

إنها في البدءِ كانتْ

وستبقى الشاعرهْ

وإذا ما شاعرٌ عنها رَحَلْ

نصفُ عطرِ الأرضِ

نصفُ الماءِ

نصفُ الظلِّ والضوءِ رَحَلْ

كلما عاشَ العَطاءْ

زيدتِ الأرضُ جمالاً وبهاءْ

كثرتْ فيها ينابيعُ الضياءْ

وبأسلوب ساخر يعلق الشاعر "العيسى" على الشعر الحديث الغامض المبهم الذي لا يعرف شاعره ولا قارئه ما يراد منه:

هـذا الـسوادُ الـذي يَهْمـي عـلى الـورقِ
بِـــلا ليـــالٍ بـــلا سُـــهْدٍ بـــلا أَرَقِ
مـــا زلـــتُ أحنـــو عليـــه ثـــم أســـألُهُ
مـاذا يريـدُ؟ كلانـا في الجـواب شَـقي

*

ويهب للأماكن والمدن العربية شطراً من قلبه، فيزور الجنوب اللبناني ويخلّد نضاله بقصيدة طويلة، يختمها بتحية لأبطاله الذين ردّوا للأمة الجريح كرامتها:

غداً، يكون الشعرُ لَكْ

والحبُّ لَكْ

والمجدُ لَكْ

يا من يزيحُ العارَ عن أيّامنا

وينشر الطيوبَ في شِعرنا

في عمرنا

يا ألقَ العصرِ الكسيحِ، عصرِنا

يا شاعري العظيمَ

يا جَنوبْ

*

ومن أجمل تأملاته ما ربط به بين ماضي الأمة وحاضرها، وبينه وبين امرئ القيس الملك الضليل، في علاقة فنية وروحية وقومية، قرّبت بينهما على بعد الزمان والمكان، وضياع شاعرين أضاعهما قومهما وخذلهما.. يقول:

أين حوافرُ مُهرِكَ في بيداء العربِ

وأين صهيلُ غنائكَ أنتْ؟

سقَطَتْ في الأعماقِ، سقطنا معها

صار الأمس بكاءَ الحاضرْ

أبحثُ عنكْ

لا حلمي أمسكتُ بخيطٍ منهُ

ولمْ أظفرْ بشعاعٍ منكْ

لا تسأَلْني

" دارةُ جلجلَ " عند تخومِ اللدِّ مخيمْ

منذ سنينَ عذارى الحيِّ يُقِمْنَ هُناكْ

يغزِلْنَ الزمَنَ العربي عباءاتٍ لليُتم هناكْ

*

وفي قوله "يغزلن" إلماح بالقصيدة لابن عباد **(المعتمد)** يصف حال بناته في منفاه بالمغرب، وكأن تاريخ الأمة سلسلة من المآسي لا تنقطع، تتوالى فيها مشاهد إذلال الإنسان العربي وقهره وقد ماتت نخوة الرجال.

ومن ثمالات **(٢)** يختار الشاعر أجمل رسائل الحب التي وجهها لزوجته.. يقول:

إذا فتحتُ دفترَ الصباحْ

ولم أجدْ وجهكَ في يدي

عَلا حنيني صهوةَ الرياحْ

واخترقَ الغيبَ

إلى موعدِ

*

وللطبيعة نصيب من تأملاته يتخذها رمزاً لحماقات الإنسان حين تغضب أحياناً، فتعصف وتخرّب وتنتقم، وكأنه يشعر ما حملته من غضب في ثوراتها المدمرة:

حين يا أرضَ الخطايا تعبثِينْ

حين لا مأوى لأكداس الصغار الضائعينْ

اِلجمي هذا الغضبْ

كفكفي ثورتَك الهوجاء

أيُّ عدل؟

أيكونونَ الضحايا

لحماقاتِ الكبارْ

فترد الطبيعة على الشاعر:

أنا لم أبدأكُمُ قطُّ الأذى

لو تذكرونْ

إنني أُغتال.. تغتالونني ليلاً نهارا

وتعيشون فساداً بيَ سراً وجهارا

أنني أحنى وأَرْأَمْ

منذ أن كنتم على ظهري

ورقرقتُ الهناءاتِ لكُمْ

أحنى وأَرْأَمْ

*

ويتساءل صديق له عن إيثاره العيش في الظلّ والعزوف عن المناصب والمراتب.. فيقول:

لم تَكُنْ كِبْراً ولا أَنَفَةْ

وقفةٌ في الظلِّ مختلفةْ

هي زهدٌ يا صديقي بالبريقِ

خَلِّني في الظل

هذا الضوءُ لا يبهرني

والذي يسحَرُ ما حوليَ

مَنْ حوليَ.. لا يسحرني

خلِّني في الظلِّ

إن الظلَّ أغنى

إنه أبهى وأسنى

إنني أملؤه.. يملؤني

فكراً وفنا

وشروداً في فِجاج اللانهايات وحُسنا

*

إن ثمالات **(٢)** رحلة شاعر متعددة الآفاق في رحاب الذات والكون، وتأملات لها سمات كونية وإنسانية، وسَّعت دائرة شعره الذي ظل طوال عقود من الزمن وقفاً على الهمّ القومي، لكن ذلك الهم يكتسي بهذه النقلة

بُعداً إنسانياً، مثلما يرود شعر الشاعر آفاقاً معاصرة وعالمية جديرة بأن تترجم ليقرأها العالم خارج نطاق وطنه العربي من منطلق فهمه للشعر ورسالته العالمية، والتي يشكل الشعر الوطني والقومي رافداً من روافدها.

ولن نتوقف طويلاً عند ثمالات **(٣)** فقد قرأها جمهور الشاعر في سورية، وتعرَّفوا طفولته وسيرة حياته والعوامل المؤثرة في إبداعه، وخاصة نشأته على يد والد توسَّم في ابنه الموهبة الشعرية فدفعه إلى حفظ ديوان المتنبي طفلاً، وهكذا رسخت في ذاكرته نصاعة اللغة التراثية وإعجازها. فكانت محطة آمنة لروحه القلقة، تشجعه على الإبداع وتقدر موهبته، ويحلمان معاً في خدمة الفكر والإبداع وبناء عشهما الزوجي، وصلته بالمناضل القومي " زكي الأرسوزي" التي أسفرت عن التزام حمل رسالة بعث الأمة للكبار والصغار وهو الذي يقول فيهم:

يجيئون مثلَ انبلاجِ السَّحَرْ

ومثلَ خيوطِ المطرْ

يدقّون بابي، يقولونَ شعري

وأفتحُ صَدري

يجيئون.. يحتكرونَ الضياءْ

لأنَّهُمُ نبعُهُ المخصبُ

لأنهم حُلْمُهُ الأعذبُ

أغني لهُمْ.. ويغنون لي

لذا قلمي مورقٌ

لذا..دفتري معشبُ

*

ويوسِّع الشاعر في ثمالات **(٣)** مفهوم العروبة والانتماء إليها، فالعرب أمة أبعد في القدم والعراقة من قحطان وغسان لعبوا دوراً في التاريخ، فكان منهم أباطرة روما من سلالة جدته " جوليا دمنة" وجدة فينيقية أخرى، ارتحلت مغامِرة وسميت أوربة على اسمها:

جدتي.. قيصرة الدنيا على شرفة القصر

ويندلحُ الصباحْ

عنبر الشرق القديمْ

نَكهة المجد العظيمْ

قُبَلاً... للسحرِ في روما جناحْ

من أغانيها.. وللعاصي جناحْ

جدتي.. طفلةُ حمصَ الساحرةْ

الليالي الشاعرةْ

كلها مُلكُ يَدَيْها

*

في هذه الثمالات صور جميلة لمدن سورية وعربية: صنعاء وبيروت وجبلة وحماة وهي المدينة التي استقبلته بعد تشرده من اللواء. وفيها صور إنسانية لمبدعين يستحقون كل تقدير.

وتنتمي ثمالات (٤ و٥) إلى شعر المرحلة اليمنية أيضاً، كما أن المختارات منها في " السفر الجميل" بدت امتداداً ثمالات (١ و٢) من حيث تركيزها على تأملات الشاعر الفكرية والإنسانية. ومنها ما يقوله تحت عنوان شاعر:

هو غائبٌ أبداً وحاضرْ
هُوَ في الوِهادِ وفي الذُّرا
هو في السماءِ وفي الثرى
هو ليس يدري أينَ؟
ضاع مكانُهُ.. ضاعَ الزمانْ
تتفلّتُ اللحظاتُ صرعى من يديهِ
يلُمُّها في راحتيهِ
وينسُجُ الأبعادَ أغنيةً
ويتركها لظهر الغيبِ
مطلقةَ العِنانْ
طفلٌ..

تصارَعَ فيه كُلُّ براءةِ الدنيا

وعنفُ العنفوانْ

طفلٌ يمرّ على الوجودَ سحابةً

سَمَّوْهُ: شاعرْ

هو غائب أبداً وحاضر

*

ويمرّ العيد في اليمن فيذكره بالمتنبي وقد أقبل العيد وهو في مصر.

لكن الشاعر "العيسى" لا يشعر بغربة العيد كالمتنبي، بل هو سعيد بين أطفال اليمن في ثيابهم الزاهية البراقة:

حولي صغارُ الحيِّ

منثورون كالدررْ

وَدِدتُ لو كنتُ على شفاههم أنشودةً

ولعبةً في يدهمْ

تهزأ بالخطرْ

ولا تبالي بسوى الضوضاءْ

يعطِّرون الأرضَ فيها

تفتحُ السماءْ

أبوابها لهم

وهم يغنون ويهزجونْ

أنصب لهم بكل حيٍّ عندنا أرجوحَتكْ

عرِّج على المحروم منهم

ثم طوِّقهُ بالحب وبالحنان

*

وتتناول مختاراته قضايا فنية وفكرية هامة منها حزنه على ما آلت إليه اللغة العربية من تحجّر بعد أن سادت عشرين قرناً، واكتست حلل البيان، فيقول:

قاومتُ جارفةَ السيولِ

صمدتُ للزمن الكسيحِ

بقيت واقفةً وشامخةً

وأهلي مقعدونَ

تحجروا بكهوفهم، بجحورهمْ

فلزمتُ أبراجي

وها أنا ذا.. بكل روائعي متحجرةْ

*

المختارات الشعرية من ثمالات (٥) اختارها الشاعر من كأس الشعر، يعيد فيها تاريخه الشعري، وقد سقى الناس طويلاً وظل ظامئاً تائهاً، فليشرب

بقية الثمالة من كأس شعر في كهولته، وكلما فرغ كأس من خيبة أمله أترع نزفاً بمآسيه المتوالية. وهي ليست مآسي فردية، بل هموم قومية أرهقته:

دَعْهُ إذن يتفيأ غابَ ماضيهِ

سقى العطاش زماناً

فهو في ظمأ

لحبّة من رمال التيه تسقيهِ

دعه ثمالاتِ عمرٍ

كلما فرغَتْ

كأسٌ.. ستُترعها نزفاً مآسيهِ

*

أجل.. هذا الحزن الجليل يغلّف اليوم الشاعر سليمان العيسى الذي كان صوتاً صارخاً في البرية يتردد صداه فلا يعرف أثره:

أفتش في المجاهل عن سرابٍ

أقطّرهُ على عودي نشيدا

وما باليتُ

كنت به قديماً

كما روت الروايةُ.. أمْ جديدا!

لقد أشعلته قبسا

بأرضٍ أُرهقت يبسا

ولم أسألْ.. أضأتُ أم انطفأتُ

تركتُ غيري يقرع الغلسا

ويسأل: هل عَبَرْنا فيه ساجعةً ورَجْعَ صدى

أحرّكنا جلاميدا تُطوقنا؟

أزحزحنا جليدا؟

*

وفي قصيدة مختارة من ثمالاته في خاتمة مطاف رحلته اختار عنوانها (السفر الجميل) لمختاراته، وهي من أروع قصائد التحدي الإنساني يمارسه شيخ يتوكأ على العصا فيرفض الاستسلام.. يقول:

تقول لي عصايَ:

فَتِّش عن بقايا الجمرِ في الجَعْبَةِ

عن ثمالةٍ في الكأْسِ

عن دندنةٍ أَطلقها الوترْ

يا أيها المبعثَرُ الهائمُ في خرائبِ العربْ

يا أيها العاشق دون وقفةٍ

يا أيها التَعَبْ!

*

تهمس لي عصايَ:

هات يَدَكَ المعروقةَ العزلاءْ

هيّا، واتكئْ عليَّ

هل أبقى لك السفرْ

إلا الحُطام المشتهى والحلمَ والضجرْ؟

يتحدى الشاعر " العيسى" عجزه الجسدي وكهولته ووهنه ويرفض الاستسلام، ويصرّ على بقاء أمته في معركة المصير، ويختمها بقوله:

بشّرتُ منذ الكفنِ الأولِ

بالقيامةِ الخضراءِ

بالنشورْ

لا تيأسوا

العشبُ والأطفالُ، والندى

آتٍ غداً، آتٍ غداً، آتٍ غدا

لَكمْ بدأنا السفر الجميلَ

يا أحبتي من الردى

آتٍ غداً كما يقول الشاعر سليمان العيسى، وإن غداً لناظره قريب، فلتتمثل الجماهير طلائع الأمة به. ولتتخذ من صلابة إيمانه بالنصر، وثقته بإرادة الأمة شعاراً لها قبل أن يفوت الأوان.

«قطرات » آخر عطاء شعري للشاعر سليمان العيسى

«قطرات» ديوان شعر يدفع به الشاعر «سليمان العيسى» إلى القارئ العربيّ متحدّياً متاعب الشيخوخة ومنغّصاتها الجسدية من عجز وسكون حركة، ولسان حاله يقول: لن أتخلّى عن هذا العطش الأبدي لنشر الكلمة الجميلة بين الناس: أضاميم زهر وأجنحة فراشات تجمّل حياتهم مادام فيَّ عرق ينبض، وطاقة شعرية خلاّقة لم ينفذ إليها الوهن أو الرهق:

قَطَـــراتٌ رَشَـــحت عنهـــا يـــدي
ويـــدي مـــن كِـــبَرٍ تـــرتعشُ
عطـــشٌ فيـــه بـــدأنا عمرنـــا
يرحـــل العمـــرُ ويبقـــى العطـــشُ

*

عنوان الديوان «قطرات» يشرح بوضوح مضمونه ونهجه، فقد كان شاعرنا الكبير في مراحل طفولته ويفاعته وشبابه يملك طاقة شعرية متدفقة. كانت قصائده القومية الطوال تنثال في دواوينه كالسيول الجارفة أو كالأعاصير والزوابع، حتى نسي ذاته في غمرة حماسته، فلن تجد في هذه الدواوين صورة «سليمان العيسى» إنسان اللحم والدم، لأن أناه ذابت في أنا الجماعة، حتى إذا دهمته الشيخوخة، وبرّدت جمرة اندفاعه، عاد إلى نفسه

يتأملها، وإلى عالمه الذاتي يستقرئه إنسانًا يعيش في محيط اجتماعي، ووسط طبيعي، ويقيم علاقات مع الناس، أو يصادق البشر والشجر والحجر.

ويقرأ سِفر الطبيعة والحياة، ويثبّت لحظات الزمن الهاربة، فديوانه «قطرات» هو ثمالة الثمالة إن شئت، أو هو خلاصة عمر مديد من التجربة الإنسانية والإبداعية، اختار فيه الشاعر خلاصة مايمكن أن تتركه الشمس الغاربة من آثار وملامح بعد غروبها، يظل الناس يتذكرونها، ويسترجعون صورتها من الآثار التي تركتها بعد الرحيل، لتشرق مجدداً في حياتهم:

وهـــــذه قطـــــراتي	وكـــنّ قبـــلُ ســـيولا
أهدهـــدُ العمـــر فيهـــا	أمـــدّ ظـــلي قلـــيلا
أحـــاورُ المتنبـــي	أرتـــدّ عنـــه كلـــيلا
لقـــد عـــصاني يـــراعٌ	غـــزا بي المـــستحيلا
ســكتُّ، لململمت جرحـي	تمتمـــتُ: صـــبراً جمـــيلا
مـــادام في العـــرق نـــبضٌ	فلـــن أكـــون بخـــيلا
يـــا جمـــرةً حملتنـــي	إلى النـــشيد رســـولا
زال الـــزوالُ وعاشـــتْ	لم تـــستطع أن تـــزولا

*

وإشارة الشاعر هنا توحي أنه استعار نَفَسه الشعري من المتنبي للسير على نهجه في قصائده الطوال، ثم أدركه العجز فاكتفى بالمقطوعات القصيرة التي لا تتجاوز أبياتًا معدودة ارتضى بها مدارياً عجزه على مضض.

في المقدمة التي كتبتها رفيقة دربه الدكتورة ملكة أبيض، تعزو اختياره عنوان الديوان: «قطرات» إلى قلة إنتاجه في مرحلة الشيخوخة قياسًا إلى إنتاجه الغزير في المراحل السابقة، وتردّ معظم قصائد الديوان التي كتبها خلال ما لا يزيد عن عام إلى أحداث طارئة مرّت بالشاعر خاصة وعامة، ماجعل حياته حافلة بالعلاقات الإنسانية، والأثر البالغ لمحيطه القلق الذي يمدّه بالمعاناة والتأملات الواقعية، فقد تقلّص الحلم... حلمه القومي أمام صخرة الواقع المرّ والعجز الجسدي:

تقلّــــصت بانزيـــــاح العمـــــر مملكتــــي
حتــى غــدتْ عــشَّ عــصفور ومتكــأَ
وكنـــــت أطلــــق خـــيلي في أعنّتهـــــا
والآن، لا غُلَّـــــــةً أروي ولا ظمـــــــأَ

*

ومع أن الشاعر لم يتحوّل عن حلمه القومي، فظلَّ يتبنّاه بإصرار تارة مفصحًا، وتارة صامتًا، فسكوته ليس تخليًا عنه، لأن للصمت لغة مفصحة، كما يقول في «ظمأ»:

أنا ما أزالُ على ركود مجامري
ظمأً إلى اللهب القديم يتمتمُ
أتظنني حطبًا؟

كفتني جذوةٌ

صمتت بأعماقي، وبوحٌ ملجمُ..!

*

ولم يتخلَّ عن اندفاع الشباب، فهو دائب التحسر على ذهاب مرحلة شبابه «وجنونها» الأثير لديه، فهي أفضل في نظره من حكمة الشيوخ الواقعية، ولو كانت عقلانية:

وكنتُ أغوصُ في كوبي طويلاً

وأنهلُ ما يشاء لي الجنونُ

وها أنا قد هدأتُ

فلا شراعٌ

يعرْبِدُ في العُباب، ولا سفينُ

*

ويتمنى لو يعود إليه الشباب ومعه «جنونه» الجميل، يقول تحت عنوان «لنعرف»:

جنونَ الشباب، شبابَ الجنون

ألا ليتَ أيامَكَ الخاليةْ

تُعربد في دمنا مرَّةً

لنعرفَ طعم الصبا ثانيةْ

*

ولكن بالرغم من حنينه الدائب إلى شعره المجلجل الهادر في مرحلة الشباب، فإنَّ سرّ هذا التحوّل لدى الشاعر، من الشعر الحماسي الخطابي إلى الشعر الهامس المعبّر عن الذات في قطرات، لم يكن مردّه ـ في تقديري ـ إلى ظروف عجزه فحسب، وإنما بدا من خلال استعراض دواوينه في مرحلة الشيخوخة منذ الثمالات، بل قبلها، أنه نهج تجديدي اختاره الشاعر أسلوبًا بعد أن احتدمت المعركة بين أنصار التجديد الشعري ودعاة التقليد، فلم يجد الشاعر «سليمان العيسى» لدى المحدثين من الشعراء الذين اتخذوا من الشعر الغربي مثالاً لهم مايحقق رغبته في نقلة شعرية تحرر الشعر التقليدي من خطابيته، واسترساله أحيانًا وراء تفاصيل شعرية متسطحة تفقد تأثيره.

وهو في الوقت ذاته كان يطمح إلى لون من الشعر يحتفظ بقدر من الوضوح، مع تكثيف الخطاب الشعري القديم الطويل النَفَس، من غير أن يفقد الشعر جماهيريته وهويته.

إضافة إلى ذلك اطلاع الشاعر على محاولات التجديد الحقيقية في الشعر الغربي، حيث فرض العصر اختزال الخطاب الشعري المعاصر، وتكثيفه وتركيزه في «قطرات» تغني عن سيول جارفة، وتؤدي التأثير ذاته، فأكثر دواوين الشعراء المعاصرين في الغرب تحتفي بالفكرة المركزة والمكثفة، ومعظم كتاب القصة اليوم يتبنون في عصر السرعة ما عرف بالقصة القصيرة جداً، وأكثر النتاج الشعري المعاصر يميل إلى الاستبطان الذاتي، والتأمل الداخلي، وينأى عن الضجة التي تشوِّش القصيدة حين يصرفها التعبير عن العالم الخارجي عن عالم النفس وأعماقها.. وقد توافرت للشاعر «سليمان العيسى» كل مقومات هذا اللون الجديد من الشعر الهامس، فهو شاعر

رومانسي حالم بمقدار ما هو صاحب حلم واقعي وموضوعي، فاهتمامه بالأطفال ليس حلماً خياليًا، ونحن نشهد في عالمنا المعاصر احتفاء الساسة العالميين بالتربية، وما تبني عليها الأمم من أمل منشود. والشاعر «سليمان» يؤمن بدور الكلمة الشعرية في حياة الجماهير العربية إلى الآن، وما تحمل من أبعاد وقيم مادية وروحية، فيقول تحت عنوان: «كلهم حولي»:

لَمْ يزلْ في بلدي للكلمةْ

سِحْرُها

كانت حياتي كَلِمةْ

الصبايا والشبابْ

والحكاياتُ العذابْ

كلهم حولي.. لأجل الكلمةْ

وأغني.. وأنا بعضُ حُطامْ

إنّما الشعرُ كلامْ

هو بين الله والأرض نداءْ

يصل الأرض بأسرار السماءْ

*

فإيمانه بالشعر أَسْلَمَه إلى رومانسية لم تكن متشائمة، أو فردية ناقمة، فهو إنسان منفتح على الآخر، منسجم مع الحياة والواقع، ودود ومسعف ومتكيّف، لا يحمل قلبه الحقد والأذى لمخلوق أو جنس. لم يَهْجُ إنسانًا في

شعره، وهو صديق للطبيعة يسحره جمالها. صديق للمكان ومعالمه وآثاره، وبعيد عن العنصرية. له في كل مكان حلّ به أصدقاء ومعارف وصحبة دائمة هذا البعد الإنساني لرؤيته الشعرية هو ما أراد تثبيته في ديوانه «قطرات» فمن خلاله نلمح عبر هذه الخواطر أو القطرات اتجاهه الشعري التجريدي الذي بدأ مبكرًا في دواوينه السابقة على صورة أبيات محدودة يوجهها إلى صديق وفيّ، أو لوحة طبيعية مشهدية يرسم من خلالها مشاعره، أو صورة إنسانية تنبض بالحياة لشخصية شعبية مغمورة جمعته بها أحوال الحياة في فندق أو مقهى أو مجلس، وعلى مرّ الزمن رسّخ هذا الاتجاه الذي يسمّيه النقّاد خطأ شعر المناسبات، والأجدر أن يطلق عليه: شعر الحياة أو الشعر الإنساني النبيل، وبخاصة إذا كان صادقاً، أو مجردًا من المصلحة والمبالغات.

لقد رثى «سليمان العيسى» الشاعر «نزار قباني» بقصيدة جميلة مطوَّلة، ورثى الكاتب المناضل غسان كنفاني بكلمة مؤثرة، ورثى الشاعر السعودي غازي القصيبي فحرّر الرثاء التقليدي من المبالغات المقيتة، ولم يقل في المرثي إلاَّ ما يحدّده حقًا، فالراحل القصيبي:

زرع الرمـــــــــل أقحوانًـــــــــا ووردا
ومـــــشى في الهجـــير ظـــلاً وبَـــرْدا
شـــاعرٌ مـــن عَـــرار نجـــد ســـقتهُ
نفحـــات العـــرار عطـــرًا ونـــدّا
ذاتَ يـــــومٍ قرأْتُـــــهُ فرمــــــاني
في تخـــوم مـــن نـــشوة، تتحـــدى

كــان في صــوته امــرؤ القــيس والأعــشى

ونجـــدٌ حلـــوٌ يغـــازل نجـــدا

هكـــذا تُنْبِـــتُ الرمـــال قوافيهـــا

فَتَخْـــضَوضِرُ القفـــار وتنـــدى

*

وما يلفت النظر في «قطرات» الشاعر أنه لا يُقَدِّمُ من الخواطر واللوحات والذكريات إلاَّ ما يبهجه ويسرّه، ويغرق بفرح الحياة وسعادتها، ولا يتناول أي وجه عابس من الحياة يزيد هموم القارئ، ومتاعبه سوادًا وتعكير صفو. ومع أن الشاعر «سليمان العيسى» مرَّت في حياته مواقف وظروف قاسية جديرة بالتسجيل، منها سجنه مرارًا، وتشرّده، لكنه آثر أن ينأى عن إشراك قارئه في جهامة تلك الذكريات وعبوسها، والجانب السلبي الوحيد الذي يثيره في خواطره ما يراه من فساد ذوق أو تشويهٍ متعمد أو تضليل فكري مقصود، فيما يقرأ من الوقائع والنصوص والمرويات، فيردّ على ذلك بعنف.. يكتب تحت عنوان **(احتجاج شديد اللهجة)** معلقًا على بيتٍ منحول نسب إلى «ولاّدة بنت المستكفي» ورد فيه:

أُمكِّـــنُ عاشـــقي مـــن صـــحن خـــدي

وأعطـــي قبلتـــي مـــن يـــشتهيها

فيعترض على هذا النحل، ويربأ أن تكون الشاعرة الأندلسية الأميرة في هذا المستوى من الانحدار والسخف، فيعلق عليه:

كـــلامٌ مـــن ســـخيف القـــول، فـــجّ
أضـــيفَ إليَّ ممجوجًـــا كريهـــا
أُحِـــبُّ فأجعـــل الـــدنيا نـــشيدا
عـــلى وتـــرٍ، أجـــل، وأتيـــه تيهـــا
وأعـــشق، حـــين أعـــشق، عبقريًـــا
يجـــوب بي المجّـــرة لا ســـفيها

*

وتحت عنوان: «الشاعر والخيال»، يُبدي رأيه في خيال الشاعر، فيرى فيه جناح الشعر للتحليق والرؤى، لكن ضمن الحدود التي يقرّها منطق الفن وجمال التخييل:

الخيالُ المجنّحُ
فرسُ الجن يسبحُ
في غيوبٍ من الرؤى تنداحُ
ما يشاء الجنون والانسياحُ
غير أني أحدّهُ
عن جنوني أردّهُ
بالبيان الذي يُفيدْ
عبثَ القول لا أريدْ

*

وفي بعض هذه القطرات المنتقاة من البيان وروعة التشبيه ما يشهد للشاعر بالتميز الفني، يقول تحت عنوان: «من أجل حمص»، وقد عاتبته رفيقته لأنه لم يكتب عن مدينة «حمص» شيئاً، وهي بلد الشعراء، وحاضنة العاصي والميماس:

لم تقـــل في «حمـــص» شــــيئاً إنهـــا

بلـــدُ الـــشعر وبيـــتُ الـــشعراءْ

لِمَ لا تنــــــــشدها أغنيـــــــــة

بـــرؤى المـــيماس والعـــاصي تـــضاءْ

*

فيعلّق على عتابها قائلاً:

أطـــرق الـــشاعرُ والـــشعرُ فقـــد

ألجـــم العتـــبُ ينـــابيعَ الغنـــاءْ

إنّـــه الـــسرُّ الـــذي يجعلنـــا

نكـــتمُ الأغـــلى ونهـــوى في الخفـــاءْ

*

ومن أمثال ذلك، تلك الصورة الشعرية المحلّقة التي جسّد فيها النبوغ وشروطه، تحت عنوان «ريشة أو ريشتان»:

ريشةٌ.. ريشتانِ

لا تكفيانِ

لتُعدّ الجناحَ للطيرانِ

نفضت ريشَها العقابُ.. فكانت

ملءَ سمعِ الفضاءِ..

ملءَ الزمانِ

*

أو في هذه الخاطرة بعنوان «تاريخ» التي تختزل تحت كلماتها مجلدات:

اشتعلتْ

نارٌ

في بلدي

في منتصفِ

القرنِ

الفائتْ

مازالَ

العالمُ

مشغولاً

في إخمادِ

اللهبِ

الصامتْ

*****

نلاحظ في هذه الخاطرة تشكيلاً جديداً لكلمات النص على الورق، فهو يعبّر عن نزعة تجديدية معاصرة لدى الشاعر تتعلق بشكل الشعر وتأثيره، فكل كلمة تستقل في سطر منفرد. وكأن كل مفردة تحمل من العبء ما يستغرق علاجه زمنًا، يمثله التدرج الطويل البطيء لترتيبها على مساحة البياض، فإذا أضفنا إلى ملامح تجديد الشاعر وحدة المضمون في دواوينه الأخيرة، وإعادة النظر في توزيع ديوانه الكبير إلى وحدات مضمونية، تبين أن الشاعر «**سليمان العيسى**» يتبنّى رؤية عصرية تجديدية للشعر العربي، فالأحداث الكبرى في حياة الأمة ليست إلاّ مناسبات يطويها الزمن، ويبهت ما قيل فيها وبعد غيابها عن ساحة التاريخ، أما الذي يبقى فيها ويخلِّده فيها قيم الإنسان، لأنَّها تدعونا إلى أن نسعف عالمنا القلق، وندعوه أن يسعفنا في تقبّل الحياة، فهو يداوي جرحنا، ويهب وجودنا معنى..

مثل هذا الشعر الإنساني الذي تقدمه «**قطرات**» فيه من الدفء الإنساني وجمال الروح مايشدّنا إلى أن نقرأه ونعيد قراءته مرارًا، لأنه الخالد السرمديّ، يغنّي فيه الشاعر لجمال الحياة، وللناس من حوله، ولمن يجيء بعدهم.. يغنّي والمرارة في حلقه، قال ذلك معبّراً عن شقاء حرفة الشعر في مقدمة شعرية بكلمة نثرية وجَّهها إلى صديق شاعر بعنوان «**صديقي زاهر**»:

هو شاعرٌ...

لِندعهُ والخَطَرَ الذي أسرى له واختارهُ

خَطَرَ الغناءْ..

أنا لستُ أعرفُ مهنةً

أشقى وأمتَعَ..

لستُ أعرفُ..

إنها في عُرفِهِ، في عُرفِنا سرُّ البقاءْ

لنَدَعْهما..

هو واللَّهيبُ الحلوُ

يصطرعانِ..

ما جدوى الوجودِ بلا وترْ؟

يفنى بدندنةٍ..

ليمسحَ بعضَ أوجاعِ البشرْ..

*

أجل.. إذا شئتَ أن تبحث عن الشاعر «سليمان العيسى» لسان الأمة المعبّر، فالتمسه في شعر شبابه؛ وإذا أردت صورة «سليمان» الإنسان.. إنسان الحب والصداقة والحكمة وكل ماهو جميل يمتّع القلب ويفرحه فالتمسه في شعر كهولته، ومن خلال قطراته المنتقاة، فإنها ستكون زاداً لك لتجدد إيمانك بالحياة والمثل العليا، وواحة تفيء إليها إذا أتعبتك الحياة...

* * *

آخر لقاء مع الشاعر «سليمان العيسى»

«سليمان العيسى»: رائد الشعر القومي المعاصر، وقيثارة العروبة الخالدة التي فجّرت المدَّ العربي بعد الحرب العالمية الثانية في مواجهة الأحلاف والمؤامرات، وأطلقت طاقات الأجيال العربية، ووحدتها على دروب النضال الوطني.

عرفته الجماهير العربية منذ الخمسينيات من القرن الماضي لسانها المعبّر عن تطلعاتها إلى الحرية، فقاد بشعره حركة الكفاح القومي وفجّر شرارتها في كل مناسبة، تغنّى بالوحدة العربية ودعا لها، وأولى القضية الفلسطينية اهتمامًا خاصًا في شعره، فرافق مراحلها وانتفاضاتها المتعاقبة، ولم يتسرب اليأس إلى قلبه، فتحوّل إلى الكتابة للأطفال، ورأى فيهم أمل الغد المنشود.

* * *

س ١ – بين الشاعر «سليمان العيسى» الشاب وسليمان الكهل مراحل من العمر والعطاء الشعري، فماذا قدّمت الكهولة لسليمان إنسانًا وشاعرًا؟

ج١ ـ تفجّر صوتي أيام الطفولة والشباب بالعاصفات، مع مدّ الثورة والتحرر، وحين بدأ المدّ بالانحسار، أيام الكهولة، لُذْتُ بالصمت حينًا، ثم تعلمتُ أن أفتح نوافذ للأمل بعد كل خيبة، وأبدأ من جديد، مرة بعد مرة.

ومع كل بداية، كانت النبرة تخفتُ، والحكمةُ تحلُّ محلّ الجنون، ما يهمني في هذا التغيير أن تكون البداية ذات معنى:

الثلاثون.. الثمانون

بداياتٌ بواكيرْ

كلّها، إن شئتَ أن تحيا،

بداياتٌ بواكيرْ

إنه نهرُ الحياة

ألْقِ في التيار هذا الظمأ الحلو

أو المرَّ.. وسافرْ

*

سيطر الهمُّ القومي على كتاباتي سيطرة شبه كاملة في البداية، ولكن ظروف الحياة أيقظت فيَّ مشاعر عميقة إزاء أشياء صغيرة، لم أعرها في الماضي الاهتمام الذي تستحقه، فلماذا لا أغنيها الآن؟ ديوان «الثمالات» بأجزائه الخمسة الذي نُشر في صنعاء خلال العقدين الأخيرين، حافل بهذه الاهتمامات الصغيرة الهامة جداً في رأيي، لقد رأيتُ مع اشتداد الضربات، الابتعاد عن الأحداث المباشرة بقدر يتيح لي الإصغاء إلى عالمي الداخلي، والتطلع إلى عالمي الخارجي، وتأمل ما وراء الواقع.

وهكذا اتجهتُ إلى أدب الأطفال والسيرة الذاتية في أدب الأطفال، اخترتُ تناولَ موضوعاتٍ تتصل باهتمامات الصغار وحاجاتهم، فتحدثت عن الطبيعة والألعاب والهوايات والبيت والمدرسة، والأحلام والآمال، ونوَّعتُ طرق المخاطبة، فقلتُ الشعر، وكتبتُ المسرحية، والقصة الواقعية،

والقصة الخيالية أو الأسطورية، وعرّبتُ آثارًا أجنبية لإغناء هذه التجربة وسدّ الثغرات فيها، وكان التعريب بالاشتراك مع زوجتي الدكتورة ملكة أبيض وبعض الزملاء.

وفي «الشالات» اتسعت مساحة النتاج الموجّه للكبار، وتوزعت على الشعر والنثر، وفيها أعطيتُ نفسي حرية تناول أية فكرة تدور بخلدي، أو تلجّ عليَّ، لأني أردتُ أن أقدم نفسي بما تحمل من انفعالات وهواجس، أو أفكار ومُثُل، سواء بسواء.

لذلك يرى القارئ فيها ألوانًا من القصائد.. واحدة عن الأرض، وثانية عن المرأة، وثالثة عن العالم وما يشهده من صراع ودمار، ورابعة عن التراث، وخامسة عن الذكريات، وهكذا...

**

س ٢ – تروّج وسائل الإعلام اليوم للديمقراطية بمفهومها الغربي سبيلاً للخلاص، وقد مجّدتَ في شعرك الحرية، لكنك لم تقترح أي نظام ديمقراطي يلائم الأمة العربية في الواقع الراهن.. لماذا؟...

ج ٢ – ليست مهمة الشاعر أن يأمر وينهى، ويحكم ويشرّع، مهمته – في رأيي – أن يحلم ويضيء، وقلت مرارًا، هناك أناسٌ للحكم وآخرون للحلم، وأنا اخترت الحلم كما يعرف الجميع.

**

س ٣ - في قصائد الحب التي كتبتها نبلٌ وصفاء، وسموّ بالعلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة وفروسية الصحراء، فما موقفك من بعض ما

يشوب الأدب المعاصر من تعبير سافر يشوّه هذه العلاقة ويخلط بين الحب والجنس؟

ج ٣ – أرفض الإسفاف والابتذال في أي شيء كان، ولكني أومن بحرية التعبير، فلكل أن يعبّر عن مشاعره على هواه.

**

س ٤ – في نتاجك الأخير انعطاف واضح نحو الحداثة الشعرية كما فهمتها وأردتها، رفضت الإبهام والتكثيف الشعري والعبث باللغة، فما مفهومك للحداثة الشعرية؟

ج ٤ - يتجسد موقفي بهذا الصدد في العبارة التالية التي ذكرتها غير مرة: أن تعتصر المتنبي ولوركا والمعري وغوته ثم تقف على قدميك وترى الدنيا بعينيك، تلك هي الأصالة والمعاصرة في رأيي. أعترف أني كنت مشدودًا إلى التراث في الفترة الأولى من نتاجي، وكانت ظلال القرآن والمعلّقات وديوان المتنبي تحيط بي، وتشدّ على يدي في كل قصيدة أكتبها، ولكني مالبثتُ أن انفتحت على عوالم جديدة عندما أخذتُ أطالع بشغف الآداب الأجنبية وشعراء الغرب.

مررتُ في تجربتي بالمدارس الشعرية من الكلاسيكية إلى الرومانسية، إلى الرمزية، فالواقعية الجديدة... وكان لكل من هذه المدارس أثرها في كتاباتي، ولكني – فيما أرى – لم أتأثر بواحدة من هذه المدارس كما تأثرت بالواقعية الشعرية الجديدة، ومع هذا فقد بقيتْ تجربتي الشعرية تجربة عربية تضرب بجذورها في أعماق الصحراء.

إني أقف على قدميّ.. وأرى الدنيا بعينيّ.

**

س ٥ – لقد جمعت مختارات لروائع الشعر العربي عبر العصور تنمُّ عن ذوق فني رفيع، لماذا لم تعمد إلى اصطفاء روائعك الشعرية في مختارات يسهل الرجوع إليها، وخاصة أن ديوانك الشامل يتجاوز ألفي صفحة..؟؟

ج ٥ – لقد فعلتُ ذلك أكثر من مرة، فجمعت مختارات من جميع نتاجي في كتابي «من رحلة الظمأ»، الذي صدر في صنعاء عام ٢٠٠٤م، عن وزارة الثقافة والسياحة، كما نشرتُ دواوين مستقلة خصصتُ كلاً منها بموضوع: ديوان الجزائر، ديوان فلسطين، ديوان اليمن، المرأة في شعري، ديوان الأطفال، وأرجو أن يُتاح لي الوقت لمتابعة موضوعات أخرى.

س ٦ – ماذا يمكن أن يقول «سليمان العيسى» لأمته وللشباب والاطفال بعد رحلة العمر الطويلة مع الشعر؟..

ج ٦ – أقول: لا تيأسوا أبدًا، حاولوا أن تنهضوا بعد كل عِثار.. وأن يكون الشروق أهم لديكم من الغروب، وأن تشعلوا شمعة بدلاً من أن تلعنوا الظلام، وأن تفتحوا نافذة حين يغلق أمامكم باب.

**

س ٧ – كيف تقرأ مستقبل الأمة، وأنت الذي تقول في المشردين، وأنت أحدهم:

ألوف يسمونها اللاجئين — على كل منعطفٍ ترقد
ألوف ستنضم يوماً إليهم — أنا وأنت، أتستبعد؟

ج ٧ – كنت وما زلت أنظر إلى طاقات هذه الأمة، لا إلى واقعها، واقع الأمة مرض طارئ مهما طال ومهما استشرى، وطاقاتها لابدّ أن تتفجر ذات يوم.

نحن نزرعُ، ولابدَّ لأطفالنا وأحفادنا من أن يحصدوا.

**

س ٨ – في اعتقادي أن «سليمان العيسى» ظلم شعره الضاحك حين استبعده من الديوان، ألا توافقني بأن النادرة أعظم سلاح حارب به شعبنا جلاديه؟..

ربما كان الضحك والإضحاك في الشعر أقوى أثراً من قصائد الخطاب الجماهيري المتجهمة، ولاسيما أن ما قدمته في هذه الساحة يعدّ من الأدب الإنساني الرفيع، ولا يضيره استخدامك بعض التعابير الشعبية التي لا تلائمه؟..

ج ٨ – صحيح أن شعري الضاحك قد ظُلم، ولكنني لست ا لمسؤول عن ذلك، لقد طبعت أول «ديوان ضاحك» في عام ١٩٨٤م، في دار الشورى ببيروت، وطبعته مرة أخرى عام ٢٠٠٥، في وزارة الثقافة بصنعاء بعد أن أضفتُ إليه جزءًا ثانيًا، وإذا كان الديوان بجزأيه لم يصل إلى أيدي القراء، فالمسؤولية تقع على عاتق الناشر والموزع بالدرجة الأولى، وعلى عاتق القارئ بالدرجة الثانية، لأن اهتمامه ما يزال في حدود متواضعة.

**

س ٩ – لماذا لم يلتفت «سليمان العيسى» إلى إخراج روائعه الشعرية المسرحية (الإزار الجريح، أبو محجن الثقفي، ميسون)، تلفزيونياً على الرغم من قيمتها التوجيهية ودلالاتها الوطنية والقومية، وهي قابلة لهذا الإخراج من الناحية الفنية مقارنة بما قام به الآخرون..؟

ج ٩ – أنت تعرف أن هذا العمل يتطلب جهود أشخاص عديدين ومخصصات مالية كبيرة، وقد دعوتُ الجهات الرسمية والخاصة للإسهام فيه، ولكن التجارب القليلة التي أجريت حتى الآن لم تكن مشجَّعة.

سليمان العيسى في سطور

- ولد الشاعر سليمان العيسى عام ١٩٢١م، في قرية النُّعيرية - حارة بساتين العاصي - الواقعة غربي أنطاكية التاريخية على بعد عشرين كيلو متراً.
- تلقى ثقافته الأولى على يد أبيه المرحوم الشيخ أحمد العيسى في القرية، وتحت شجرة التوت التي تظلل باحة الدار، حفظ القرآن، والمعلقات، وديوان المتنبي، وآلاف الأبيات من الشعر العربي، ولم يكن في القرية مدرسة غير (الكُتَّاب) الذي كان في الواقع بيت الشاعر الصغير، والذي كان والده الشيخ أحمد يسكنه، ويعلّم فيه.
- بدأ كتابة الشعر في التاسعة أو العاشرة. كتب أول ديوان من شعره في القرية، تحدث فيه عن هموم الفلاحين في القرية وبؤسهم.
- دخل المدرسة الابتدائية في مدينة "أنطاكية"-وضعه المدير في الصف الرابع مباشرة- وكانت ثورة اللواء العربية قد اشتعلت عندما أحس عرب اللواء بمؤامرة فصله عن الوطن الأم سورية.
- شارك بقصائده القومية في المظاهرات والنضال القومي الذي خاضه أبناء اللواء ضد الاغتصاب في الصف الخامس، والسادس الابتدائي.
- غادر لواء الإسكندرونة بعد سلخه ليتابع مع رفاقه الكفاح ضد الانتداب الفرنسي، وواصل دراسته الثانوية في ثانويات حماة واللاذقية ودمشق. وفي هذه الفترة ذاق مرارة التشرد وعرف قيمة الكفاح في سبيل الأمة العربية ووحدة وحريتها.

ـ دخل السجن أكثر من مرة بسبب قصائده ومواقفه القومية.

ـ شارك في تأسيس البعث منذ البدايات وهو طالب في ثانوية جودة الهاشمي بدمشق. كانت «التجهيز الأولى» في ذلك العهد. في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي.

ـ أتم تحصيله العالي في دار المعلمين العالية ببغداد، بمساعدة من العراق الشقيق.

ـ عاد من بغداد وعين مدرسًا للغة والأدب العربي في ثانويات حلب.

ـ بقي في حلب من سنة (١٩٤٧-١٩٦٧م)، يدرِّس ويتابع الكتابة والنضال القومي.

ـ انتقل إلى دمشق موجهاً أول للغة العربية في وزارة التربية.

ـ كان من مؤسسي «اتحاد الكتاب العرب» في سورية عام ١٩٦٩م.

ـ متزوج له ثلاثة أولاد: معن، وغيلان، وبادية.

ـ يحسن الفرنسية والإنكليزية إلى جانب لغته العربية، ويلم بالتركية.

ـ زار معظم أقطار الوطن العربي وعدداً من البلدان الأجنبية.

ـ اتجه إلى كتابة شعر الأطفال بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧م.

ـ شارك مع زوجته الدكتورة ملكة أبيض في ترجمة عدد من الآثار الأدبية، أهمها آثار الكُتّاب الجزائريين الذين كتبوا بالفرنسية.

ـ شارك مع زوجته وعدد من زملائه في ترجمة قصص ومسرحيات من روائع الأدب العالمي للأطفال.

ـ في تشرين الأول(أكتوبر)١٩٨٢م، حصل على جائزة «لوتس» للشعر من اتحاد كُتّاب آسيا وأفريقيا.

ـ في عام ١٩٨٤م حصل على جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الكسو) لأدب الأطفال.

ـ وفي عام ١٩٩٠م انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق.

ـ في عام ٢٠٠٠م حصل على جائزة الإبداع الشعري، مؤسسة البابطين.

أ ـ أهم أعمال الشاعر:

١ ـ الأعمال الشعرية (في أربعة أجزاء) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٢ ـ على طريق العمر: معالم سيرة ذاتية، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٣ ـ الثمالات. بأجزائها الثلاثة، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ٢٠٠١م.

٤ ـ الكتابة بقاء، مؤسسة الإبداع، صنعاء، ٢٠٠٢م.

٥ ـ ثمالات ٤، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

٦ ـ الديوان الضاحك (جزءان)، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

٧ ـ وأكتب (قصائد صغيرة لي ولها)، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

٨ ـ كتاب الحنين، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م.

٩ ـ ثمالات ٥، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٦م.

١٠ ـ همسات ريشة متعَبة، دار الحافظ، دمشق، ٢٠٠٧م.

١٢ ـ رحلة كفاح (قصة حياة سليمان العيسى وملكة أبيض)، دار الحافظ، ٢٠٠٧م.

١٣ ـ مدن وأسفار، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩م.

١٤ ـ كي أبقى مع الكلمة، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩م.

١٥ ـ دفتر النثر، دار جداول، بيروت، ٢٠١١م.

١٦ ـ قطرات، دار جداول، بيروت، ٢٠١٢م.

ب ـ مجموعات شعرية مستقلة:

١ ـ حب وبطولة (مختارات)، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٠م.

٢ ـ موجز ديوان المتنبي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٠م.

٣ ـ ديوان الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، ١٩٩٥م.

٤ ـ ديوان فلسطين، دار فلسطين، دمشق، ١٩٩٦م.

٥ ـ المرأة في شعري، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٨م.

٦ ـ ديوان اليمن، صنعاء، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٧ ـ بيت وفكرة، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٢م.

٨ ـ ديوان عدن، جامعة عدن، ٢٠٠٤م.

٩ ـ ديوان صنعاء، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

١٠ ـ دمشق حكاية الأزل، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤م.

١١ ـ من رحلة الظمأ، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

١٢ ـ أنا وحلب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦م.

١٣ ـ أنا وساحلنا العربي السوري، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦م.

١٤ ـ ديوان لبنان،، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦م.

١٥ ـ أنا ومصر العربية، مصر، ٢٠٠٦م.

١٦ ـ أوراق المشتى، ٢٠٠٦م.

١٧ ـ أنا وجزيرتنا العربية، الرياض، ٢٠٠٧م.

١٥ ـ دمك الطريق (عمر المختار)، الجماهير الليبية، ٢٠٠٧م.

١٩ ـ أنا ودمشق، دار الحافظ، دمشق، ٢٠٠٨م.

٢٠ ـ أنا والقدس، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩م.

٢١ ـ ديوان العراق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٠م.

٢٢ ـ النعيرية قريتي،، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٢م.

٢٣ ـ أنا والعروبة، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق٢٠٠٧م.

٢٤ ـ أنا والطبيعة، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٨م.

٢٥ ـ الديوان الضاحك موجزاً، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩م.

٢٦ ـ أنا والأصدقاء، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٠م.

٢٧ ـ السفر الجميل، دار جداول، بيروت، ٢٠١١م.

٢٨ ـ كتاب اللواء، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٣م.

الشعر

١ ـ ديوان الأطفال، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م.

٢ ـ فرح الأطفال، دار الحافظ، دمشق، ٢٠٠٦م.

٣ ـ مسرحيات غنائية للأطفال، دار الشورى، بيروت، ١٩٨٠م.

٤ ـ الشيخ والقمر (مسرحية)، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.

٥ ـ قصائد للأطفال، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨١م.

٦ ـ أغاني النهار، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م.

٧ ـ أغاني المساء، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م.

٨ ـ كتاب الأناشيد (جزءان)، يضم الجزء الأول ٢٠٠ نشيد ملحن، مع نوطاتها الموسيقية، بالاشتراك مع كامل القدسي (قُرابة نصف أناشيده لسليمان العيسى).

ويضم الجزء الثاني اللوحات الغنائية والموشحات مع نوطاتها الموسيقية، وزارة التربية، دمشق.

٩ـ كلمات خضر للأطفال، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م، (بالعربية والفرنسية).

١٠ ـ أغاني الحكايات، أبو ظبي، ٢٠٠١م.

١١ ـ أحكي لكم طفولتي يا صغار، دار الحكمة لبنان، ١٩٩٣م. (بالعربية والإنكليزية).

١٢ ـ مازالوا الواحة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٥م.

١٣ ـ أراجيح تغني للأطفال، دبي، ٢٠٠٩م.

١٤ ـ حدائق الكلمات، بيروت، ٢٠٠٩م.

١٥ـ تسع مسرحيات شعرية للأطفال، ـ ديوان الأطفال، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٣م.

النثر

١ ـ شعراؤنا يقدمون أنفسهم للأطفال، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٨م.

٢ ـ وائل يبحث عن وطنه الكبير، قصة نثرية نشرت في «أوراق من حياتي»، بالعربية والفرنسية، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٣م.

٣ ـ قصص نثرية من التراث، لبيكِ أيتها المرأة، الحَدَث الحمراء، ابن الصحراء، دار الآداب، بيروت.

٤ ـ قصص مزيج من الشعر والنثر: الفرسان الثلاثة، وضاح وليلى في وطن الجدود، سِرْب البجع الأبيض، دار الأهالي، دمشق.

٥ ـ قصتان من ألف ليلة وليلة، علي بابا والأربعين لصاً، وعلاء الدين والفانوس السحري، مكتبة لبنان، بيروت.

القصص المعرّبة

١ ـ قصص بهيجة (٢٧ جزءاً) دار طلاس. دمشق (بالاشتراك مع بهيج البدين).

٢ ـ كل يوم حكاية (٢٨ جزءاً) دار طلاس. دمشق (بالاشتراك مع صلاح مقداد).

٣ ـ لكل حكاية لعبة (١٠٠ قصة قصيرة)، دار طلاس. دمشق١٩٩٤م. (بالاشتراك مع صلاح مقداد).

٤ ـ شجرة ندى (مجموعة قصص قصيرة)، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٤م، بالاشتراك مع صلاح مقداد.

٥ ـ أحلى الحكايات(١٠ قصص)، دار يمان، عمَّان، بالاشتراك مع د.ملكة أبيض.

٦ ـ سلاسل عديدة هي:

الحديقة المعلقة، قصص يحبها الجميع، يُحكى أنَّ، حكايات الجني المرح، حكايات السلحفاة، حكايات ملوّنة، روائع من القارات الخمس، مسرحيات عالمية للأطفال، دار الفكر، دمشق، بالاشتراك مع الدكتورة

ملكة أبيض زوجة الشاعر، قصص وحكم وقديم الزمان، وحكايات من تراث الأمم، دار الحافظ، دمشق، بالاشتراك مع د.ملكة أبيض.

د ـ ما ترجم له:

١ ـ الفراشة وقصائد أخرى: نقلتها إلى الإنجليزية الشاعرة برندا ووكر، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٤م.

٢ ـ رائحة الأرض: نقلها إلى الفرنسية الشاعر اتاناز فانشيف دو تراسي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.

٣ ـ الشجرة: ديوان شعر للأطفال، ترجم إلى الروسية وصدر في موسكو ١٩٨٤م.

٤ ـ أحكي لكم طفولتي يا صغار: نقله إلى الإنكليزية عبد الله كامل، وصلاح مقداد، صدر عن دار الحكمة في لبنان ١٩٩٣م.

٥ ـ أحكي لكم طفولتي يا صغار: نقلته إلى الفرنسية الدكتورة ملكة أبيض، طبع في الجزائر، العاصمة، ٢٠٠١م. وفي وزارة الثقافة بدمشق ضمن «أوراق من حياتي»، ٢٠٠٣م.

٦ ـ وائل يبحث عن وطنه الكبير، نقلته إلى الفرنسية د.ملكة أبيض ضمن «أوراق من حياتي» ٢٠٠٣م.

٧ ـ قصائد مختارة: نقلتها إلى الفرنسية الدكتورة ملكة أبيض بالتعاون مع مبروك مبارك، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

٨ ـ اليمن في شعري، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٣م، ترجمته إلى الفرنسية د.ملكة أبيض.

٩ ـ أوراق من حياتي، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٣م، ترجمته إلى الفرنسية د.ملكة أبيض.

١٠ ـ كلمات خضر للأطفال، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م، نقلته إلى الفرنسية د.ملكة أبيض.

١١ ـ قصائد حب، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٦م، نقلته إلى الفرنسية د.ملكة أبيض.

هـ ـ أهم ما كتب عنه:

١ ـ مع سليمان العيسى: مجموعة من الكتاب، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٤م.

٢ ـ سليمان العيسى، ثمانون عاماً من الحلم والأمل، إبراهيم الجرادي، تحرير وتقديم: عبد العزيز المقالح، إشراف عام، دار الرائي، دمشق، ٢٠٠٠م.

٣ ـ وقفات مع سليمان العيسى، ملكة أبيض، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء ٢٠٠١م.

٤ ـ رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة نابولي، إيطاليا، كالابريزي، آناماريا، ١٩٩٥م.

٥ ـ الشاعر سليمان العيسى، عبد اللطيف الأرناؤوط، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤م.

٦ ـ سليمان العيسى في لمحات، ملكة أبيض، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٨م.

٧ ـ سليمان العيسى منشد العروبة والأطفال، إيمان البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.

٨ ـ سليمان العيسى بين جدّية الرجال وفرح الأطفال، خليل إبراهيم الخطيب، الخطيب للطباعة، دمشق، ٢٠٠٥م.

٩ ـ سليمان العيسى في ديوان الأطفال، ملكة أبيض، دار الحافظ، دمشق، ٢٠٠٦م.

١٠ ـ سليمان العيسى شاعر العروبة والأطفال، إعداد: د.علي القيّم ود.ملكة أبيض، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١١م.

فهرس

الصفحة

في البدء كلمة ـ د.ملكة أبيض ٥
سليمان العيسى ورحلة الشعر الطويلة ١٠
الشاعر سليمان العيسى في لمحات ٣٥
كي يبقى الشاعر سليمان العيسى مع الكلمة ٤٥
سليمان العيسى وريشته المتعبة بعد الثمالات ٦١
وقفات متأنية للشاعر سليمان العيسى ٧٥
سليمان العيسى ثمانون عامًا من الحلم والأمل ٩٣
المرأة في شعر سليمان العيسى ١١٣
الاسفار والرحلات عند الشاعر سليمان العيسى ١٣٣
الجزيرة العربية في شعره ونثره ١٤٧
الساحل العربي السوري في شعر سليمان العيسى ١٦٢
ذاكرة المكان وتجليات الحلم القومي في مجموعة «أنا ودمشق» ١٧٠
حلب في ذاكرة سليمان العيسى ١٨٢

فلسطين في شعر سليمان العيسى.............................. ١٨٨
القدس في شعر سليمان العيسى ٢٠١
سليمان العيسى والكتابة للأطفال ٢١٥
أراجيح الشاعر سليمان العيسى تغني للأطفال.............................. ٢٢٦
شعراؤنا.. يقدمون أنفسهم للأطفال ٢٣٩
فن الإضحاك.. عند سليمان العيسى.............................. ٢٤٥
المسرح الشعري عند سليمان العيسى ٢٦٤
السَّفر الجميل ثمالة الثمالات الخمس في شعر سليمان العيسى ٢٧٠
«قطرات» آخر عطاء شعري للشاعر سليمان العيسى ٢٩٢
آخر لقاء مع الشاعر «سليمان العيسى».............................. ٣٠٥
سليمان العيسى في سطور ٣١٢
الفهرس ٣٢٥

عبد اللطيف الأرناؤوط

- من مواليد دمشق عام ١٩٣١م. ومن أصول ألبانية هاجرت أسرته بعد الحرب العالمية الأولى. واستقرت في بلاد الشام [دمشق].

- أنهى دراساته في التربية والأدب العربي.

- عمل في التدريس وتسلّم إدارة مجلة (المعلم العربي) وبعدها تمّ ندبه إلى اتحاد الكتاب العرب. كأمين تحرير مجلتي [الموقف الأدبي – التراث العربي].

- وسمحت له ثقافته المزدوجة أن يقيم جسوراً من التواصل بين الأدب العربي والأدب الغربي.

٢٠٢١م